

رواية

ثلاث برتقالات مملوكية

حجاج أدّول

ثلاث برتقالات مملوكيّة

/

ثلاث برتقالات مملوكيّة

رواية

حجاج أدول

الطبعة الأولى / ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م



دار العين للنشر
٩٧ كورنيش النيل، روض الفرج، القاهرة
تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠، ٢٤٥٨٠٩٥٥، فاكس:٢٤٥٨٠٩٥٥
www.elainpublishing.com

الغلاف : بسمة صلاح

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٧٩٤٩/ ٢٠١١
I.S.B.N 798-977-490-106-5

ثلاث برتقالات مملوكيّة

رواية

حجّاج أدّول

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

أدول، حجاج

ثلاث برتقالات مملوكية: رواية/ حجاج أدول.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١١

ص؛ سم.

تدمك: ٥ ١٠٦ ٤٩٠ ٩٧٧ ٧٩٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٧٩٤٩ / ٢٠١١

إهداء

إلى الطيِّب صالح

طِيبك مستمرّ

حجّاج أدّول

1

البُحيرة شاسعة فقِيل عنها بحر. من ناحية شمالها الغربي تمتدّ صحاري جليدية بياضها شاهق وسماؤها منغلقة بسحبٍ داكنة، وأغلب شهور السّنة أجواؤها أبرد من الثلج. تسكنها قبائل شقراء مُحاربة، ذوي عيون مُلوّنَة واسعة. الزعيم وعائلته هم الأعلى، تليها العائلات الغنية الرّاسخة التي تعمل في خدمة الزعيم وعائلته، وتحتهم عامّة الناس، ولا قيمة لهم. بيت الزعامة، وبيوت العائلات لهم الغِنى الفاحش، تاركين الفقر المُذل للباقين.

الجمال الأشقر في تلك القبائل مشهود. والأجمل من النّساء دائمًا مطمعًا للزعيم، ولبطانة الزعيم ورجال العائلات الغنية. والجميلات الفقيرات في أغلبهنّ يقبلن أنّ يُسْتَغَلُ جمالهنّ للأغنياء، ليهربن وحدهنّ، أو بعائلتهنّ من خنقه الفقر، وقتامه البؤس!

عائلة غنية من طواغيت العائلات الحاكمة، أتوا بشاب وزوجته، ليعملا في خدمتهم. اكتشفوا جمال الزّوجة المُلفت، ورقصها اللّدن السّلس، فصار عملها الأساسي إمتاع أسيادها بفتنتها جسدًا ووجهًا وأيضًا رقصًا مع بقية الرّاقصات، والراقصين في احتفالات قصف ورفس، لإمتاع الأغنياء الحاكمين، والزوجة الخادمة الجميلة هي أوّل من تأخذ بالألباب، وتُثير البهجة في النفوس، وهيجان الذّكران التيوس. ولها بعد ذلك بعض الأعمال الخفيفة في البيت الشاسع. أنجبت عدة أولاد وبنات. لا هي، ولا زوجها يعلمان من منهم نتاج نُطفة الزوج، ومن منهم جاء من نطفة ذكور العائلة الذين يتداولونها نكاحًا مُباحًا، ولا أحد من الأسرة الغنية يهتم. ومع كرّ السنوات بهت جمالها، فالوجه الرائع انبعثت فيه التجاعيد، وصحوة العينين الزرقاوتين خمُدت، وتهدّل رونق الجسد بتراكم الشّحم على اللّحم، ففقدت ما يميزها. لم تعد بهيجة الرقص اللّين، ولا فتنة النكاح البيّن، فأهملوها وبقي زوجها يعمل لديهم حتّى مَرض، فكان طردهما وأطفالهما!

انكرشوا من منطقة الأغنياء المرفّهين، لينحدروا مرّةً أخرى إلى مناطق العشوائيات القذرة، المبعثَرة على أطراف المدينة المثلّجة. انحشروا في بيتٍ قميء يشاركهم فيه ثلاث أسر فقيرة مثلهم. عصفتْ بهم أنواء الشّتاءات، والمشقّات التي لا ترحم لا فقيرًا ولا ضعيفًا، ولا تُشفق لا على عجوزٍ، ولا على صغير. أجمل بنات تلك المرأة حين بلغت الثالثة عشرة، اضطروا لفقرهم المدقع أنّ يُرسلوها؛ لتعمل خادمة لدى إحدى الأسر الغنية. أسرة تسكن عدّة بيوت متقاربة، يحيطها سور عالي. الباب الرئيسي عليه حرّاس، وباب جانبي -أيضًا- عليه حرّاس.

أوّل من استهواه جمال الطفلة التي تقترب من المراهقة، حفيد رأس العائلة، مراهق وسيم، يكبرها بعام واحد. لمحها وهي تساعد خادمة في حفلٍ من الحفلات الرّاقصة الغنائيةً، السّخية التي تُقام في كلّ مناسبة، وبلا مناسَبة! وعندما شاركت الفتاة في حفلات الرقص، بهرته أكثر وأكثر. غازلها، فمالت إليه فضاجعها شَبَقًا، وضاجعته عشقًا. ضاجعها مرّات ومراتٍ، ثمّ تركها لاكتشاف غيرها. لم يأبه لا لضَراعتها، ولا لدموعها، ولا لقَسمها أنّها تحبّه. قالت: "ضاجع غيري، فقط لا تهجرنيّ. كان الرّد إهانتها، وتذكيرها بأنّها مجرّد خادمة من الخادمات لدى أسرته، وأنَّهُ نحلة ذكر يَحُطُّ على كافة النساء، ولا يمكن أنّ يحوم فقط حول أنثى واحدة!

حين بلغ رأس العائلة العجوز أنَّ حفيده بَلَغَ، وضاجع خادمة صغيرة رائعة الجمال، وأنّ الفتاة مُنهارة تبكي بكاءً مرًا عشقًا فيه ولهفة عليه، لا حزنًا على اغتصابه لها. طلبها. في حجرته الواسعة الدافئة، العجوز مضطجع على الوسائد اللّينة، والمكسوَّة بالحرير. دفعوها لتسقط ساجدة على البساط الصّوفي، المزركش بالقرب من قدميه الممتدّتين أمامه. ذُهِل من جمال، وطزاجة، وتقسيمات جسد تلك المراهقة. فضاجعها بين الوسائد، وهي مُتأفّفة لا تملك رفضًا. مرة واحدة هي ما استطاعه العجوز، وبعدها لم يعد له سِوى ملامستها بكفّيه، ولسانه. علم ابنه والد الحفيد، فطلبها ليرى تلك الفتاة الصغيرة التي خلبت ابنه وأباه! دفعوها لتسجد تحت قدميه، فكان ما كان من ابنه وأبيه، ضاجعها مرّات. ضحك الحفيد ممّا شاع بين أفراد الأسرة التليدة، كثيفة العدد. غضب الجدّ ممّا يقال بابتساماتٍ ساخرة عنه.. عجوز راحت أيامه. فأمر بطرد الخادمة الصغيرة.

أخذت مبلغًا تافهًا. العجوز الذي كان يتأوّه، وهو يلحس مواضعها من فرط لذّته، هدّدها بأنَّ مآلها القتل إنّ حكيت حكايتها. خشيت الفتاة أنّ يعلموا بحملها، فيقتلوها هي والحياة التي تدبّ في بطنها، والتي تأمل أنّ يكون صبيًا شبيه الحفيد الوسيم أوّل من فَضَّها، والذي سلاها، واستمرّت تعشقه.!

الشتاء في أوْجه. السّحب جبال ترعد، وتبرق، وتلقي على الأرض سيولاً من الجليد تحجُب الرؤية. المدينة مُثلّجة الطرقات، والبيوت مثلّجة أرضيتها والجدران. الموت يحوم حول المساكين، وينقضّ عليهم بمِنجلين.. "الصّقيع والجوع".

عادت الفتاة إلى أسرتها، وأسرتها لا تملك ما تدفئ به غرفتهم المحشورين فيها. فقدوا أصغر أبنائهما، والابن الأكبر هَجَّ، ليواجه مصيره. عرضت أمّها جسدها لمن يريد، فلم تجد من يريد نكاحها، ولو مقابل ما تدفئ به حجرتهم ليلة واحدة. أبوها العليل لم يعد يقوى على كفالة صبي وصبية صغيرين بقيا من مُجمل أولاده، الصّغيران يتشرّدان كلّ نهار؛ علّهما يجدان فقط ما يأكلانه، إنّ عادا في نهاية اليوم كان بها، إنّ لم يعد أحد، فلا يملك والديهما ما يفعلانه سِوى البكاء من كلّ هذه التعاسة. ثمَّ أتتهما ابنتهما المراهقة حُبلى!

الفتاة الحُبلى تركت لأمّها ما أعطتها لها الأسرة المتجبّرة التي نكحتها، وطردتها، فصرّفتها الأم في إطعام الأسرة، وتدفئتها أيامًا قليلة. تستلقي الفتاة بجانب حائط، وعليها غطاء حالك مُتهالك. تنظر إلى السّقف،

وتستحلب أحلام مراهقية ساذجة. تفكّر في عشيقها الشّاب الذي أحبتّه، فخانها، أوّل من أذاقها مُتعة القُبلات والأحضان، وحلاوة اللِّقاء الجسدي. تهيم به، وتبكي. عقلها يسرح، ووجدانها يحلُم أنّ يشتاق لها حبيبها، فيطلبها لِتُسرع إليه، وتلقي بنفسها تحت قدميه، وتفرح راضية أنّ تكون مجرّد جسد من مجموعة أجساد تحت أمره. طال سرحانها، وحُلمها طال، ولم يسأل عنها حبيب القلب، وسيّد الجسد. قلبها مطعون طعنتين.. طعنة العشق، وطعنة خيانة العشيق. تنزف إنسانيتها من الإذلال الذي تجرّعته من جدّه، وأبيه. ما تعانيه يحجُب عنها عذاب بدايات الحَمل، وبؤس أسرتها الفقيرة التي تنتظر منها المعونة.!

ولما استمرّت أيامًا في استلقائها، وبكائها بجوار الحائط، ركلتها أمها في عجيزتها، صرخت فيها أنّ تنهض لتعمل، وإن كان ليس لنفسها، فَلِمن في بطنها، ولأسرتها المنهارة.!

ذهبت حيث لا مفرّ. بيت العاهرات، لتتعامل بجسدها عاهرة مُراهقة حُبلى. فناء واسع تتناثر فيه الحُجرات الخالية من أية تدفئة. ودورة مياه قذرة، وطعام رديء، وزبائن من مختلف الأعمار، ومختلف الأشكال. كلٌّ منهم أتى ليضع ذَكره في أنثى، ويقذف سخونته، ويذهب. رأت ابتسامات نفاق لزجة، ثمَّ بعد انقضاء الوطر تنقلب ابتسامات سخرية، واستهزاء. رأت من يأتي لها مُحتقرًا، ويتركها أكثر احتقارًا. من يهينها بقسوة، ليستكمل متعته. من ضربها بعنف، ولم يأبه أنّها حُبلى. القذر العفِن المصرّ على تقبيلها، ونفْخ أنفاسه العَطِنة في وجهها. من أصرَّ أنّ

يُجامعها في دبُرها. تأذّت، وأُهينت مِرارًا. جمالها الخارجي اللّذن صار تحته قُبحٌ صخريّ، بركانيّ من الغلّ ضَدّ هذا المجتمع الذّكوري الطافح بالظلم، فكلّ الرجال بمراحل أعمارهم صاروا في نفسها وحوشًا كريهة. ذكور في أحط حالاتهم تمثّلوا في ثلاثة شخوص.. حبيبها الخائن، وأبيه، وجده. كلّهم شهقوا، وضعفوا قصاد فتنتها، فضاجعوها، ولهثوا وهم يصبّون فيها شهوتهم، وبعدها يحتقرونها، وينبذونها ككلبةٍ جرباء.!

جمالها رفعها درجة، فانتقلت إلى بيتٍ أنظف، زبائنه أرقى. أنجبت رضيعة جميلة مثلها. يطلبها الكثيرون، فتلبٍّي وهي تتعالى عليهم بجمالها. من يرفض تعاليها يذهب لغيرها، فهي لن تُسَطِّح جسدها إلّا لمن يُسَطِّح كرامته لها أولاً، ويدفع لها أكثر من غيرها ثانيًا. تُصرّ أنّ تكون هي المسيطرة المتدلّلة. تشتهر كفتاة صغيرة جميلة، ويزداد زبائنها، فأنقذت والديها فقط من الموت بردًا، وجوعًا، طفش أخوها الصّبي، وأختها الصّبية، وذهبا حيث لا يعلم أحد.

شهور، وصار لها بيتٌ صغير. بدأ المال يجري بين يديها، ويتكاثر مع توالي العُشّاق الأغنى، ومن ذوي المراكز. قالت حان الوقت، لتُريح أسرتها تمام الراحة. اتخذت بيتًا آخر يليق بما وصلت إليه. بيتًا متسعًا به الكثير من الحُجرات، وخادمتين، وحارس! أتت بوالديها المريضين، أسابيع، وماتت أمها مرضًا وبُؤسًا، وانهار أبوها، ليموت بعدها بقليل. بقيت هي وابنتها الصّغيرة تعيش مظهريًا في نعمة، ونفسيًا في نقمة. يتوالى عليها القوم، ويتسامرون ويشربون ويرقصون، ويشاهدون صاحبة البيت حين تسكر

ترقص بمزاج وتغنّي بمزاج، وتختار من تنام معه بكامل رغبتها، وتنال من المال ما تحدّده هي. وحين تبقى وحيدة تُنعي أسرتها التي تبدّدت طفشانًا ومرضًا، وتبكي حالها بفقدان الحبيب القاسي، فتحتضن وحيدتها مُصرّة أنّ تكون تلك الطفلة في حياةٍ راقية حين تكبر.

أربعة مواسم ثلجية هدرت، وانسحبت. كلّ صباح تحكي لابنتها الصّغيرة، تحكي لها عن مآسيها، ومآسي نساء عائلتها، وعن نذالة الرجال الأغنياء، وأطماعهم الجنسية، وخياناتهم، تُحذّرها ألاّ تقع في الحبّ، وإن حدث ووقعت، ألاّ تثق فيمن تحبّه. تملأ ابنتها، وتحشر عقلها، ونفسها أنَّ جمالها لا يجب أنّ يكون مُنزلقًا يعثرها لأسفل، بل سُلَّمًا يرفعها لأعلى. جمالها عطاء مُنقذ، عليه أنّ يصعد بها، فتكون يومًا ذات عائلة تليدة غنية تُهين، ولا تُهان.!

تحت طبقات الحزن، والأسى، والغيظ، وحُرقة عشقها القديم الذي لا يبرد.. نسيت تحذيرات الأسرة المتجبّرة. وحكيت لاثنين من عُشّاقها أنّها أنجبت ابنتها من نطفات العائلة التليدة.

حكايات الخادمة السابقة وصلت إلى الأسرة المتكبّرة، فأتاها الحفيد. صار شابا فخيما ذا شاربٍ جميل، ولحية وقورة، وأكثر غرورًا. معه ثلاثة من الجنود. أطاحوا بالحارس الذي يحرس الباب. أمسكوا بها، وبابنتها التي تصرخ مرعوبة، حتّى انهال عليها عشيق أمّها الأوّل صفعًا، فألجمها وأخرسها هي وأمها. في تلك اللحظة فقط كرهته. مع أوّل صفعة تنزل على خدّ ابنتها، والتي من المحتمل أنّ تكون ابنته هو. احتقرته، واحتقرت

نفسها أنّها أحبّت هذا التافه المُتَكَبِّرْ. يهدّدها، يهدّد من أحبّته كلّ هذا الحب بأنّها إنّ حكيت كلمة أخرى عنه وعن أسرته، فسيكون الموت جزاؤها. أمّا تلك الطفلة التي تدَّعي أنّها ابنة أسرته، فيجب أنّ تُباع رقيقًا، فتبتعد عن بلاد "السّهول الثلجية"، والبحيرة البحر. لم يأبه بصراخها بأنًّ هذه الطفلة ربما تكون ابنته، أو أخته، أو عّمته. انتابتها نوبة تشنّج، وصريخٌ عالٍ. تحاول الإفلات من الحارسين الممسكين بها؛ لتنشب أظافرها في وجهه. الحبيب الغادر ركلها في بطنها، فتأوّهت، وانحنت، فلكمها بقبضته على أمّ رأسها، فأُغشى عليها دقائق.

أفاقت وجدت نفسها مُلقاة على ظهرها، وأحد الجنود يضع قدمه الثّقيلة بحذائه الغليظ على بطن ابنتها المطروحة أرضًا بجانبها. الطفلة تنظر في رُعب لوجه أمّها، تنهنه، وتتبوّل على نفسها رعبًا. تمدّ كفّها الصغير ناحية أمّها لتنقذها. جلست الأم على مقعدتها تنظر لما حولها.. أمام طفلتها المطروحة جندي ثانٍ يُشهر بلطته عاليًا ينتظر أوامر حبيبها القديم، المنتصب في جبروت، ويبتسم في غرورٍ طاغي!

شرطان عليها أنّ توافق عليهما.. سوف يأخذ الطفلة، ويبيعها رقيقًا. وهي عليها ألاّ تتحدث عن حكايتها معه، ومع أسرته، وعن طفلتها بعد ذلك مُطلقًا. إمّا أنّ توافق على الشرطين، وإما إنّ قطع رقبة الطفلة، ثمّ رقبتها.

2

"القاهرة".. ما القاهرة؟ حاضرة الدنيا، ودُرَّة الشرق والغرب معًا. "القاهرة" عاصمة "مصر" المحروسة. ليست فقط محروسة بألف مئذنة أُخذت هيآتها من مسلاّت الفراعين أوّل من أحسّوا بالخالق، واتجهوا إليه، ووحّدوه، فعبدوه قلبًا وعقلاً. وليس فقط من ألف قُبّة أخذت أشكالاً عدّة، ولا من مئات أضرحة الأولياء الصالحين الذين أتوها من فيافي الجزيرة العربية، والغرب الأمازيغي، ولا حتّى من "مارسيليا" الفرنسية، ولا حتّى من الضريح اليتيم "لولي أبنوسي" أتى من الجنوب الإفريقيّ!، وليس فقط من عتبات العائلة المقدّسة، وأديرة المسيحية وكنائسها، خاصة الكنيسة المعلّقة حيث شجرة "مريم" سيدة نساء العالمين، بل هي "القاهرة"، ومصرها المحروسة بفكرها العميق الصّافي، ومعارف وعلوم كهنة الفراعين المذهلة، "مصر" مكتشفة الضّمير الإنساني، ومُلهمة "اليونان" بعلوم وفكر "الإسكندرية"، ومُطعمة الرومان، ودرّتها الزاهية.

"القاهرة" المملوكية وقتها عز مُقيمٍ، وسلام حميم، وأمان، وأمن مُستتب، ووفرة رزق لا تُصدَّق. في كلِّ يوم قصر يُبنى، وجامع يشمخ، وبيمارستان يُقام، وبيوت تصدح بالحدائق والفسقيات. شوارع تستقيم، وأسبلة للناس، وأسبلة للمواشي، وكلّ حي به حمّام عمومي يرتاح فيه الذكور والإناث استحمامًا رائقًا، فينعمون بالإنعاش، وأواني أسبلة تُوضع أعلى أسطح الجوامع، والكنائس، والمعابد، والقصور، والبيوت حتّى يأكل الطير، ويشرب. بحيرات رائقات على شطآنها قصور رائعات ساهرة، وعلى مياها قوارب راسية وسائرة. جناين في كلّ مكان خُضرتها ثقيلة، وظلالها مُجمل خميلة.

في أحياء العوام مقاهي مُظلّلة بالأشجار، نظيفة الأزيار فيها الربابات تصدح، والرواة، والمنشدون يُطرِبون الحضور. والنّاس في وِناس، ليس فيه من التباس. فالرجال سلسون وإن طالت الشنبات، والنِّساء لَدنات طريّات غنجات، وإن غطّت الأحجبة أغلب الواجهات. الشّيوخ، والقسس، والحاخامات تطلّ منهم نفحات الوقار الطيّب والسّماحة والدعوة للخيرات، وبث آمال الجنَّة، ونفحات الخالق الرّاضي، والخمّارات مُضاءات، ومضامين العوالم ساهرات راقصات مغنّيات، وبيوت سَحْب فَوَران المَنْي بالنْساوين المحترفات شغّالة ليست بطّالة. والحِلو أنَّ هؤلاء لا يِتعالون، ويلعنون هؤلاء، ولا هؤلاء يتجنّبون، ويسخرونَ من هؤلاء. حِكَمْ. !

أي القاهرة، وشامل مشمول "مصر" كانت جنّة عدن على ضفتي النيل

العظيم. وكلّ هذا الانسجام في المباني الجمادية، والكائنات النباتية، وكلّ هذا الوئام بين الناس وبعضهم، وبين النّاس والمخلوقات ذوي الأظلاف، والحوافر، والخُفاف، والطيور اللّطاف، سببه.. حُكّام رشداء حُكماء، يبنون ومهما يهدّ غيرهم يعودون للبناء. وآخر تلك السّلسلة الطيبة، سّلطان "رشيد حميد" بواعثه خيِّرة، وحاشيته مُترعة بالعقول النّيرة. أحبه العامّة، فأطلقوا عليه اسم السّلطان "المعدول"، فأغلب سلاطين المماليك معاويج عن العدل، مُنحرفين عن الحقّ. أعاد "المعدول" تأسيس القواعد، وتمّم المقاصد، ونظّم الممالك، وأنار الحوالك. وصاح أنَّ المستقيم معي سالك، والعَوجان عندي هالك. في عهده صاحب الضمير ارتاح، وانتشَى، وأصاب الغمّ صاحب الرِشى. سّلطان معدول رفع منارة الدّين، وأخمد نيران المتنطّعين، وسيرته الجميلة أغنت عن التعريف، وتراجمه مشحونة بأزهى التصانيف.

ولم تزل البلاد منتظمة في سلكه، ومُنقادة بحُكمه في أوانٍ هو من أحسن فترات الزمان. سنوات طويلات تُرِكَتْ المراكب السائرة تسير براحتها، والزّراعات تنموا بخضرتها، والصناعات تتوالد بأرباب صنعتها، بلا افتعال سدود، والتجارة تربُو بذكاء، ودهاء كبارها وصغارها بدون قيود، سواء كانوا مسلمين، أو مسيحيين، أو يهودًا سواء كانوا من ذوي اللّون السائد القمحي، أو النّادر الأشقر، والأسمر، بل وحتّى الأسود والأصفر. بلد نهري سهلي في سماحته يعلم إنّ كان في الناس بعض ضَعف، فإنّ بهم من القوى الضعف، فتزاورت عن بعض الانزلاقات الخفيفات حتّى تتصاعد في سموّ مُجْمَلْ الأخلاقيات. وعليه يرضى الخالق عن المخلوق المجتهد،

شغّال العقل، واضح الكرم، والمبتعد حقيقة عن الوضاعة، والخلاعة إلاّ اللّمم، فيكون النيل موافي سنينًا، وسنينًا، ولا يطغى، ولا يبغي، فلا يكون طوفانا فُجاعة، ولا حتّى يتكاسل، فيأتي غيضًا ليفشي مجاعة. فسبحان "اللـه" الراضي عن الناس، حين يكون العدل شريعة القاضي، والرُشْدُ عقل وضمير السّلطان.

نهايتـــــه..

اِنْتُزِعَتْ الطفلة من أمّها تحت تهديد البلطة الفاجع، وبيِعت كبضاعة شقراء صغيرة، ورحلوا بها من البلاد الصّقيعية البعيدة، فدخلت "مصر" وهي تدخل عامها السّابع. في قصر تاجر الرّقيق المطلّ على النيل، تولّوا تربيتها؛ لتكون محظية تفهم في أمور النساء والرجال، تَعْلَمْ في انتقاء الملابس والمجوهرات، وكيف تبدي زينتها، وفتنتها، لتسعد وتسلي أرباب النعَمْ من حكام مصر، وأغنيائها. ولحدّة ذكائها علّموها القراءة والكتابة، وقالوا لها.. "ستكونين أنثى، ولا كلّ الإناث". وفي نفس عام دخول تلك الفتاة "مصر"، كانت سنوات من القلاقل قد بدأت. اُغتيل السّلطان المعدول، والذي حكم بعقلٍ مجيد، ورأيٍ رشيد، ودخلت "مصر" في سنواتٍ حضيض، وبؤسٍ شديد.

في عُمر الثاني عشر، رغم آلام فقد الأم والذكريات الحزينة المُرهقة، أصبحت فتاة مزهزهة بتفجّر ينابيع المراهقة. الجَمال يَشِعُ منها، فنُوديت باسم يليق بسطوع جمالها.. "شمس". و"شمس" طموحها طائح في العلاّلي، فبغير الأعالي لا تُبالي. لا في عقلها، ولا في قلبها، ولا في ضميرها

أيُّ هام أهمُّ من السُؤدد، ولا من دينها القديم بقي في ضميرها قيد، ولا من دينها الجديد أخذت منه قيمة عُليا تُفيد. فقد لقّنتها أمّها ألاّ تعيش فقيرة، وإن وقعت في الحبّ ألاّ تأمن لمن أحّبته، فلا أمان مطلقًا لا للّذكران، ولا حتّى للنّسوان. إنّ أمنت تأمن فقط لجمالها جسدًا، ووجهًا، وتستغلّهما فتنة، وتمتلئ بهما زهوًا، لتهرب من الإذلال، ولتثب إلى مَرْتبات العائلات الكبيرة العتيدة، وتورث لسلالتها ما لم تستطعَ لا أمّها، ولا جدّتها أنّ يُوَرِّثاه لها.. المال، والجاه، والسلطة ثالوث مأربها، وثالوث وسائلها لبلوغ مطالبها.. الجمال، والجنس، والمكر الذي يهبط لدرجة الخُبْث. استمعت لدروس، ونصائح أمّها مئات المرّات، فتكلست في جوفها كهوفًا وحجرات وممرّات. أتنسَ البلطة التي كانت مُشهَّرة عليها وهي طفلة، وتبوّلها علَى نفسها رعبًا؟! أتنسَ إذلال أمّها، ونحيبها غُلبا؟! أمام الشابّ الذي أحبته أمها، فخانها كما خانتها عائلته، الشابّ الذي يمكن أنّ يكون أباها، أو أخاها، أو تكون هي عمّته! فقد كرهته، واحتقرته بأكثر من كراهية واحتقار أمّها له. وصار دائمًا في بالها مُمَثّلا لقذارة، وحقارة الرّجال، وأنّها يجب أنّ تَقْلب هذا المشهد المذل لها، ولأمّها، ليكون مُذلاً للرّجال عامة، فيكون التجبّر لها هي، ولسلالتها من بعدها.

ثم بيعت هي وغيرها من الجواري لقصور عظام الشّان ذوي الجبروت، والشّنآن. كان قدر "شمس" أنّ تُباع لقصر الأمير "شنْدَرْ" نائب السّلطنة المشهور بالغدر، فقيل عنه "شنْدَرْ الغدّار". بلغت الخَامسة عشر، جمالها وضح إجرامه على الذّكور، وجناياته حتّى على الإناث يجور. في القصر ترى المماليك العبيد، ويرونها. وفي تجمّعاتهم تحت مراقبة العيون، حيث

يغنّون، ويرقصون في أنغام مختلفة باختلاف بلدانهم، وإن كانت الأصول، والفنون متقاربة. "شمس" ترقص كما كانت أمهّا ترقص، لكنّ لم تصل لإبداع أمهّا، فنغمات المِزمار، ورنّات الأوتار ليست تمامًا كما هي في بلاد "السّهول الثلجية"، والبحيرة البحر. "شمس" كانت هي المُراد سواءً من الفتيان المُرد، أو من الشّحوت الكبار. والمشرفات على الجواري الصّغيرات يقلن.. إنّ رآها "شنْدَرْ"، فسوف يأخذها لنفسه، لكنّ "شنْدَرْ" مسئولياته ثقيلة على كتفيه، خطيرة عليه، ويحتجز لنفسه أربع زوجات، ودزينة محظيات، فهل قَدَرَ على نساوينه حتّى يراقب المستجدّات؟!

جمعيات تُعقد تُلَمْلِم الجواري، والمماليك الجدد. الجواري في ناحية تحت قيادة جارية كهرمانة دخلت طور الكهولة. وفي الجانب الآخر المماليك الجدد الذين أنهوا تدريبات الفروسية القاسية، وصاروا على وشك دخول الخدمة تحت لواء سيّدهم، ومالكهم نائب السّلطنة. تنزّهات في الحديقة تجمع الجميع، ليرى المماليك الشباب أسراب الجواري، ويختاروا منهنّ. الكل شُقر، وليس بينهم سُمر. التي عليها العين هي "شمس"، ولا ينافسها إلا زميلتها الجارية "غُزلان". و"غُزلان" تملك كلّ ما تملكه "شمس" من جمال جسد، وحلاوة ملامح، وعينين واسعتين زرقاوتين، وتزيد عن "شمس" في وفرة الوزن، فمقعدتها، وثدياها وبطنها يحملن شحمًا أوفر، ورجرجةً أخطر. نقصها أنَّ دواخلها مُنطفئة، داخلها كالح مالح. تفتقد ذاك الينبوع الأثيري الذي ينبعث من الداخل، فيشع من كلّ الخلايا، ويبعث برسائل سحر إضافية من العينين، وعسل يفوح من الشّفتين، ويجذب الآخرين لورد الخدّين.

"غُزلان" متأكّدة أنّها لا تقل جمالاً عن "شمس"، لذلك تفجّرت حسرتها من تكالب الذكور على "شمس" أولاً، ثمّ هي في مكانة ثانية، وإن تقارب من "غُزلان" عين ذكر تحت تأثير سحرها الظّاهر، وجسدها الوافر، سُرعان ما تنحرف، حين تسطع "شمس" بسحرها الظّاهر والباطن. وبدلاً من أنّ ترضى "غُزلان" بما لها من جمالٍ أوقع تأثيرًا، وعقلٍ أشمل تدبيرًا من غيرها من الجواري. رفضت "غُزلان" بينها وبين نفسها أنّ تكون الثّانية من بعد "شمس". بغضت أنّ تكون دائمًا ناظرة لظهر "شمس" التي تنظر إلى ما يحلو لها، لتناله نَيْل فنّان فتّان مقتدر. صارت حاسدة لـ"شمس"، فشمس هي الشمس إنّ طلعت بُهت جمال "غُزلان"، وتبخّر جمال بقية الجواري. خاصة أنّ "شمس" عينيها البحَريتين تَفُحّان نظرات ناعسة مُلهْلِبَة لاسعة. هذا بخلاف أنّ "شمس" قادرة على بثّ بسمة، وفرقعة ضِحكة تبدوان ساذجتين، وإن حملتا في دواخلهما براكين أنوثة خبيثة لا يغلبها غالب.

في حفلات الفروسية، حيث يتمّ الاعتراف بنهاية تدريبات المماليك الفتيان، المماليك يستعرضون قدراتهم القتالية أمام سيّدهم نائب السّلطنة المصرية، ليطمئنّ أنّه في أمانٍ بهم، وبفروسيتهم، وبسالتهم وإن قَلّت فَراستهم، وأنّه في صراعاته الدّموية علنًا ومن تحت لتحت، خفية ضدّ حاشية السّلطان، وحتّى ضدّ السّلطان نفسه، معه قوات صَدّادات تحميه من كلّ رزيَّة، وتُخرجه من كلّ خَيّة، وسيوف، وحراب، ونبال، وبُلط عَتيّة، وفؤوس مشهرة تُرهب، وتُخيف من تُسَوّل له نَفسه المُعاديَّة. وهذا

ما يهتم به "شِنْدَرْ" غاية الاهتمام، أنّ يستمرّ مماليكه في تفوّقهم القتالي، فتكون كلمته وهيبته في الأعالي.

"بِنْبان".. فتى ضخم البُنيان، عريض المنكبين، متفوّق تفوقًا واضحًا في الفروسية والمبارزات، لكنّ الملامة والمؤاخذات عليه ذات شقّين.. شق أنّه أقرب إلى الغباء منه إلى الذكاء، وشق أنّه لا يمتلك وسامة، ففي سوق الملاحة هو غير المليح. في وجهه أنف محتل ثلث المكان، وترك الثلث للشفتين المبرطشتين. الثلث الثالث مُوزَّع على الباقين. الجبهة المظلومة لم تنل سوى ما يكاد عرضه عرض إصبعين. لونه ناصع البياض، وعيناه الزرقاوتان، وشعره الأشقر. لم ينفعوا في بث الوسامة، ولا حتّى تقليل شأن لخبطة الدّمامة. والمصيبة أنّه رغم قلبه الجَيّاش بالطّيبة، فإنّ دماغه ناقصة كثير النقصان. "بِنْبان" يمتلك مع جسامة جسمه شدّة بأس، وجسارة مُتهوّرة لا يعقلها عقلٌ، ولا يُعرقلها حَدْسُ. هو ألعبان بالسّيف، وشيطان طعن بالرُمح، وجِنّي في الرَمْح على صهوة الحصان. غبي للآخر في كلّ شيءٍ آخر.

المملوك "بِنْبان" وضح ميله إلى "شمس"، إلاّ أنّ "شمس" تُفضّل المملوك "حفيظ السّلولي"، فالسلولي فارس قوي، وإن لم يصل لمقدرة ذاك المتهوّر الغبيّ. "حفيظ السلولي" وسامته مُترعة بحلاوة، وطراوة تعجباها، وعيناه الواسعتان العسليتان تخبّئان مكرًا، وخباثة ثعبانية لا تقلقانها، فهي أشدّ مكرًا، وأعمق خباثة منه. لم تحبّه، ولن تحبّ ذكرًا أبدا، هي تُفَضّله نزقًا وشهوة، وأساسًا تستغلّه، لتصعد على كتفيه إلى القِمم. هو القادر على

منحها نسلاً يجمع بين فتنتها، ووسامته، وذكائها العميق، وذكائه الحادّ، فيكون نسلاً مُؤهّلاً للاضطجاع في العُلَى، وإلّا فَلا. ينظران لبعضهما، يتفاهمان. يتقابلان خِلسة مرَّة ومرَّات.

ذاقت نشوة القبلات معه والتّحسيسات. وأوّل مرة تصل لذروتها الجنسية كانت بمداعبات كفيه اللذين ساحا على شامل تضاريس جسدها تأنّيًا وهرولة، رقَّة غزاليّة وقَصْوَرَة. أعضاؤه نَهِلا من جسدها نهلاً، و لم يتركا موضعًا من مواضعها هُمُلا. لم يكن ينقصهما إلا فضّ البكارة، لولا الخشية من العقاب القاسي، وما يتبعه من خسارة. فمملوك يُفْسد جارية، أمرٌ لا يَمُر مَرّ الأمور الجارية. يأملان في زواج يربطهما في لذَّات حسيَّة جنسيّة، وتطلّعات شاهقات مستقبلية، لكنّ "شمس" مجرد جارية، مُؤَهلة لتكون محظية تحت أمر مالكها، و"حفيظ السّلولي" عبد مملوك مُؤهّل ليكون جنديًا عند أسياده. الزواج لهما ليس بكامل الكيف، بل الكلمة الفصل لسيّدهما، الآمر العلوي، الممسك بالسُلطة، والذهب، والسيّف.

"غُزلان" مالت لحفيظ السلولي، ولفتت انتباهه لها، لكنّ إغراء "شمس" كان أشدّ، وأنكى، فمال "حفيظ" لشمس، فطعن قلب "غُزلان" وأبكى. بقيت "شمس" عند "حفيظ" هي شمسه وقَمَرُه. أمتعته، وأمتعها سنوات وسنوات، وفي النهاية أذاها وأذته، وحاول بحترتها، فقهرته، وأبعدته. والغريب رغم أنّ "غُزلان" منه تزوجت، فإنّها هي الخِنجر الذي طعنه، فأجهزت.!

مساعدو نائب السّلطنة توغّلوا في نفوس مماليكهم الجدد، فوجدوا

أنَّ "بِنْبان" الضخم المتهوّر غليظ الملامح الخطير، به من صفات الكلب الشّرس الكثير، فهو تابع مُطيع لأسياده جاهز للفدَى، ولآخر مَدَى. يتساند على قوام غيره، فليس له قوام نفسي متماسك. "بِنْبان" طموحاته ليست زَنّانَة، ولن يطمح يومًا في كشح أحدهم، لينال مكانه. ولا بالطبّع سيفكّر في الإطاحة بسيدهم، ويستولي على سّلطانه. فَأُسْ العلاقات بين المماليك هي "التربيطات التحتيَّة"، و"الخيانات السِّرية"، و"الانقلابات الفُجائية". والمَقتلات البشعات تأتيهم طعنًا في الظّهر، ومن تحت، بأكثر مما تأتيهم من فوق ومن الأمام، هذه ثوابت لا يُفَنِّدها أيُّ كلام، ولا تُرَطِّبها ساعات سلام! وعليه، فكلّ صاحب سّلطان يخشَى من أتباعه، بما لا يقلّ عن خشيته من منافسيه وأعدائه.

قال مساعدو نائب السّلطنة لسيدهم.. فلتأمن للفتى القويّ، غليظ الملامح "بِنْبان"، فتهوره وغباوُه سيكونا لك، وليس عليك، وقد كان. قرَّبه منه "شَنْدَرْ"، وعند وقت تزويج دفعة المماليك الجدد، قالوا له اختر أنت أولاً. ولأنّه غبيّ، اختار "شمس"! اختارها وهو يعلم أنّها تميل لزميله، ومنافسه "حفيظ السّلولي"، بل يعلم أنّ "حفيظ السّلولي" اختلى بها مرارًا، ولعب في جسدها تكرارا! بعده اختار "حفيظ السّلولي" " غُزلان". فلم تسعد "غُزلان" سعادة كاملة، ولا حتّى ناقصة، فهي الاختيار الثاني لحفيظ، ويا حسرة قلبها أنّ تكون الثانية دومًا من بعد "شمس"! و"شمس" لا تأبه بغُزلان، لكنّ "غُزلان" بقيت طوال حياتها تأبه بـ"شمس"، وتعمل على ردّ الحسرة حسرتين، ثلاثة على رأس "شمس"، ولم تستطع، فبقيت محسورة، مقهورة حتّى مرت السّنوات الطوال، ولمّا أتتها فرصة الانتقام

من غريمتها "شمس"، أشعلت النيران، و لم يهمها أنّ تأكلها نيران الانتقام هي، وثالثهما "حفيظ"! فيا حفيظًا من انتقام المرأة من المرأة.!

"بِنْبانْ" غليظ الملامح اختار "شمس"! نزول الاختيار على "شمس" كان نزولاً صاعقًا، فانكبست انكباسًا، وداخلها انسحق انسحاقًا. لا تملك المصدومة رفضًا، و لم تفتح فمها باعتراض. ليلاً انفردت بنفسها تبكي، وتنُوح فبوادر ضياع طموحها يَلُوح. غطست في نفسها، وفكرت، وقبل سطوع الصّباح قرّرت.. إذن ليتزوّجها غليظ الملامح، ليأخذ جسدها وينكحه، وهي في غفلته بعقلها ستنكحه، ذُرية منها لن تمنحه، فقوّتها وقوة نسلها في الجمال، والدلال الظاهرين، والمكر النّسوي الذي لا يبان، وإن أنجبت فتاة معدومة الجاذبية، لن يخرّ لها الرّجال تذللاً وتقربًا، فيضيع ما تأمله لسلالتها من سُؤدد، يضيع ما عاهدت أمّها عليه، ويتبدّد. إذن.. فليمتلك غليظ الملامح جسدها، ولتكن ذريّتها من الأُلعبان الوسيم "حفيظ السّلولي"، لكنّ كيف؟ سألت، فعَلِمَتْ، فنفْذت؟

بلغت من العمر الخامسة عشرة، حين تزوجها غليظ الملامح. دخل عليها فبهرته من قُرب بأكثر ممّا بهرته عن بعد. فتنتها أورثته ذهولاً. وجد منها بعد الزواج ما خاله لسنواتٍ طوال قبولاً. في ليلتهما الأولى، حين سألها عن اختفاءاتها التي كانت مع "حفيظ السّلولي". قالت إنّها كانت تحبّ الاستماع إليه يحدثها بلغتهما الأصلية، فهو مثلها من "بلاد السّهول الثّلجية"، والبحيرة البحر. أسالت دمعات من عينين لافحتين، وسرَّبت نهنهات شفتين قُرمزيتين، وهي تؤكّد أنّ "السّلولي" لم يلمس سِوى كفّ

يدها، ومفرِق شعرها، و لم يلمس ثديها، و لم يتحسّس بطنها، ولا ما حول بطنها، فصدّقها بسذاجته. بعد هذه الخطوة أخذته "شمس" بالدّهاء، ورفضت أنّ ينكحها بأسباب، وأسباب حتّى تأتي أيّام الأمان الأنثوية، فتركته يفضّها. وبعد مرور دورتها الشّهرية، وهَيَجان بويضتها الطّازجة الناضجة، وتلهفّها على اللّقاح، ضاجعت "حفيظ السلولي" فحبلت منه. "حفيظ السلولي" ليس لديه مانع من مُضاجعتها، رغم أنّه تزوج من "غُزلان" الجميلة، فهو الشره في النّسوان، والطمعان، وفي كلّ إشي كان. قليل الأصل من يُومه، عديم المروءة رغم حلاوة وجهه، وطلاوة كلامه.!

عائلات مماليك "شنْدَر" تتزاور، هذا عند هذا، وهذا يردّ الزيارة لهذا. وتتلاقى أكثر من أسرَة معًا. "بِنْبان"، و"حفيظ السّلولي" وزوجتيهما تزاورا، "بِنْبان"، و"حفيظ" يندمجان معًا أكثر وأعمق، رغم نطفة القلق التي تعبث بصدر "بِنْبان"، أمّا "غُزلان" فرغم محاولاتها أنّ تُداري غيرتها، وحسدها من "شمس"، فقد فشلت، و لم تستطع أبدًا أنّ تدَّعي الصّداقة البريئة معها، وأنّ تقضي سهرة واحدة مع غريمتها في سلام، لا وهما سويًا، ولا هما بين الزّحام.!

3

"مصر" المحروسة كما تتصاعد في سرعة مع السّلطان ذي الحكم الرشيد، وتصير قوة مُهابة للقريب والبعيد، فهي تتدهور أسرع، وأسرع تحت السّلطان الظالم الفاسد، فيصير ناسها في نكد، وثراؤها في بدد، تصير "مصر" مَلْطشة لكلّ غريبٍ حاسد. يأتي الفقر والمرض فيحلاّ، ويضربان الناس، ويسحقانهم ذلاً. وبألف سبب وسبب هل يفتقد شعب "مصر" بعضًا من دمدمات الغضب؟ دمدمات تُبَجْبج ضد ظالميه، بَجْبَجَة غليان دهنيات في حَلّة على نار حامية، فيتكدّس الشعب المسكين، المستكين بهلاهيله، وخلاخيله ضدّ حاكميه، ويتمرس ضد ظالميه؟ حدث قليلاً. وبالعكس حدث كثيرًا بين طبقة الحاكمين الغُزْ المملوكية الناهبين السارقين، والعايشين في عِزْ، حدث الكثير والكثير من تتالي المقالب، وتوالي المؤامرات، وأغلبها حركات مُترعة بالحقارات والسّفالات.

السّلاطين وحاشيتهم.. دَيْدَنهم أنَّ الكلّ ضدّ الكل، وعلى الكل، ويخاف من الكلّ، ولا يأمن للكلّ.

المبدأ الأساسي هو أنّ "الحُكم لِمن غَلَبْ". مبدأ ليس له تفريعات، ولا تعدّد تفسيرات، فالذي يغلب هو من يمتلك ثنائية السيّف، والدرهم. قوّة السّيوف ظاهرة سواء وهي مُشرّعة، أو وهي في أجفانها. وقوّة الدرهم باطنة حينًا، وواضحة أحايينًا. ويُضاف لهما تحابيش، وتناتيش من دهاء الثّعالب، ولدغات الثعابين، وتحريفات عمائم بائعي الدّين. لذا فمكانةُ العلالي مُرجيحة تصعد بهم، وتنحطّ. والذي يحشو بطنه بالوزّ، مصيره يَشُخُّهُ بَطْ بَطْ. والمترفّع ليلاً، في النهار التالي يتجرّع الذل. وفي "مصر" كم من عالٍ هَوى، وكم من ضئيل ابتسم له النّهار فَعَلا، وغرّ غرورًا وغَوَى، فقهقه الليل منه، فالمصير في الصّباح باطن الثّرَى.

اللـه غـالـب.

وكأنَّ المماليك مالكو شئون "مصر"، قد مَلّوا من استتباب الأمن والأمان في مصر! وكأنَّ المماليك الموغلين في سفك الدماء لم يرضهم أنّ يكون المملوك الذي تسلطن مُحبًا للسّلام والوِئام! وفوق كلّ هذا.. أنّ يشتهرٍ بلقب السّلطان المعدول بين الخاصّة والعوام!، وكأنَّ المماليك الذين يفكرون بسيفهم ورمحهم، قد تأففّوا من مملوك منهم قد تسلطن بالسيّف، ثمّ نكص على أعقابه، وصار يُفكر بالعقل ويَرِقُ بالقلب! وكأنَّ المماليك قد حسدوا على السّلطان دوام سلطنته لعشر سنوات، ويأمل في عشرٍ إضافية تكون فيها "مصر" بأبسط عبارة "أُمة في الصدارة"، سّلطان

معدول عمل على تخفيف سطوتهم الظالمة، ومنعهم من زيادة فجورهم وسرقاتهم، هم وكبار التجّار المستفيدين معهم من الفساد الذي يحرق أرزاق العباد. فاجتمع أصحاب السّيوف الغادرة مع أصحاب الدراهم الفاجرة. الداودار "كمال الدّين" على رأس الغادرة، ونقيب التجّار "عز الدين" على رقص الفاجرة. قرّرا معًا ما قررا، وقرارهما أكيد مُؤكّد تآمر شرّاني، ففي حاشية كلّ سّلطان ضعف جُوّاني، فالمماليك مثل جبنة المِشْ.. دوده مِنّه فيه. ومؤكّد الداودار "كمال الدّين" لم يكن ليُضيِّع وقته خلال قربه من السّلطان المعدول، أغرى بعض أمراء وكبار مماليك السّلطان، لاعبهم، فسال لعابهم متخيّلين المراتب العاليات، والمكافآت المغريات، فتطوّعوا للخيانة مع الأمير العجوز الأريب الداودار "كمال الدين"، هذا الذي أحبّه السّلطان المعدول، فصعَّده ليصير أقرب قريب لمقعده! فهل هذا أمر يستقيم؟ قِيل إنّ كلّ التضاد يستقيم مع عموم ناطقي حرف الضاد. والداودار هو حامل أختام السّلطان، والمسئول عن مُكاتباته، والمتولّي شئون أقاليم السلطنة، مُنفذًا لأوامر السّلطان. هذا هو عمل الداودار الرّسمي.

لكن هذا الداودار المُخَضْرَم تولّى مع الداودارية أمور "المستحفظان"، أيّ المسئول أيضًا عن أمور عاصمة الملك، مدينة القاهرة، والحامي لها من الدّسائس، والخبائث المملوكية، ومن هوجات الرّعيّة. "كمال الدين" لما له من نشاط جَمّ، ووجه رزين، وعقل متين راجح ناجح في كلّ ما هو مفيد، وأيضًا في كلّ ما هو خبيث! وموهبته الغريبة العجيبة في تعلّم اللغة العربية، وكتابتها، وكأنّه نحوي بصْري كُوفي، وتمكّنه من ملاغية

الأرقام.بما لا يقل عن معلّمي الأقباط، ولما له من حدْس بعيد، وقدرته على وقف الدّسائس ضد السّلطان من مماليك بعضهم شجاع عزيز، وبعضهم جبان خسيس. وما يستطيعه بالتعاون مع نقيب التجّار "عز الدين" في فَكْ أيّ أزمة مالية طارئة تُنذر بالوبال، ويكون حلُّها في نظر السّلطان مُحال. "كمال الدّين" تخطّى في الأهمية الأمير المهم نائب السّلطان!، ورغم مكانته العالية، واحترام السّلطان له، لم يكن "كمال الدين" راضيًا! فالسّلطان المعدول يستمع لنصائح "الداودار"، ويقرأ تقاريره، لكنه لا ينفذ إلاّ ما يرضاه لمصلحة الناس، ولا يهمّه رضاء "الداودار" الخنّاس، ولا احتكارات "عز الدين" الوسواس. وهذا ثالث ما أوغر صدر "الداودار" ضدّ سيّده سّلطان البلاد، ففي زمن "المعدول" شراكته مع "عزّ الدين" في التجارة لا تكسب الكثير وتضمر وتخبو، وإن رحل المعدول، وأتى نقيضه، وصار الزمن زمن كلّ ما هو مائل، شراكته مع "عز الدين"، وأمثالهما تربو، وتربو وتربو. أمّا ما هو ثاني، فإنَّ السّلطان المعدول لم يعطَ "كمال الدين" منصب نائب السلطنة الذي يتلهّف عليه. أما ما هو أوّل.. أنّ الغَدرَ طبع أصيل في "كمال الدين"، غَدْر يجعل منه في الباطن ناقصًا، بما لا ينسجم مع اسمه الظّاهر، والذي هو "كمال"! فأضمر الناقص "كمال" غِلّا من حدّه لهيبة يجفِّف نهرًا، ويحرق برًا.

وفي صباح يوم مطير حدث في "مصر" مقلب خطير. الشيطان منه يستجير. حَدَثٌ أتىَ بمهالك وظلام حالك على "مصر" التي انقلبت من لقب "المحروسة" إلى نعت "الموكوسة". حدث أنّ تَخامَرَ من في خارج قلعة السّلطان، وتَغَادَر مع سوس من داخلها، فانقضّت العصابة على القلعة

من خارجها وداخلها، وحاصروا السّلطان المعدول. سُفكت دماء غزيرة، وأزهِقت أرواح كثيرة. قُتِل فرسان شُداد بواسل، وتحطّمت مُعدّات، وأُحرقت حواصل، وكلّ خُصم من ثروات البلاد. ولما تبين للسّلطان أنّه ضائع ضائع، خاصة أنَّ الذي خانه من داخل القلعة هو أقرب النّاس إليه، والذي صعد في المراتب والرواتب من تحت يديه. فُجع المسكين، ونظر للداودار الخائن مُعاتبًا، فقال له الداودار "كمال الدين"، وهو يبتسم ابتسامة مُترعة بالشماتة ولِزُوجة الغَتاتة..

– "العقرب مفطور على اللّدغ يا مولاي."

ومن ساعة أنّ نطقها، صارت شهرته.. العقرب. و"كمال الدين" لا يحبّ أنّ يقول له أحد ذلك علنًا، لكنّه راضي تمامًا أنَّ الجميع يقول عنه ذلك سرًا.. العقرب.!

بعد أنّ قتلوا السّلطان المعدول، وبحتروا مماليكه قتلاً، وسجنًا، ونفيًا، في قسوة ليس فيها غرابة، لم ترتج "مصر" و لم تنشال وتنهبد غضبًا على حدوث هذا الشان، ولا حتّى تناطحت شاتان على خِسَّة ما كان. ما حصل.. جلس على عرش "مصر" أخطر مملوك خائن في العصابة، وقيل عنه من بعد "السّلطان المائل"، أيّ أنّه صار في عين الرّعية عكس ما كان ما قبله.. السّلطان المعدول. السّلطان المائل عين الخائنِ الثاني، وهو الأمير "شِنْدَرْ" نائبًا للسلطنة، أمّا الخائن الثالث وهو الأمير "أَيْنَبَكْ"، فقد ارتفع إلى مرتبة أمير الجيوش، وارتفع "عثمان أغا" ليكون أمير ألف، ونائبًا لأَيْنَبَكْ. ولولا أنَّ "عثمان أغا" أصغر سنًا من "أَيْنَبَكْ"، وتحجج

الخائفين من ألاعيبه فقالوا.. تخطّي الصغير للكبير لا يجوز! لكان هو أميرًا للجيوش، لأنّه أنصح وأفصح، ولا يتجاوزه في الدّهاء والمكر سِوى "كمال الدين" العجوز. ورغم دور "كمال الدين" الهام في الانقلاب، بقي "كمال الدين" داودارًا ومستحفظانًا فقط لا غير، و لم ينل ما كان يطمح له ويأمل.. منصب نائب السّلطان. فهو لا يأمل أنّ يكون سّلطانًا، ففتوة الشباب مَرّت به، وتخطّته وخَبَتْ، وخابت فرصته، فلم يكن "كمال الدين" -كما يقال عنه- فارس صنديد، بل كان في أمور القتال الفعلي بليد، مُقدّراته، وشهواته، وفتوحاته في التدبيرات المخفيات، والرّكام من الحقارات، وتكديس الأموال، وحجز الأراضي والعقارات، فقرّر لنفسه أنّ يكون الثاني في التراتيب، وحقيقة يكون الأوّل في اتخاذ القرارات.

فرح نقيب التجار "عز الدين"، فهو من كبار المخطّطين، وقد سرّب بمعرفة الداودار مائة كيس دنانير ذهب لبعض الأمراء وقوّاد الجيوش، فساعد على التخلّص من السّلطان "المعدول" الذي أوقف طغيان "عز الدين" على التجار، وأصحاب الأعمال سواءً في البر، أو في البحار، ومنعه من الاستيلاء على الأراضي المتاخمة للمدن الكبرى كالقاهرة والإسكندرية، ومنعه من تبوير الأراضي الزراعية، لتكون مباني فيربح الدّينارات الألوفية.

بعد الانقلاب جَرَتْ لخبطات، وشخبطات نهايتها أسوء النكبات. و لم يكن السّلطان المائل من أرباب العقل، ولا حتّى من مُتّبعين النقل. مواهبه فقط في الإمساك بالسّيف، والتكالب على السلطة، والنهب، والسّلب،

والإحاطة على أموال التجار الكبار والصّغار. و لم يكن رحيمًا حتّى مع عُمّاله، فمن لا يعطي جزيل براطيل الرشاوي ينال العزل، والتعذيب الفظيع، حتّى يعترف بما عنده، وبما ليس عنده، ثمّ بعد ذلك يعيش في خزي ومرض إنّ عاش، ويرتاح من غضب السّلطان إنّ مات. استبعد السّلطان شيوخ الأزهر الفاهمين الزاهدين، وعزل شيوخ المذاهب الأربعة المتّقين، وأتى بالشّيوخ الخانعين المنافقين. وقاضي القضاة الحقّاني بحتره نفيًا، وأهانه بإهانة من وَلَدَته، وأتى بالظالم ذي البطن الواسعة أوسع من ذمته. ومن أئمة المساجد الكبرى عزل كلّ شيخ يتلامض ضد ظلمه، وأطال قفا كلّ شيخ خسيس ركع تحت قدمه. ولم تكن حاشيته مالكة للفكر والتفكر. وخطوه الكبير الخطير، أنّه لم يُقَدّر مجهودات "كمال الدين"، و"عز الدين" كما ينبغي. فاستهان بهما، بل طغى عليهما، وبغى، و لم يترك لهما ما هو حقّهما في التبختر والتجبّر، فمنع عن "كمال الدين" نيابة السّلطنة، وفي أعمال السوق والتجارة غلّ أيديهما فلم ينتفعا كثيرًا بما لهما من داهيات الشطارة. فقرّرا ما قررا، وقرارهما مثل ما كانا قد قرّرا على السّلطان "المعدول".

لكن.. أولاً ليثق كلٌ في صاحبه تمام الثقة.. ابن "كمال الدين" تزوج ابنة "عز الدين". أيّ أنّ السّيف تم طلاؤه بالذهب، فصار ألمع بريقًا، وأضيفت على قدرته في إسالة الدماء، قدرات على شراء الذّمم، وتعمية الضمائر، وشراء عمائم الشيوخ، والضّحك على الرعية الدهماء. وهذا ما انطبق عليه المثل الشهير.. سيف المعزّ وذهبه. انطلقا في التفكير والتخمير، وكلّ منهما يأمن ومؤتمن مَن صاحبه. فعملا مع أتباعهما على زيادة سيّئات السّلطان

المائل سيئات مضاعفة. فإذا بحال "مصر" ينقلب من حال الرّضا إلى حال السّقوط والوضاعة. فترتبك المراكب السّائرة، وتبهت خضرة الزروع، وتنحسر التجارة، وتنكسر الصّناعة. وقيل في هذا السّلطان المائل بعد أنّ أتى اليوم الذي انزاح فيه عن عرش "مصر".. إنّه أدام الهزل مستراحًا، وقلب الجدّ مستباحًا. ويا حسرة على شعب تركوا أمورهم للسّلاطين، فإن عَدَل سّلطانهم ينعمون، وإن جار سّلطِانهم يسقمون.!!

ولا حول ولا قوة إلا بالله.!!

قال حكيم إفرنجيّ: "إنَّ البلاءات لا تأتي فُرادى"، وكان على حق فيما قال.. بدأت آثار فَتْحٌ جغرافيّ حدث من سنواتٍ عديدة مرّت، بدأت تبان، فأغلقت الكثير من البيبان التي كانت مفتوحةً، ويأتي منها الخيرات الباسقات. فَتْحٌ جغرافيّ مُفْرِحْ لمن هُم على الجانب الآخر من البحر، والفَتْحُ للذين هناك هو قَفْلٌ مؤلم على دولة المماليك المغشي عليها هنا. برتغالي لعين وجد طريقًا بحريًا يلتفّ حول آخر القارة، وعليه سارت، وصارت سُفن ومراكب الغرب في غنى عن المرور في الأراضي المصرية، ودفع المكوس الذّهبية التي تقطم ظهرهم، فلا تستقيم وتستقوي، لكنّ تُقَوّي ظهر المماليك. ضاع من سّلطان "مصر" وأمرائها تلال الذّهب التي كانت تُفرض على تجارة العبور من "أوربا" الشُّقر إلى بلاد "الهند والسند" السّمر. كانوا يغرفون منها، وهم مطمئنّون أنّها نعمة دائمة، ليس لها من قاصمة.!

"المائل" ومماليكه ليعوضوا ما ضاع منهم، زادوا ضغط الجبايات على

الرعيّة، حتّى اختنق الناس غنيّهم وفقيرهم. غطسوا في نكدٍ أوسع من البحور، وغلبهم غُلب كَتَمَ على الصّدور. النفوس مخنوقة، والأرواح مزهوقة، والأجساد منهوكة. كلّ هذا الابتلاء، والسّلطان يقيم بهرجات مهرجانات لا حصر لها ولا نهايات! يصرف أكياس الذّهب، وكأنّ الذّهب يأتيه من الهواء، وليس من عرق الناس، وكدّهم، وتعبهم، وطول شقاء! وصارت كلّ الرعية المبتلية تقول لنفسها.. "ربّي ما كلّ هذا البلاء؟!، وهل سنضطر اضطرارًا إلى تَوْليع هُوجَة ربّما تحرقنا، وتحرق الغُز المفاجيع؟! "

"شنْدَرْ" نائب السّلطنة الذي غدر بالكثيرين، وكان من ضمن عصابة السّلطان المائل الحالي التي انقلبت على السّلطان المعدول السابق، "شنْدَرْ" الكاره لكمال الدين الذي نافسه على منصب نائب السلطنة. "شَنْدَرْ" الذي تسبّب في ذبح، وشنق، وإغراق العديدين، جاء وقته ليتجرّع الآلام، ويغصّ بالسُخام. "شنْدَرْ" يتخابث، ويتخامر على السّلطان ليقتله ويثب مكانه، علم العقرب بما يُدَبّر فسبق، وخطّط، وحَضّر، وقيل من زمان مثل "دائم" للآن.. "من سَبَقْ أكل النّبق."

الوقت وقت سطوة الصيف ذي الحرارة، وعز سطوع الشمس الجبارة. دعاه السّلطان المائل فورًا لحضور جمعية غاية في الأهمية، بغرض التَفَكر والتَبصُّرْ، وإبداء المشورة الضرورة، فالرعية المصرية الحَوَشْ تتبجّح، وتتوعّد بالانتفاض ضد أصحاب الشنآن بما فيهم السّلطان! وفي القاهرة المُعزية كبار التجار السوس يتلامضون ضد المُحْتَسِبْ المختصّ في تنظيم الأمور وجبي المُكوس، والحِجَّة زيادة المَغارم والمَظالم. وسفلة الأسواق بطلّوا البيع والشراء بتنشيف رأس غاية في الغباء. والفلاّحون في القرى،

والنّجوع والكفور، كفروا بالنظام وبالحكّام، ويهدّدون، بل ويمتنعون عن دفع ما عليهم من ضريبة الخِراج!، وهذا يسّبب لهيبة الدولة غاية الإحراج. هذا عن الرعية وهم في عُرف الحكّام بُغاث الطير، وعمومًا ليسوا لهم أية أهمية. المصيبة أنَّ بعض المماليك الصغار وشبه الكبار تَمَلَّحَت رقابها، وتحاول اللعب بأذنابها! وحجّة الكلّ من سادة وأتباع في شتى الأصقاع.. أنّه رغم ازدياد الجبايات، وتكاثر براطيل الرشاوي، فما يصلهم من خيراتها لا يساوي. يعني بالمُفْتَشِرْ أنّ حال البلد في خطورة، وسوف تهلك المعمورة إنّ لم ننقضّ، ونتجبّر أكثر وأكثر، لتعود الأمور إلى حالتها المستورة.

نائب السلطنة يعلم أنَّ القلاقل فعلاً تتصاعد كنار القشّ، وإن لم تُطفأ سريعًا فسوف تزداد الولعَة، وتصير البلد ألف ألف شعلة. وقتها لن تجدي مجهودات أيٍّ منهم في طَفْيِها، وعليه أنّ يكون متواجدًا كلّما تلاقوا في جمعية ليتدبّروا الأمور، ولا يتباعد، حتّى يراقب كلّ أمرٍ ويدقّق في كلّ حدث، فالغدر كما هي شيمته، هي شيمة أغلب الحاشية كما هي شيمة السّلطان. لم يظن "شنْدَرْ" أنّ الخطورة هذه المرة في التواجد، وليس في التباعد. لم يتوقع "شِنْدَرْ" أنَّ السّلطان المائل مال، ويدبر أمرًا ليصطاد العُقاب بالغراب.

بعدما اهتمّ بملبسه اهتمامًا زائدًا، امتطى حصانه مسرعًا إلى قلعة "صلاح الدين" المتربّعة على هضبة وسط "القاهرة". على يمينه مُعاونه الأوّل، وعلى يساره معاونه الثاني. خلفهم سرب فرسان شجعان، ومن

بينهم "بِنْبان" غليظ الملامح، المتهوّر الجسيم، و"حفيظ السلولي" الوسيم اللّئيم. الكل لَبسوا حَرْبي. الزرد على أجسادهم، وفوقها الدروع، وعلى رؤوسهم البيض الحديد، والأسلحة في أياديهم، وفي رِكاب خيولهم بُلط، وفؤوس لتكسير العظام، وفلق الرؤوس. أتمّ الاستعداد لكل حال. آه.. فالمثل المملوكي من كثرة الخيانات، والافتراءات قال.. "لا تأمن."

يمرون في شوارع منها الواسعة، ومنها الضّيقة. العامّة تنظر إلى سرب الفرسان المُختال وفي مقدمتها نائب السلطنة، أبَّهة، ومَنْجهة، وتعاجب بالأناقة، والفخامة، والمهابة. العامّة على الجانبين في ملابس بالغة التواضع، فيها المرقع، وفيها المبقّع. فيها المتّسخ ببشاعة، والمتبهدل بشناعة. الحفاء في غالبهم، والبؤس يُغالبهم، والحقد يحرقهم. حين تقع عين فارس مملوك على عين صعلوك، يبتسم الصّعلوك نفاقًا، وبمجرّد ابتعاد العين عنه.. يلعن كلّ المماليك، ومن أنجبوا المماليكَ، ومن أتوا بالمماليك. قرِفوا من الحُكم والحُكّام، وينتظرون انفلات تمام الزمام، لا ليستردوا إنسانيتهم التي سُحقَتْ، وحقوقهم التي سُلبَتْ فقط، لكنّ ليفعلوا في الحكام، وذيولهم مالاَ أذن سمعت، ولا عين رأت.!

اجتاز الفرسان تجمّعات بعض القصور الواسعة، والمتوسّطة، فدخلوا ساحة "الرميلة" الرملية الشاسعة الخالية من أيّ شجرة تُظلّل. ومنها صعدوا هضبة قلعة "صلاح الدين" الصّخرية. أسوار القلعة العالية، وبرجان هائلان على جانبي الباب الرئيسي الضخم. لم يُسمح بالدخول سِوى "لشِنْدَرْ"، ومعاونيه الاثنين! آه.. شَكٌ مكتوم سرعان ما انفكّ. فرسان

تابعين لأمير الجيوش "أَيْنَبَكْ" على مقرْبة من باب القلعة متجمّعين، إذن الحال من بعضه. تداخل الفرسان سويًا. تحيات، وسلام، وابتسام أقلّها من القلب، وأغلبها أيّ كلام. البعض منهم أتوا معًا أطفالاً، عبيدًا تمّ بيعهم لهذا وذاك. انتماءاتهم صارت متقاطعة، ونيّاتهم غامقة ملاوعة. خلعوا البيضات الحديد من على رؤوسهم، يتْهوُوا وينفخوا من الحرّ الوبيل، ويجففوا العرق بالمناديل. الشمس تصعد لتحتل قبة السّماء الزرقاء. الأسوار ذات لون مُصْفرْ، أحجارها الضَخمة تمتصّ لظى الشّمس وتفحها على من حولها فَحّا. أرض الهضبة التي يقفون عليها صخرية ساخنة تبخ السخونة عليهم بَخّا.

ساحة "الرميلة" الشاسعة مرآة صهباء تعكس لهيب الشّمس، وعلى حدودها المقابلة، تجمّعات شعبية مُتفرّقة تراقب من بعيد. يراهم المماليك، ولا يعطوهم إلا حساب ضئيل، لكنّ يُحسب لهم ألف حساب وحساب، حين يتكتّلون ألوفًا ألوفًا، ويكون لهم قائد أزهري لا يأبه بذهب السّلطان، ومن سيفه لا يُهاب، مخلصًا لخالقه "اللـه الرحمن"، والذي هو وفي نفس الوقت شديد العقاب.

داخل القلعة.. الثلاثة على الخيول التي تتعاجب بنفسها، وهي تمرّ بجوار حديقة "الرياحين"، ثمّ دخلوا في الممرّ الصّاعد الطويل، وعلى جانبيه الأشجار الضخمة تفرش ظلالها تحتها. عند سلالم مبنى القلعة الرئيسي، أسرع العبيد السّود ليأخذوا الخيول، ويراعوها. دخل الثلاثة القصر بخُطواتٍ منتظمة ثابتة واثقة. نِعالهم الجلد أصواتها خافتة.

أرضيات الصّالات، والممرّات رخام، والجدران مزّوقة بالبلاط الناعم. صعدوا الدَرجِ للدور الفوقاني. استراحة زوّار السّلطان المفضية إلى القاعة السّلطانية. الكنب اللينة على الأجناب، معاونا "شِنْدَرْ" انضمّا لمعاونا الأمير "أَيْنَبَكْ" اللّذان سبقوهما، سلامات، وتحيّات، وكثرة كلام في صفاء وابتسام. في أدبٍ واضح، وبالغ الاحترام، تناول حارسا باب القاعة السّلطانية سيف وخِنجر "شِنْدَرْ"، فلا دخول بالسّلاح على السّلطان. دخل "شِنْدَرْ" القاعة. القاعة السّلطانية فسيحة أغلب جدرانها مُبطّنة بالحرير. شبابيك الأرابيسك العالية الواسعة على الجانبين مفتوحة على آخرها، ومن خلالها تيارات الهواء تمرّ، فتكسر وطأة الحر، وتحوّله للطفٍ مُبهج يسرّ. انتعش "شِنْدَرْ"، وخلع بيضته الحديد، وضمّها بين ساعده الأيسر وجانبه. رسم ابتسامة، ونفخ صدره مُتعاجبًا بنفسه، وليزداد بملبسه الأنيق وسامة. نظر حيث العرش مُبتسمًا، وأخذ خُطوات قليلة. وهنا نُفّذت المؤامرة. انقض عليه مملوكان تابعان للسّلطان المائل. طعناه بالحِراب في ظهره. تأوّه. صرخ..

– "الحقوني.. خيانة."

معاوناه سمعا صُراخه. الأوّل صرخ تلقائيًا، مُرددًا خلف قائده..

– "خيانة."

وقبل أنّ يُشهر سيفه، كانت سيوف حارسي باب السّلطان ومعاوني "أَيْنَبَكْ" مُشهّرة. وقبل الاحتدام، إذا بالمعاون الثاني، بدلاً من الاشتباك مع أعدائهما، يطعن المعاون الأول طعنه نجلاء في جانبه! يصرخ المطعون،

وأدرك أنّ الخيانة من داخلهم. ثمّ تلقّى أربع طعنات أكملوا عليه.

المملوكان اللذان طعنا "شنْدَرْ" حملاه من تحت باطيه، وسحباه لوسط القاعة السّلطانية التي رُفِعَتْ منها السّجاجيد العجمية. نظرا لسرير العرش التي تعلو الفسحة بسبع درجات رخامية وردية. السّلطان على عرشه، وعلى يمينه أمير الجيوش "أَيْنَبَكْ" بكامل لباسه الحربي، متوسّط الطول، عريض الكتفين ضيّق العينين السوداوتين، على شمال العرش المكان خالٍ، هذا مكان كان يجب أنّ يكون "كمال الدين الداودار" واقفًا فيه. خلف العرش عبد أسود نصف عارٍ يُمسك بكلتا يديه عصىً مصقولة طويلة تنتهي بمروحة من ريشِ النعام، يُهَوّي بها على السّلطان الذي ابتسم، وهو يشاهد نائبه المتجبّرْ المُتَكبِّر، المتخامر المتآمر في هذه الحالة. هزّ رأسه للمملوكين، فتركا الجريح يسقط مُنْكَبًّا على وجهه. مازال يتنفّس، ويتأوّه تأوهات احتضار. "شنْدَرْ" يحاول رفع رأسه ليخاطب السّلطان. عبس الأمير "أَيْنَبَكْ"، ومال على أذن السّلطان..

– "لا تِسمع، ولا تِرحم مين كان يُهدّد عرشكْ سلطان. ثُمَّ يعني ما في رجوع، بعدما صار اللّي صار."

لم ينتظر أمير الجيوش رأي سّلطانه المائل. نظر ناحية باب جانبي موارب، وأشار بيده. أتى حارس ضخم الجُثَّة من حرس السّلطان يحمل بلطة. توجّه حيث المطعون. رفع البلطة الثقيلة، وبضربةٍ فصل رأس "شنْدَرْ". من قوّة الضربة انكسرت من تحت رقبته البلاطة القِيشاني. الدِّماء تتفجر من الرقبة، ومن أسفل الرأس المبتور الجاحظ العينين، والمفشوخ

الفم دهشةً ورعبًا، والطّعنات الأولى في جسده مازالت هي الأخرى تنك دمًا. الحارس الضّخم ضرب بقدمه البيضة الحديد من رأس المغدور، وحمل الرأس من شعرها، ولا يبالي بالدّماء التي تسيل منها على القيشاني اللّامع، وتُطَرْطِشْ على حذائه الأصفر الفاقع. رفع الرأس المجزور عاليًا. السّلطان راضٍ يتأمّل الرأس المقطوعة، المفزوعة العينين، هزّ رأسه، وأشار بذقنه الكثّة بعيدًا. أتى عبد بوعاء، فوضع الحارس الضخم رأس "شِنْدَرْ" المبتورة فيه، وحمل الوِعاء، وخرج بها متباهيًا بما فعل.

فرسان الأمير "شِنْدَرْ" نائب السّلطنة المغدور، وفرسان الأمير "أَيْنَبَكْ" أمير الجيوش الغادر ملمومين معًا، البعض مازال على ظهر الخيول، والبعض على الأقدام. والكلّ مخنوق من لبس الحربي في هذه الظهيرة الحارة. فجأة تطير رأس المعاون الأوّل، وتسقط أرضًا بين أرجل الخيول والفرسان وهي تنثر آخر قطرات دمها. يفزع مماليك "شِنْدَرْ"، ينظروا لبعضهم، بعد أنّ تبينوا أنّ هذه الرأس التي سقطت بينهم، وَسفَّت الرمال هي رأس أهمَ معاوني قائدهم! لحظة.. وإذا برأس قائدهم أيضًا تسقط تحت أرجلهم تنظر إليهم بعينين مرعوبيتن، وفم متّسع مشدوخ، وكأنّه يستنجد بهم! من كانوا على أقدامهم وثبوا عائدينً على صهوات خيولهم. انفصلت المجموعتان عن بعضهم، وقد وضعوا البيضات الحديد على رؤوسهم، وأشهروا سيوفهم. مجموعة "أَيْنَبَكْ" التي استعدّت للصدام سريعًا، كانوا يعلمون بالمؤامرة وهم يتسامرون، ويضحكون مع مماليك "شِنْدَرْ"! الخيول توتّرت بتوتر راكبيها، وأخذت في الحمحمة والصّهيل. ابتعد مماليك "شِنْدَرْ" عن السّور قليلاً، ونظروا للبرجين باحثين عن الذي ألقى بالرأسين. المملوك

ضخم الجُثّة يقف في الشرفة، وبصوته الجهير يأمرهم..

– "انتهى أمر الخائن "شِنْدَرْ". سلموا أمركم للسّلطان. ومَن يِسَلِّم للسّلطان يِسْلَم وهو في أمان، ومن يتلامض فقطع الرأس عقابه.!"

المعاون الثاني سعيدًا مبتسمًا، يقف بجوار المملوك الضّخم، صاحب الصوت الجهير المستمرّ في محاولته فكّ رباط بأسهم..

– "معنا معاون "شِنْدَرْ". اعترف بخيانة سيده، وعليه تمّ العفو عنه، وستتم مراضاته. كونوا مثله تسلموا وتكسبوا، تُعارضوا تتململوا.. تندموا."

فرسان "شِنْدَرْ" ينظرون لبعضهم في ذهول. وجدوا اثنين منهم ينسحبان خشية سوء المآل. نفوسهم تتساءل مع بعضها بدون كلام.. هل ضاع سيدنا وضعنا؟ بانت الضعضعة، وصاروا أقرب للهروب والفَلْسَعَة. مماليك "أَيْنَبَكْ" في اطمئنان أنّ مماليك "شِنْدَرْ" سينهارون بعد مقتل سيدهم، ونائبه الأهمّ، وخيانة النائب الثاني. وهنا كان الأمر الغريب والذي لم يكن يتوقعه أحد. "بنْبان" المتهوّر الجسيم الجسور، أشار بسيفه ناحية فرسان "أَيْنَبَكْ". لم يتكلّم، صاح..

– "هاااا."

قذف بنفسه على مماليك "أَيْنَبَكْ"! يصدّه فرسان "أَيْنَبَكْ" لكنّه يطيح فيهم، ويشقّ بحصانه تجمّعهم مبتعدًا، ثمّ يعود كارًّا عليهم. متهور غبي صحيح، لكنّه فارس بقوّة مائة فارس. وهنا انضمّ إليه ثلاثة فرسان من

زملائه، ثمّ ثلاثة وأربعة، ثمّ الباقين وهم يصيحون باسم قائدهم المغدور "شِنْدَرْ". تفكّك فرسان "أَيْنَبَكْ" من المفاجأة، وهربوا. فرسان "شِنْدَرْ" المغدور أسرعوا للباب الكبير المغلق. لن يستطيعوا تحطيمه فما بالهم بتحطيم السّور؟! تهديدات جهير الصوت من شرفة البرج تنزل عليهم وعدًا، ووعيدًا. كبار مماليك المغدور يصيحون في الباقين أنّ يعودوا لقصر المغدور ليروا ما العمل، لكنّ "بِنْبان" في حالة ثورةٍ بركانية يرفض بإصرار. فقال قائل منهم.. أرسلوا أكبرنا سنًا ليجلب بقيتنا ليؤازرونا في الانتقام لأميرنا "شِنْدَرْ".

يعارض من يعارض بحجّة ألاّ قِبل لهم بفتح ثغرة، ثمّ إنّ الحرس السّلطاني تعداده خمسمائة متترسين متربصين داخل القلعة، وأيضًا على أطراف "القاهرة" جنود أمير الجيوش بالآلاف في "القشلاقات"، وبمجرّد أنّ يصلهم نبأ الأحداث سيأتون فورًا ليدخلوا المعركة، فكيف سيتغلّبون عليهم؟! "حفيظ السّلولي" لم يتهور و لم يعارض، بقي في الوسط. لم يستمع المتهور للرأي العقلاني فهو الغبي، وتحمّس معه بعض الشباب، و لم يأبهوا لتعقّل من هم أكبر سنًا. صاح "بِنْبان" آمرًا باقتحام باب من أبواب القلعة الثانوية؛ لينتقموا من السّلطان المائل نفسه! لم يأخذ مشورة أحد، و لم ينتظر مددًا. أسرع بحصانه، وخلفه أشدّ المتحمّسين، ثمّ لحق بهم البقية، ليلتفّوا حول السورِ ليصلوا إلى أصغر أبواب القلعة من الجانب الآخر. البابِ متين لا يحطّمه فرسان بمجرد الضرب ببُلطهم وفؤوسهم، تحطيمه يحتاج إلى منجنيق، أو على الأقل عشرين مملوكا ينطحونه نطحات بجذع شجرة ضخمة.

إن كان عقل الذين آثروا الرأي القائل بالرجوع لقصرهم، والتفكّر هو الرّأي العقلاني الأسلم، فقد بان أنه رأي أخيب، لأنَّ أصحابه العقلاء لا يعرفون ما يدور داخل القلعة. مماليك كبار حول السّلطان يحقدون على المقرّبين منه، ويكرهون السّلطان، ويتمنّون زوال سلطنته، وقائد الحرس السّلطاني، وأتباعه قانونهم: "معاكم معاكم، عليكم عليكم.." وجدوها فرصة، فالشّعب الرعاعي يفور، ومن بهدلة الفقر قارب أنّ يثور. وكبار قوّاد الجيوش في ضِيق من قائدهم نفسه الأمير "أَيْنَبَكْ"!، واشتاقوا لعمل هيصة وشقلبة للأحوال، فيخلعوه، ويُجندلوه، وينالوا مكافآت ليعودون للرضَى والاستقرار. ومماليك نائب السلطنة المغدور عند الأبواب يريدون الانتقام، وسوف يلحق بهم بقيّتهم وهم كثيرون، إذن فلِمَ لا نفتح لهم الأبواب؟ لتكون مجزرة على السّلطان وأمير الجيوش، فنخلص منهما معًا؟

وقد كان. انفتح الباب.. المتهوّر الجسيم على حصانه يندفع إلى الأمام، إلى أين؟ أيّ طريقٍ يتّخذ؟ لا يعلم، فهو لم يعلم أنّ ساحات القلعة بهذا الاتساع والتعدّد! خلفه بقية الفرسان، ومن انضمّوا إليهم. أسرعوا على اليمين فقد رأوا أنّ اتجاهها لمبنى القلعة الرئيسي هو الأقصر. يخترقون حديقة "الرياحين" من منتصفها، ليقتحموا الممرّ الصّاعد الطويل بأشجاره الضّخمة. وجدوا مجموعة من الحرّاس حاملي الحِراب السّلطانية تُحاول إيقافهم. فلمّا هجموا عليهم إذا بفرقة الحراب تفتح لهم الطريق، وتقف على الجانبين مُشهرة الحراب لأعلى، وكأنّهم حرس سّلطاني استعراضي للانقلاب! حوافر الخيول تدكّ الأرض المبلطة بأصواتٍ رنّانة، وفي

الممرّات الترابية تدكّ الأرض بأصوات مكتومة، وكلاهما يُفَجِّر الخوف في قلوب بقية حرس السّلطان، وأتباعِ أمير الجيوش.

ساحة مربّعة بها جُحفل من جحافل مُشاة الحرس. صيحات المتهوّر الجسيم، ومِن خلفه ترعبهم. لكنّهم مصممّون على الدفاع عن السّلطان. صمدوا قليلاً ومِن القتلى خسروا كثيرًا. المتهور نال الكثير من الضربات هبطت على كلِّ أماكن جسده، يحميه الزرد، والدروع الحديدية، خاصة البيضة الحديد التي تحمي رأسه، ويهبط منها لسان يغطي أنفه، فلا يبقى عاريًا سِوى عينين، وفم لا ينغلق، ولا يفتأ يصيح صيحات القتال المرعبة. وكلّ هذا الزرد والحديدَ عليه، والحماية غير كاملة. في استغراقه في القتال، لم يشعر بوجع، و لم يحس أبدًا أنّه أُصيب أكثر من إصابة!

سهولة دَحْر المدافعين، وانضمام الكثيرين من جنود وفرسان الحرس السّلطاني إليهم، أعطتهم جرعات انتشاء. توقّفوا قليلاً، ليعطوا الفرصة للمشاة أنّ يلحقوا بهم. اقتربوا من ساحة القصر حيث مقرّ السّلطان. عشرات من فرسان الحرس السّلطاني على خيولهم مرصوصين للدفاع. فرسان السّلطان خوفهم خوفين، خوف من هذا الهجوم المجنون، ومن الخيانات داخلهم. أصوات حوافر المهاجمين تصلهم، وسمعوا باستسلام، وانضمام أكثر مُشاة الحرس السّلطاني للمهاجمين! ففعلوا ما لم يفعله أحد، وما لا يفهمه أحد، أطلقوا صيحات القتال، وأسرعوا في انطلاقةٍ حماسية عابرين ممرًا جانبيًا يأخذهم بعيدًا عن الممرّ الذي سيأتي منه المهاجمون!.

وصل فرسان المهاجمين وخلفهم المشاة على حافة السّاحة.. لا فرسان

يحمون القصر! لكنّ الرّماة ينتظرونهم خلف الفتحات الضيقة المخصّصة للرّمي بالسهام. اندفع المهاجمون في سرعة لتقليل تعرّضهم للسهام الغزيرة، السّهام أصابت بعض الفرسان والخيول. تأوّهات الفرسان لم تصل لآذان أحد، لكنّ صهيل آلام الخيول وهي تتجندل سمعها الكل. استمر اندفاع الهجوم، والخيول بفرسانها اقتحمت الباب الكبير، والفسحة الرّخامية الواسعة. هبطوا من ظهور الخيل؛ ليصعدوا إلى الدور الفوقاني. المتهوّر يطيح بكلّ من يتصدّى له، ويطارد كلّ من يهرب منه. سيفه ثلم من كثرة ضربه على الدروع، والزرود، والأجساد. أسلحة لامعة أنيقة مُعلّقة على جدار قاعة، ألقى بسيفه، والتقط منها بلطة ضخمة. أمسك يد البلطة الطويلة بكلتا يديه. اقتحم القاعة الثانوية. وجدوا جثة المعاون الأول ملقاة بلا رأس. باب استراحة زوّار السّلطان مغلق. ضربات بلطة "بِنْبان" حطّمته، واندفع وخلفه العشرات من الشرهين للانتقام. أكثر من خمسين مملوكًا هُم خلاصة الحرس السّلطاني، يقودهم المملوك الحارس ضخم الجُثّة وهو يحمل نفس البلطة التي قطع بها رأس "شِنْدَرْ". بلطة لا تقل قسوة ورهبة عن التي يحارب بها "بِنْبان"، يقاتل بشراسة، فهو على يقين أنّ الهزيمة معناها أنّ تُقطع رأسه إنّ بقي حيًا، وحتّى إنّ انقلب مقتولا فسوف يجزّون رأسه. يحمون السّلطان الحيران من بغتة الهجوم، وإحساسه بأنّه خسران خسران.

هجوم صارخ، ودفاع صارخ، واحتدام غلّ وانتقام. المتهوّر الجسيم ببلطته يطيح فيهم، ويتلقىّ الطعنات فلا يحسّ بها. "حفيظ السلولي" في هذه المعركة الأخيرة ظهر وبان، وكان دائمًا بجوار "بِنْبان". دقائق طويلة

مرّت وكأنّها أقل القليل، ويسقط فيها من القتلي والجرحى الكثير، حيث دارت مقتلة هميمة عظيمة. بعد جرح ضخم الجُثّة، وسقوطه على مقعدته ممسكًا بجانبه الذي نال فيه طعنه سيف. استسلم مماليك السّلطان. يتقدّم المتهور الجسيم من وسط القاعة. أفسحوا له. السّلطان يقف أمام سرير العرش المبطن بريش النعام، والمكسو بالديباج والحرير. عليه عباءة السّلطنة الحمراء، والعمامة الضّخمة التي تتخلّلها دنانير الذّهب هي التاج الشّامخ على رأسه. يرفع عمامة السّلطنة من على رأسه، ويضعها على العرش. بعينين مذهولتين، وبساقين مرتعشتين يهبط الدرجات السّبع الرخامية الوردية المذهبة. يقف مرتعبًا، والمتهوّر الجسيم "بِنْبان" منتصب أمامه يشهق ويزفر في غلٍ وشراسة.

عيناه من فتحتي البيضة الحديدية تشعّ غيظًا، ودماء تسيل من فتحتي أنفه على شفتيه وذقنه. يتقدّم نحو السّلطان المائل ممسكًا بالبلطة التي يتقاطر منها الدماء. أحنى السّلطان رأسه في استسلام، ونطق بصوتٍ مرتعش..

– "أتنازل عن الحكم. وعلشان ما يكون دمّ أكتر، انفوني لبلاد الشّام.!"

رفع المتهوّر البلطة في سرعة، وانهال بها في عنفٍ وغلّ على رأس السّلطان المائل الذي مال بجذعه يمينًا، رافعًا يديه هلعًا ناحية يساره، ليحميا رأسه وعنقه المنكمشين مع كتفيه المضمومين رعبًا، فهوت البلطة لتقطع جوانب من كفيه، وتقتحم أعلى خصره حتّى الحوض، وتكسره وتصل لما بين فخذيه. يترك المتهوّر البلطة مرشوقة، لينهار جسد السّلطان،

ويخرّ أرضًا يفرفص ثواني ويهمد. وهكذا كانت نهاية السّلطان المائل الأهطل، ليكون السّلطان المهدور.

داخل القاعة السّلطانية الواسعة انقلب الحال إلى هِيصَة من بَعد معمعة قتال. يحتضنون المتهوّر الجسيم فرحين به، وبالمعجزة التي أنجزها. يأخذوه بالأحضان هنا وهناك. يهلّلون غير مصدّقين بهذا الانتصار البديل عن الانكسار. في هذه المعمعمة الفرحانة دخل القاعة مجموعة من صناديد المماليك يتقدّمهم الداودار العجوز "كمال الدين" بطوله الفارع، وعمامته العالية، وذقنه وشاربه الأبيضين الناصعين مثل بشرته الموردة بحمرة خفيفة. يتخطّى جثث القتلى غير آبه، وبالناظرين ناحيته غير مهتمّ. ملابسه ليست حربية بل اعتيادية، وإن كانت في أناقتها المعتادة. يتقدّم أمام حرسه ناحية درجات العرش في ثقة ووقار. المقاتلون يُفسحون له، ليتقدّم حتّى وقف بجوار جثة السّلطان المقتول ينظر للجمع في تعالي وهدوء. في سرعة رصد ملامح المملوك الشابّ الذي قتل السّلطان، لابد وأنه مُسطّح التفكير. استدار معطيًا ظهره للجمع صاعدا الدرجات السبع، ووقف بجوار سرير العرش. استدار مرة أخرى مُواجهًا الذين يراقبونه وهم يعلمونه. يقلّب ناظريه في الذين تحته، ثمّ التقط باهتمامٍ وعناية عمامة السّلطان، ورفعها بيديه أمام صدره وهو منتفخ منتفش كَسَبْع.. برهتين، وصاح بصوتٍ عميق مُتسائلاً في دهشة وهو يعلم الجواب..

– "يا فرسان المماليك. يا شجعان المماليك. مين فيكم قَتَل سُلطان مَهْدُور؟!"

صمت.. ثمّ في تحدٍ وثقة رفع رأسه، ونظر في عيني الداوادار..

- "أنا."

- "أنت مين؟!"

- "أنا المملوك بِنْبان."

أحنى الداوادار "كمال الدين" رأسه، وخاطبه في رقّةٍ وأدب..

- "اصعد الدرجات السّبعة، فأنت السّلطان الأمجد بِنْبان."

- ".."

- "اصعد، واقعد على عرش السّلطنة يا سّلطان."

لم يتحرّك المتهور الجسور. مناداته بأنّه السّلطان أربكته، ولفظ الأمجد "بِنْبان" أعجبه، وارتاحت نفسه له، لكنّه مازال يقف مندهشًا ناظرًا في غباء لأعلى حيث الداوادار "كمال الدين" يبتسم له ابتسامةً لزجة، وهو مازال رافعًا عمامة السلْطَنة، ويشير برأسه إلى العرش ليجلس عليه. أتى "حفيظ السلولي" من خلف "بِنْبان"، ودفعه للصعود..

- "اطلع، واقعد على العرش يا مولاي."

يصعد المتهوّر الجسيم الدرجات السبع، وخلفه "حفيظ السلولي". يقف أمام العرش حائرًا. "حفيظ السلولي" يديره ليكون ظهره للعرش الفخيم، ويواجه القاعة السّلطانية حيث يقف المماليك، وترتمي الجثث والجرحى المتأوهين. يضغط على كتفيه برقّه، فيُجلسه على العرش. يرفع "حفيظ السلولي" البيضة الحديدية من على رأس المتهوّر الجسور. اللّسان الحامي

للأنف مرضوض بضربة هائلة. تظهر الدماء التي تخرّ من أنفه المهشّم، وبللت نصف وجهه السّفلي. ووجنته الشمال المكلومة. ثمّ يلاحظ البعض أنّ أعلى إصبع السّبابة اليمنى قد بُترت. يسرع مملوك بقطعة قماش ويلف السّبابة الناقصة، وآخر بكل رقّة يمسح الدماء من أنفه، وشفتيه، ومن ذقنه، وأعلى رقبته. الداودار "كمال الدين" يضع عِمامة السّلطان على رأس "بِنْبان". الجالس على العرش لم يستوعب ما يجري له، عيناه من بين الزّحام الذي تحت درجات عرشه ترى زملاءه وهم يحملون جرحاهم، والبعض يتحلّق حول من ينازع ملك الموت. يرى من أعلى الدّم المسفوك، والبشاعة التي شارك فيها. لوم داخلي يضغط على قلبه..

- "لقد شاركت في هذه المجزرة."

ومن داخله اندفع الرد..

- "بل انتقمت ممن غدروا بسيدي شِنْدَرْ."

لوم مُضاف، وهو ينظر ناحية السّلطان الذي شطره، ومازالت البلطة مرشوقة في جثته..

- "لقد قتلته أنا."

ومن داخله ينطلق الرّد..

- "بل انتقمت لسيّدي، وأستاذي شِنْدَرْ."

يقول المثل العامّي.. ابن الهبلة يكسب أكتر. وها هو غبي إنّ وازنوه بما يجب أنّ يكون عليه سّلطان يحكم "مصر" المحروسة.. فهو أهبل بن هبلة.

شاب صغير لعب بالسيّف فقط، لينتقم لسيده، يصير سّلطان "مصر" في غمضة عين، ومفيش إيشي شيء في مُخه؟! حتّى لم تتم مشورة فيمن يولّونه سّلطانًا! تسلطن السّلطان هكذا من الباب للطاق!، وهكذا أمر "مصر" المحروسة التي اسمها كالطّبل، والزمر بين بلدان العالم بيضان، وسودان وصفران، وحمران، وكلّ لون من الألوان.

نظرات البلاهة تتّضح في وجه من جلس على العرش. ذهبت الغفلة التي امتطت التهّور، واندفاعة للانتقام، وجاءت العَقْلَة فلم تجد عقلاً تدخله. أين العقل الذّكي الرشيد الذي يُدير شئون مملكة تحكم وادي "مصر"، و"النوبة"، و"الشام"، و"اليمن"، و"الحجازية"، و"لُوبيا"، و"أفريقيَّة تونس"؟!، أين السّلطان القدير الذي يقدر على حكم صحاري شاسعة ظهر فيها أغلب الأنبياء، وبحار تمخر على سطحها تشكيلات أساطيل، مُحمَّلات بتنويعات البضائع الباهظات. بحار تسبح في أعماقها مئات الأصناف من الأسماك، وشتىّ الحيتان منها حوت يونس؟!

ثم أقلّ من ساعة زمن. الذين تحلّقوا حول السّلطان الطازة، سواء من كانوا من قبل سابق مع السّلطان المهدور، ووقت الشدَّة تركوه في ستين داهية يغور، أو من همّ من زملاء السّلطان الجديد، قرروا أنّ يتمّ الانتقام من الذين هيّؤوا للمؤامرة، واغتالوا "شنْدَرْ". الحرس السّلطاني القديم ينفّذ أوامر السّلطان الطازة الجديد! أتوا بالأمير "أَيْنَبَكْ" أمير الجيوش مُوثّقًا، وجُرْح في بطنه ينزف. رأسه عارية فبانت صلعته الشّاسعة. يرجو المعذرة، ويلقي بالحجج، ويقسم أنّه لم يكن من ضِمن المتآمرين على نائب السلطنة

"شِنْدَرْ". سحبوه ليجرّسوه، ثمّ يوسطوه تحت باب زويلة الضخم وهو من أهم أبواب "القاهرة". من كان أمير الجيوش من ساعة زمن، والعجب بالنفس والسلطة تاجان غرور على رأسه، صار دجاجة صلعاء تِكَاكي، وتبكي، وتقول ذاهلة..

– "إيش مَعْنَى تسيبوا الداودار العقرب، وتقتلوني أنا؟! يا بهايم الداودار هو اللِّي تخامر على قتل شِنْدَرْ."

مماليك الداودار هجموا على "أَيْنَبَكْ"، وأشبعوه بهدلة، وركلاً، وسبابًا، بغرض جُوّاني هو الشوشرة على كلماته، ومظهره عقابًا. أمّا مماليك "أَيْنَبَكْ" الذين شاركوا في المؤامرة، و لم يُقْتَلوا في المعركة، فأُخذوا بعُنف للحبس في سجن القلعة، والذي هو سجن مُفزع مليء بالظُلمة المُوحِشة، والرطوبة، وأسراب الفئران المتوحّشة، ولا يخلوا مثل غيره من أدوات التعذيب الشيطانية. وبعدها المنتصرون يقرّرون من الذي يتمّ قتله منهم، ومن الذي يستمر حبسه، ومن الذي يتم الإفراج عنه، ليكون من أتباعهم.

تركّز البحث عن معاون "شِنْدَرْ" الثاني الذي خانه. استغلّ شدة المعركة، وركب حصانًا شاردًا، وهرب، وفي قصرِه انشغل مع "عبيده، وجواريه يُلملم ذهبه، وفضّته، ومجوهراته استعدادًا للهروب من "مصر" كلها، يظنّ وبعض الظن غباء، أنّ ما يحدث في القلعة سوف يأخذ وقتًا طويلاً، وسيجد هو للهروب بما سرقه سبيلاً. لحق به فرسان الانتقام، فضَرَبُه التلف، وأصابته رجفة طلعت فيها روحه، وسقط على خُرج قماش مُعبّأ

بمنقولات ذهبه وفضته. أفلتت منه ثروته التي جمعها بالنّفاق، والظّلم، وإهدار كرامته، وأفلت هو من البهدلة أسيرًا، ثمّ التعذيب في سجن القلعة، ثمّ قطع الرقبة، أو التوسيط تحت باب من أبواب القاهرة.!

الداودار العجوز اللّئيم "كمال الدين"، ليس عليه حرج، فدائمًا له باب فرج. ثمّ إنّه هو العليم بكلّ خفايا "مصر" وولاياتها. هو اليد التي تُمسك بكلّ الخيوط، والمسالك التحتية الخفية. أقسم للقُوى الصّاعدة أنّه لم يُخامر في قتل "شندر"، فكلّ اختصاصاته، وكامل مهمّاته تنحصر في هامّين.. أنّ يحمي كلّ جالس على سرير السّلطنة من الخطورات المهلكات. وثاني هام: التحكم، ومراقبة أمراء الولايات، خاصة أمراء الشام الخطيرين المنفلتين. وثالث هام: تسيير الأمور، وجباية الذّهب والفضة اللذان يجلبان السرور. وبغير هذا لا يبالي، وبالسلطنة لا يهتمّ.

المصرية عرفوا بالقلاقل التي تقع داخل القلعة، فاحتشدوا في ميدان "الرميلة". شوية يصيحون هُتافًا للسّلطان الجديد الذي لا يعلمون عنه لا مبتدأً ولا خبرًا! وشوية يرغون، ويزبدون، ويهدّدون بأنّهم لن يسكتوا أكتر مما سكتوا. وسطهم بعض مشايخ الأزهر الشباب. يشتكون من الحال المايع، وتَجَبُّر كلّ من هو صايع، والرعية أغلب ما فيها من الغُلْب ضايع. الحشد يجمع ما بين الفقير الدُقَّة، وشبه الجائع. ملابسهم قديمة متهالكة متسخة، ووسطهم نسوان يحملن أطفالهنّ والذباب يَعفّ على أعينهم، وفتيات مقشّفات لا ينتظرن نكاحًا حلالاً. مع كلّ هذا الفقر الفقري المنعاص، بالسّبخة. والكلّ يلعن في السّلطان المهدور وأيامه الوسخة،

ويأملون في سّلطانٍ معدول، على الشفقة مجبول.

المطلوب سريعًا.. استتاب الأمر هذا أسرع السريع، ثمّ تهبيط هيجان العامّة اللّمامة، وكسر قلب أيّ مملوك سَوْ، تضرب في دماغه أنّ يلعب ملعوبًا، ليبثّ مكروبًا يعكّر الجَوْ. خاصة مملوكَ طايش في جرجا الصّعيد عايش. افتكر نفسه قيمة مكنونة، لأجل معاه مائة مملوك يتبعونه. وأيضًا عدم ترك الفرصة لغوايات أمراء "الشّام" أنّ تجيش، ومنع لغوشة الجيش. العامّة أمرها يسير، فعقلها مُسطّح، وقلبها مزبلح. سيرضونهم بما يشفي مؤقتًا غليلهم من الذي قام ببهدلة غنيهم، وأذلّ فقيرهم.

القرار اللئيم صدر من الداودار الحكيم.. كلّ نهار من نهارات "ربنا"، تتمّ زفة تُرضي الناس، وتلهيهم بتجريس وبهدلة مملوك زنيم، ابتداءًا بالسّلطان المهدور، ومن اليوم التالي ترسيم العقاب على كلّ مملوك عصفور ظنّ نفسه عُقابًا. بعدهم جَرْسَة الأمير "أَيْنَبَكْ"، وهكذا. وفورًا ضخم الجثّة الجريح، وقد فقد كمّية هائلة من دمائه، أجبروه أنّ يركع أمام السّلطان الطازة، ويبوس الأرض، ويَعد بتنفيذ الفرض. مأمور أنّ يهبط من القلعة على حصانه، حاملاً على رأسه صينية ذهبية شاسِعة، مثبّت في وسطها رأس السّلطان المهدور. يمسك الصينية بيد، وبيد يقود الحصان. خلفه عدد من فرسان الحرس السّلطاني. وعده الداودار ربّما يكون له عفو سّلطاني كريم، إنّ استمات في الرّضوخ للسّلطان الجديد، ربّما.. ففرصته في بقاء رأسه على رقبته لا تزيد عن واحد في ألف ألف. !

العامّة موكب الصينية يأتيهم. فلما تبيّنوا، وعرفوا أنّ رأس السّلطان

هي المقطوعة، زغردت النّساء والفتيات، وهاص الرّجال والفتيان، وهات يا تصفيق ورقص. اندفعوا إلى الموكب لكنّ فرسان السّلطان متوقّعين ما يحدث من الدّهماء الغشماء. كرّوا عليهم، وفرّقوهم. فمن العار أنّ تهين جموع الحَوَش سّلطان مصر، حتّى لو كان مقطوع الرّأس، فإن أهانوا الميت، ربما يُفجرون، فيفكّرون في إهانة الحي! فرّقوا الدهماء بعيدًا عن حامل الصينية، وتركوهم فقط يمشون خلف الموكب يُزغردون، ويلعنون الرّأس المقطوع كما يشاؤون. ويصيحون..

- "صلي على النّبي."
- "حِلوْ يا حِلو، وِقِعْ الحِلْو."
- "امدح النّبي."
- "بركاتِك يا أمّ هاشم."
- "مَدَدْ يا حُسين."
- "صلي على النّبي."
- "حِلوْ يا حِلو وِقِعْ الحِلْو."

هذا رغم همسات بعض العقلاء..

- "ما تفرحش يا عبيط باللّي راح، لحد ما تشوف اللّي جاي."

صباح اليوم التالي، والتالي للتالي تمّت زفّات تجريس بعض المماليك في مواكب بهدلة حتّى باب زويلة، حيث يتم قتلهم بتنويعات القتل.. إيشي

شنق، وإيشي قُطع رقبة، وإيشي توسيط. وكان نصيب ضخم الجُثَّة أنّ تُقطع رأسه كما قُطعت رأس "شندر"، تُلقىَ جثته بدون رأس في الصحراء، لتأكلها الذئاب. وأنّ تبقى الرأس على حربة وسط الميدان حتّى تتعفّن، وتتحلّل، وتصير عظامًا تتعلّق بها فتافيت لحم مُزرقّة بلون الذّباب الذي يتغذى عليها. ثمّ بعد هذا تُلقى في الصّحراء بدون دفن، لتعافها الذئاب، وتأكلها الضّباع. !

أسبوع، ونادى المنادون في ميادين وشوارع القاهرة البيان السّلطاني الهام، فقد تولى المُلك السّلطان الأمجد "بنْبان". وأنّه قرر رفع المَظالم، وإيقاف المَهاجِم، ومنع المَغارِم. وأعلنَ أنّ الظّلم مدفوع، والزّعَل مرفوع، والمحتسب الغافل مُسْتَعْفِي من عَمَله مخلوع. وعلى الناس ترك الالتباس، والعودة إلى كلّ ما كان من حركة الأسواق، وتسليك الأرزاق. وبعدها بيومين تلاتة.. رسم الداودار أمرًا للمحتسب الجديد المسئول عن الأسواق، أنّ يقبض على ثلاثمائة من العامّة المشاغبين الذين أوقفوا من قبل البيع والشراء بِنَشَفان الدماغ، وتسببوا في الفُرْطَة، وعليه جَلْدهم وتهزيؤهم لعدم العودة، ومعاندة أمور السُلطة. وفي عصر نفس اليوم.. سحبوا "أَيْنَبَكْ"، سحبوا من كان أميرًا للجيوش. بلباس داخلي يغطّي عورته، ونصفه العُلوي عارٍ لا يغطّيه غير الشعر الكثيف على صدره، وأعلى كتفيه وذراعيه، وقد انكشفت صلعته الشّاسعة الخالية من الشعر. يداه موثقتان خلف ظهره، وأركبوه حمارًا يسير للأمام، ووجه "أينبك" اتجاه الوراء! حوله من الجانبين مماليك يشرعون الحراب، وعبيد ممسكين بالخيزران، ومنادين يصيحون..

- "هذا جزاء الخيانة. هذا جزاء من ضيّع الأمانة."

والنّاس على جانبي موكب الخزي فرحين مزأططين. عادوا للهتاف بما يهتفون به عند سقوط كلّ غز طاغ، وحاكم باغ.

- "لِك يوم يا ظالم."

- "يا ظالم لِك يوم."

- "حسبنا الله ونعم الوكيل."

ثمّ تبدأ الشتائم، خاصة بلعن أمّ المغضوب عليه، والمكروه من الرّعية المبتلية به وبأمثاله. وهذا واحد من الحكام الظالمين قد وقع، وأهين. واحد ممّن اغتنى بفقرهم، وتجبّر بذلّهم، ووجّهَ نفسه توجيهًا وهو في الأصل جاء عبدًا سفيهًا. مشت الزّفة حتّى وصلت إلى باب "زويلة". عَرُّوه من ملابسه تمامًا، ثمّ أعادوا تكتيفه، رابطين ساعديه بصدره، ضامين ساقيه ضمًا. جذع خشب مُثبّت في الأرض، ربطوا فيه نصفه العُلوي ربطًا مُحكمًا مُؤلمًا. "أيْنَبَكْ" الشمس تزغلل عينيه المنهمرتين بالدموع، فمه الفتوح، لعابه يسيل مع تأوّهات واسترحامات لا يأبه بها أحد. تبوّل على نفسه، فبلّل لباسه وسال بوله على ساقيه العاريين. انتبه لحظات لهتافات تجمّعات الرعية الشامتة فيه، والسّاخرة منه، والضاحكة عليه، علنًا بالأصالة عن نفسه، وخفْية بالنيابة عن كلّ الغُز ولاد الحَيّات. جموع في جوفها نار غِلْ إنّ انفجر يفِلّ الزرد، والحديد، والطّغيان الشديد، ويكسح أرسخ البنايات. حشود بنين وبنات تهلل، وتُكَبِّر، وتلعنه بأقسى، وأوسخ اللّعنات. يظهر

السيّاف الضخم بكرشه الفخم. يحمل سيفًا من طوله وضخامته، وكأنّه احتوى عدّة أسياف!

يحاول "أَيْنَبَكْ" الفلفصة وهو يرفص بساقيه رعبًا مما سيحيق به، لكنّ هيهات، فكلّ ما هو آت آت. ضربة صاعقة ساحقة شَهَقَ منها الهواء وَلْوَلَة. انقسم جسد "أَيْنَبَكْ" المِتين قسمين، ليتشنّج نصفه العلوي المربوط، وينكبّ نصفه السفلي. الرأس تحركت يمنة، ويسرة، والعين مندهشة نظرت لعيني السيّاف لحظة، ثمّ انطفأتا، ولم يسمع صيحات "الله أكبر" التي دَوَّت من الجموع الفرحة المرحة. مصارينه التي بقيت مع نصفها العلوي تدلّت كديدان حمراء ضخمة، ورفيعة تطرش الدماء. والمصارين التي من نصيبها أنّ تسقط من نصفه السّفلي الملقى أرضًا، سالت كتلة رجراجة خارجة، وأخذت تهتز كالبالوظة الحمراء تلمع تحت آشعة الشمس، والدّماء تندفع جديدة على دماء قديمة سُكِبت من قبل.

السّلطان الأمجد "بِنْبان"، باستشارة الداودار العجوز "كمال الدين"، رسم أمرًا لحفيظ السّلولي أنّ يحتاط على موجودات "أَيْنَبَكْ". فنزل "حفيظ" مع فرسان معه إلى قصر "أَيْنَبَكْ"، فأخذ أتباعه كلّ ما ظهر مما غلى ثمنه. وسُحب من إسطبلاته الخيول، والبغال، والحمير، والجمال، ثمّ ما أبقى على أذيّة لم يقترفها في حقّ عائلة "أَيْنَبَكْ". رسم بالقبض على زوجاته، وشامل حريمه، ومحظياته، وجميع حاشيته من كبيرٍ لصغير، ولم يترك أولاده. جرّهم جرًا مُتكتِّفين مذلولين إلى سجن القلعة في مشهد يسرّ خاطر كلّ كاره. وهناك أُعدّ لهم المعاصير فعصر كِعاب جماعة منهم،

وقرّرهم على الأموال والذخائر. فمنهم من باح بما يعرف من قبل سَحْق كعبيه، ومنهم من ادّعى الصّمود، فلمّا عُصِرَ عصرتين، وصرخ صرختين، باح بما يعرف، وبما لا يعرف. دَلّوا على سراديب، وأقبية خبئت فيها قوالب الذهب، وعناقيد، ومنثورات المجوهرات. ظهر من الأموال والتحف ما لم يسمع بمثله إنسيّ ولا جِنّي، وبذلك تمّ نهب جميع تركة "أَيْنَبَكْ" المنهوبة. لم يتركوا صامتًا ولا ناطقًا.

حمل نائب السلطنة "حفيظ السلولي" كلّ هذا إلى السّلطان، بعد أنّ احتبس بعض الجواهر له. والسّلطان وضع بعض شَيْ في الخزانة السلطنة، وأغلب الشَيْ ذهب إلى السّلطانة "شمس" التي حتّى هذا الوقت لا تصدّق أنّ زوجها واهي الفِهم صار سّلطانًا، وأنّ عشيقها زاهي الفِهم والذي كانت تتوقع منه السّؤدد، ما هو إلا نائب زوجها! و لم تمض ليلة إلّا وعلم السّلطان من الداودار أنّ الكثير من منقولات "أَيْنَبَكْ" تحفّظ عليها "حفيظ السلولي" من وراءِ ظهره، وبعضها ذهب بدون علمه إلى السّلطانة "شمس". وهذه أوّل شَكّةً يشُكّها الداودار في ظهر "السّلولي". سكت السّلطان و لم يُعَقّبْ، كما لم يُعَقّبْ من قبل على مثل هذه السّفاسف من اللّمم، وأيضا لن يعقب لسنوات آتيات على الكثير مما سيعلم.

وما كاد عسكر السّلطان يبتعد عن قصر "أَيْنَبَكْ"، حتّى هجم العامّة على القصر هجوم الجراد على الأخضر، فيجعله يابسًا. أخذوا كلّ ما بقِي من قماش، وأثاث، وسجاجيد، ومصابيح، وصيني، ونحاس، وفكوا النوافذ، واستخلصوا الزجاج، ثمّ استخلصوا الرّخام من السّلالم،

والممرّات، والحُجرات. ثمّ داروا على الحواصل، فنزعوا المواقد، وحِلل الطبيخ والكاسات. ثمّ مخازن الطعام من ناشف وطري، ودواليب الخمور. وهرولوا عائدين لبيوتهم الجحرية فرحين فرحة خبال، حملوا أثقالاً على الأكتاف، وعلى ظهور الحمير والجِمال. لكنّ المحظوظ الذي ليس مثله محظوظ، هو الذي رفع رخامة من غرفة نوم "أَيْنَبَكْ"، فوجد كيسًا مليئًا بالمجوهرات، والمشغولات الذهبية. فوضعه في عَبّه، وسار صامتًا متكتمًا، واختفى شهورًا، ثمّ ظهر وقد امتلك مركبين، وصوامع غلال، وسبحان مُغيّر الأحوال من حالٍ إلى حال.!

تمّ القبض على المملوك الطايش في جرجا الصّعيد، والذي لا كبيرًا هو، ولا صغيرًا، والذي هَيّج عددًا من المماليك الصّغار بقصد عمل غاغَة، فأتوا به، وقطعوا دماغَه، وكلّ من كان معه جابوا داغُه، ثمّ وهبوا عساكر الجيش مكافآت، فسكنوا، وسكتوا راضين مرضيين.

تحويشات بطانة السّلطان المهدور نُهبت نهبًا، واحتاط عليها بِطانة السّلطان الطازة "بِنْبان". وما العجب؟، فمن كثرة وقوع العجب في بر "مصر"، لم يعد العجب عجبًا، و لم يعد يندهش مدهوش! ألم تفعل بطانة السّلطان المهدور نفس الشيء في السّلطان الذي سبقه؟!، وما الحال الجاري سوى نَهب، وسلب، وطعن في الظهور، فصارت الحياة في برّ "مصر" تَعَسة بائسة يُفرّ منها لباطن القبور. الجديد أنَّ نسبة من النُّهوبات صارت مفروضة تتسلّل خِفية إلى السّلطانة "شمس"، وبعد فترة ما طالت، صارت علنًا تختال المفروضات إلى تحويشات السّلطانة! فغضب المماليك

غضبًا مكتومًا يتصاعد حسيسًا، ليس غضبا على حال السّلب، والنهّب، والاغتيالات الخسيسة، بل لأنّ السّلطانة طمعها، وجشعها تعدّى على حقوقهم، بدون حق ومعقولية سبب، فزاد عن حدود الأدب!

ثمّ كان في صباح يوم مشهود. موكب التدشين الشّعبي للسّلطان الأمجد "بِنْبان". زُيّنت له "ألقاهرة"، فهبط من القلعة على حصان أبيض كما الحليب، وعلى رأسه عِمامة سوداء، وعلى جسده الجبة السوداء. من الجانبين مملوكين على حصانين أَشْهبين، يحملان كلّ من ناحية جانبًا من القبّة الحرير الحمراء التي تُظلّل على السّلطان. وخلفه مملوك يحمل رنك السَلْطَنَة.. عصى طويلة مكسيَّة بالحرير الأحمر أعلاها تجسيد لصقرٍ شرس. خلفهم الأمراء، وكبار المماليك مُشاة على الأقدام احترامًا للسّلطان، بما فيهم الداودار العجوز، و"حفيظ السّلولي". خلف الأمراء ثُلّة من المشايخ يتقدّمهم قضاة المذاهب الأربعة السُنيّة، وخلفهم عدد من قسس النّصارى، وثلاثة من أحبار اليهود. ودقّت طبول الكوسات بشائر الموكب، وزمّرت المزامير أنواع من الزمّارات. الحرس السّلطاني على صهوات الخيول، ومشاة على الأقدام شاكي السلاح يحوطون الموكب السّلطاني المهيب، فلا أمان في هذا الزمان، زمن المماليك الثاني المضمحِل، فما بعد صعود أولي حقق أمجادًا بشخصياتٍ بأسها شدادًا، ها هو ينحدر في مستنقعات عَفَن، وهزائم وهادًا.

الموكب في شوارع القاهرة وقد تجمّع العامّة يتفرّجون، ويضجّون للسّلطان بالدّعاء الكاذب المعتاد. رَشَّ عليهم مملوك قِطع الفضّة،

والذهب، فتعالت الصيحات فرحة، وضجّوا بالدعاء الحقيقي. نادى المنادون من أمام الموكب وخلفه، نادوا باسم السّلطان الأمجد "بِنْبان" سّلطان مصر وتوابعها. وفي مكانِ معلوم فُرشت شقق الحرير على الأرض، ليدوسها موكب السّلطان وسط زغاريد الفتيات والنّسوان، وإن كُنّ حقيقة لم يعجبهنَّ شكله. لفّ الموكب لفّة، وعاد صاعدًا إلى القلعة قبل أنّ يشتد الحر.

قصر القلعة الأنيق.. القاعة السّلطانية وسبع درجات رُخامية يعلوها العرش. الأرضية مفروشة بالسّجاجيد الشيرازية اللّينة المضيئة بألوانها الزاهية، فلا أثر لدماءٍ ساحت، ولا يحسّ أحد بآلام، وصيحات، وغرغرات قَتلى وجرحى سقطوا في هذه القاعة مِرارًا وتكرارًا. فتربّع الأمجد "بِنْبان" على سرير المُلك، وباس له الأمراء الأرض مُجددًا، ثمّ جاء الدور على من يمثّلون ديانات مصر.. شيخ الأزهر، ومفتي الديار، وشيوخ المذاهب السُنية الأربعة، وكبار قسس النصّارى، وحبرين يمثّلان يهود مصر، وكبار التجار، ونقيبهم "عز الدين" كلّهم سجدوا أرضًا -كما فعل الأمراء-، وباسوا الأرض تحت وأمام عرش السّلطان "بِنْبان". السّلطان مبسوط غاية الانبساط، قلبه مسرور، وكِبَره زاط. "بِنْبان" مبهور غاية الانبهار بسرير مُلكٍ جاءه من حيث لا يَحتسب.

مماليك "شِنْدَرْ" الغادر المغدور، خاصة الشباب منهم، تولّوا أهم المناصب حولَ السّلطان الأمجد "بِنْبان". "حفيظ السّلولي" تولّى منصب نائب السلطنة، ونال قصر سيّده المغدور "شِنْدَرْ" بما فيه وبما حواليه، مُتخطيًا

من كانوا تحت "شِنْدَرْ" وكبارًا عليه، أُخذَ عليهم أنهّم وقت الزّنقة خافوا، ونادوا بالرجوع إلى القصر. وبعد شهور لم تزد ألحّ حتّى احتاط بموافقة السّلطان على نُص قرى الفلّاحين التي كانت تتبع "شِيندر"، والنص الثاني كان من نصيب "شمس". ومملوك منهم "ألباني"، بانَ أنّه مخلص بناء على كلام الداودار، فولّوه قيادة الحرس السّلطاني. ثمّ أنعم السّلطان بتقدّمه مئات وألوف على بعض المرضِي عنهم، فصار فيهم من يمتلك مائة مملوك تحت أمره، ومنهم من يمتلك ألف مملوك تحت قيادته، وأنعم على البعض بأمير طبلخانة، فصارت الطّبول تَدُّق له في كلّ تحركاته المهيبة. هذا ليضمن السّلطان أنّ حوله حاشية قوية راضية عنه، فتحميه من أيّ مخامرة تُرديه.

الداودار العقرب كان يأمل في تحقيق مطمح عمره.. تولِّي منصب نائب السّلطان! لكنّه تأكد أنّ السّلطان يريد صديقه وزميله "حفيظ السّلولي" نائبًا، وأنّ بقية الأقوياء ستؤيد "حفيظ". الداودار إنّ طلب منصب النائب السّلطاني سيكون وحده محصورًا، وبدلاً من أنّ يصمت عن المطالبة محسورًا، بادر رغم وجع قلبه، وصرير الغيظ والحسد في مصارينه.. بادر بنفسه المكسورة، وقال للسّلطان إنَّ خير من يكون نائبًا له هو صديقه، ورفيقه، وزميله الفارس الشجاع "حفيظ السلولي"! انبسط "حفيظ السلولي"، فطالب هو بدوره أنّ يبقي الداودار "كمال الدين" داودارًا، ومُستحفظانًا للقاهرة، لعلمه بخبايا البلاد، وخباثات الأمراء، فليس عنه استغناء. فهو الممسك بخيوط تحتية غير مرئية مع تكتّلات الأُمراء الكبار، المتولين مسئولية المقاطعات مثل "الإسكندرية"، و"دمياط"، و"جرجا"، وأيضًا أمراء "الشّام"، و"النوبة"، و"لوبيا". سعد السّلطان بالاختيارين،

فهذا بالفعل صديقه وزميله، ومن سانده للصعود والجلوس على العرش، رغم أنّه في قلبه جانب لا يستريح له.. جانب علاقته القديمة بزوجته "شمس". وسعد باختيار "كمال الدين"، فقد أحبّ هذا الأمير العجوز من لحظة أنّ ناداه بأنه السّلطان الأمجد "بِنْبان"! كم يروقه هذا اللّقب.. السّلطان الأمجد "بِنْبان"! إنّ هذا الداودار المستحفظان لأريب لبيب من القلب قريب، وإن قالوا عنه "عقرب".

حسب مشورة العارف بالأمور الأمير "كمال الدين" الدّاودار، تمّ تخطية الأمير "عثمان أغا" وهو نائب أمير الجيوش السّابق، وكان قد ترقّى إلى أمير ألف، وصار تحت إمرته ألف مملوك مقاتل، وله تربيطات ومصلحات علنية، وخفية مع أمراء مماليك. وحجّة "كمال الدين" لتخطية "عثمان أغا"، أنّ "لأغا" زمالة قديمة بأمير الجيوش المقتول "أَيْنَبَكْ"، و"عثمان أغا" إنّ لم يكن قريبًا من السّلطان المهدور، فهو لم يكن بعيدًا عن صحبة السّلطان بالرضاءات المطمئنة فيتّقي كلاهما شر الآخر. حقيقة "كمال الدين" يعمل ألف حساب لذكاء، وجنوح، وحذر، وطموح "عثمان أغا". لذا استبعده وأتى بأقوى أقوياء أمراء الشام، الأمير "اليوسفي" أمير حلب أغنى الإمارات. ليتولّى منصب أمير الجيوش المصرية، فهو لم يكن من توابع السّلطان المهدور، بل كانت بينهما وَحشَة، ولم يستطع السّلطان القتيل أنّ يعمل في الأمير "اليوسفي" أمورًا وِحْشَة، فولّاه إمارة في "حَلب" الغنية، ليرضى فيكون الخصام من بعيد لبعيد، بدون حلو كلام، أو صِدق سلام. ثمّ إنّ بين "كمال الدين"، و"اليوسفي" حُسن تفاهم، وعُمق تناغم. يعني أنّ أغلب تخطيطات "كمال الدين" نُفِّذت،

لهما عدا ما كان يخطّط لنفسه، لذا العقرب لم يغفر، ولن يغفر أبدًا أنّ "حفيظ السلولي" نال المنصب الذي كان يأمل فيه.. نائب السلطنة، فبقى متربصًا بالسلولي، ونار في البطن مشتعلة حتّى وجد الفرصة فتقيًأ ناره التي في المصارين على "السلولي"، فحرقه حرقًا.

وإن كان الداودار مُغتاظًا كلّ هذا الغيظ من "السلولي"، فإنّ هناك الكثيرين ممّن هم مغتاظين من الداودار، ويعملون على يوم ينتقمون فيه منه، ويُفشون غيظهم، وأهمّ وأخطر هؤلاء المغتاظين هو الأمير "عثمان أغا"، الذي كان يتطلّع لإمارة الجيوش المصرية، ويعلم أنّ الذي وقف في طريقه مرتين هو الداودار الخبيث "كمال الدين". فبقي هو أيضًا مُتربصًا بالداودار، والداودار يتربّص للسلولي، و"السلولي" يتربص باليوسفي المنافس له في الوسامة، ويمتلك إمارة الجيش، واحتمال أنّ يكون سّلطانًا احتمال كبير. و"اليوسفي" يتعالى على "حفيظ"، ويكرهه، ويحتقر "عثمان أغا"! حاشية السّلطان فيها الضغائن فاشية. لعبة كراهية علانية، ومخفيّة تدور بينهم. فلان يتربّص بعلاّن، والأغلب يَتَحَيّن على السّلطان، والكل يرصّ العراقيل، ويبثّ الأقاويل على الكلّ، وكلّ الكل ينهب في البلد، ويهد كلّ ما يتم بناؤه من تصاعدات صنعات، ومشغولات، وتجارات، فصارت البلد كالرّحى معدومة الغَلّة التي تطحن نفسها، حتّى داخت، وباخت، وشاخت، فارتخت لتكون مطمعًا لغزو الفرنجة والرّعاة.

في ليلٍ ساكن في قصر هادئ، تقابلا.. "كمال الدين"، "وعز الدين". فكان العتاَب من "عز"، والدفاع من "كمال". اتفقنا على اغتيال "شندر"،

لكنّ لم نتفق على مقتل السّلطان المهدور ولا أنّ يتولّى "بِنْبان" السلطنة! فشرح "كمال" أنّ "بِنْبان" ثور هائج، فَعَلَ بدون عقل مالا يفعله أعقل عاقل. والعقل الآن.. أنّ نستغلّه أحسن استغلال، فلا هو عنده عدل السّلطان المعدول، ولا بقيةِ عقل مما كان عند السّلطان المهدور. والحاشية الجديدة ليس فيها من هو أُلعبان يظهر علينا وبيان، فكلّهم درجات من الفهم، وفي الحقيقة لا يختلفون إلا قليلاً عن بطء مفهومية سّلطانهم "بِنْبان". و"عثمان أغا" الخطير، والخبير في اللّعب والتخمير، الذي يكرهنا، ونكرهه أبعدته، وجئت من "حلب" باليوسفي، وهو ليس ضدّنا، وسأراضيه، وأحويه؛ ليكون في خلال شهور تَبَعْنا. ومكانه أرسلنا، ووضعنا من هو معنا، وفي "النوبة" الذي معنا في مكانه، والشيوخ الراضيين المرضيين مازالوا في أماكنهم، و لم يدخل بينهم من هو برقبة مملحة، ونفس مزبلحة. والأهمّ يا "عز الدين".. كبير العسس من أتباعي، وهو من مريديك، وخيره من هباتك ووصلاتك. ينقصنا فقط أنّ أثب على مقعد نائب السّلطان، وسيكون، إنّ لم يكن اليوم فغدًا. "حفيظ السلوليَ" خائب، ولا يعنيه إلا المظاهر العدمانة، والنسوان، واحتضان السّلطانة. فلنترك "بِنْبان" وحاشيته في الواجهة يتلقّون الضربات واللعنات، ونحن في الخلفية نستكثر من الخيرات، ثمّ نتولّى الأمور.

وبعد أنّ عُزِلَ من عُزِلَ، ووُلّي من وُلّي، بدأ عهد السّلطان الأمجد "بِنْبان"، والذي هو من سلالة غير معروفة، فكتب عنه الكَتَبَة نفاقًا، فقالت جماعة من تدّعي أنّها سلالة الأشراف، أنّ الأمجد "بِنْبان" يستحقّ

عرش السلطنة لنبل أرومته، فهو من سلالة الرّسول "محمد" -عليه الصّلاة والسّلام-، أكدت مقسمة ثلاث أنّه حقًّا، وبحقيق من سلالة نقية، أبيّة عَلية، ليست فقط من شبه جزيرة العرب، بل وأيم اللـه من قريش! ومن صُلب "الرسول" ذات نفسه! وكتبت بذلك مكتوبًا، وختمته، وصعدت به في مسيرة بالزمر والطبل إلى القلعة، وسلّمته للداودار!.

ورغم أنَّ المماليك تدرّبوا على الفروسية تدريبًا هائلاً، فلم يأخذوا إلا قسطًا ضئيلاً من تعلّم الأبجدية، والتعمّق في المفهومية. ورغم ذلك فقد أعلن قاضي القضاة واسع البطن، معدوم الذمَّة، أنّه ما رأى، ولا سمع بأحسن من فهم السّلطان الأمجد "بِنْبان"، ولَقد كنتُ أحضر بالمراسيم للعلاّمة، فما كان يعلّم على مرسوم قط إلا وقرأه جميعه، ويفهم ما فيه، بل وكان يخرج علينا بأشياء كثيرة في صنعة الإنشاء، ونرى فيها الصّواب منه، ولقد تعاظم في أمره، حتّى أنّه يضيف لنا من الكلمات كلّ جديد، ويطلب منّا أنّ نكتب بالمختصر المفيد، ويرفض الإطناب في القول؛ لأنّه ترهُل غير حميد. ويراجع كلّ الحسابات، ويضيف، ويصحّح كلّ الأمور بعقله الحاوي للعلوم، ولكلّ مفهوم! اللـه اللـه اللـه.!!!

ونفس هؤلاء الكتبة المداهنين للسّلطان الحالي، تناسَوا ما أطنبوه، وزوَّقوه عن السّلطان المائل من قبل، وما رصّوه من بحور المدائح، وأنه خير صالح، فكتبوا عنه بعد جندلته كسّلطان مهدور.. إنّه -لعنة اللـه عليه- أفنى غالب عمره في تحصيل الدّنيا، والمغالاة في الرفاهية، واقتناء كلّ مرغوب للنفس، وشراء الجواري، والعبيد، والحبوش، والخصيان،

والتأنقّ في المأكل والمشارب، والملابس، واستخراج الأدهان، والعطريات، والمركبات المفرحة، والمنعشة للقوة، وتعاظم في نفسه، وتعالى على أبناء جنسه. وظلم العباد، ونسي المعبود فهو في النار حطب ووقود.!

وهكذا يفعل المنافقون التابعون لكلّ من يتولى الأمور في كلّ الدهور.

4

اللّي يعيش ياما يشوف، واللّي يِلِفْ يشوف أكتر..

الجارية الصّغيرة صارت سّلطانة! رفضت لقب "خاتون" رغم عظمته، وأصرّت أنّها السّلطانة فكانت السّلطانة. انتقلت من مبنى ضيق هي وطفلتها الجميلة "قمر"، ومخلوق مازال يتململ في رحمها، وطموحات تأجّجت في نفسها. انتقلت إلى القلعة الحاكمة، لتسكن في قصر الأبّهة الملحق بالقلعة العالية المربعة. "شمس" التي كانت مسحوقة جوعانة، غلبانة من سلالة غلابة صارت سّلطانة! وسّلطانة على أيّ بلد؟ سّلطانة على كلّ برّ مصر!! سّلطانة ليس لشهر أو شهرين، أو سنة سنتين، بل لسنوات طالت، رغم ألاّ عاقل كان يقول إنّ حكم السّلطان "بِنْبان"، والسّلطانة "شمس" يمكن أنّ يطول عن فيضان نيلين أو ثلاثة على الأكثر.

"شمس" خسارتها الوحيدة الجديدة، أنّ لقاءاتها اللذيذة بـ"حفيظ السلولي" صارت عزيزة. فرغم أنّ مخابئ العشّاق داخل القلعة أغزر، وأكثر ممّا كان في قصر "شندر" الذي صار قصر "حفيظ السّلولي"، إلاّ لكونها سّلطانة، فالأعين عليها محطوطة، وغالب خُطواتها مرصودة. ثمّ لا أسرار في قصور مترعة بالجواري المكبوتات، والعبيد المحرومين، لا أسرار في قصور محشوّة بالخصيان المذلولين، والكارهين لكلّ ذَكَرٍ تباهى، ونفْسه تَوَرَمِتْ، ولكلّ أُنثى تزاهت فتبخترت، ولا يهمّهم صونَ كرامة الغير، مادامت كرامتهم تبحترت. والقلعة ليست مثل قصر "شِنْدَرْ" الذي أواهما في البداية..

القلعة مبنى ضخم مُحاط بأسوار منيعة، وأبراج حصينة، وأبواب متينة. القلعة بها الصّالات، والممرّات، وعنابر الجنود، وأماكن مناماتهم، ومخازن السلاح، ومخازن صغيرة موقّتة للطعام والشراب، والعديد من الشّرفات. وفي أركانها بيوت كالقصور الصّغيرة مُخصّصة لكبار القوّاد في الحرس السّلطاني. وفيها مبنى مُتّصل منفصل هائل هو القصر الحاوي لمنام السّلطان، والسّلطانة، والجواري، والعبيد، وصالات الفرحة، حيث تقام حفلات الأغاني، والرقص والذي منّه، وتلك الصّالات استغلتها "شمس" حيث تعطي ما يفيض به جسدها من عشقٍ للرقص، ومتابعة الراقصين والمغنين.

وحول هذا المبنى العتيد حتّى الأسوار التي ما بين مرتفعة، وأكثر ارتفاعًا.. مساحات متعددة هائلة، وطرق، وتلال مرتفعة، ومنخفضات مختبئة. وأشجار متنوّعة، وحديقة مخضرّة بالزهور مترعة. وفي ركن

حظيرة الخيول، والحمير، والمواشي، ومخازن أساسية للطعام، وبيوت منها المنفصل، ومنها المتصل مُخصّصة للعبيد والخدم. ثمّ جانب ينتهي فيه سور مجرى العيون الذي يبدأ من "النيّل" حيث الساقية الضخمة التي تصب الماء أعلى السّور العالي، لتجري المياه حتّى نهاية السور الذي ينحدر بليونة، ليصبّ مياهه الرائقة في حوض ضخم. وفي جانب آخر بئر صغيرة للمياه التي كانت صالحة، ثمّ من كثرة الاستخدام صارت مياهًا صالحةً فقط للغسيل والتنظيف. في هذه المساحة الممدودة، توجد أماكن يختلي فيها العشّاق من أعين العذّال، وأركان يتلاقى فيها جاسوس بجاسوس، فيتبادلا الأسرار. أمّا داخل جدران القلعة والقصر، فالآذان أضعاف تتنصّت، ولا تهرب منها كلمة، ولا يختبئ حرف، وكأنَّ مصابيحها وثُريّاتها كلّ منها عيون تراقب وترصّد، ومئات من الألسنة لا تكفّ عن النميمة، وإطلاق الشائعات الفاقعات، وفضح المخبوءات. حتّى ما يجري من لقاءات جنسية. وتسافر تلك العسسات، وتصل حتّى لمجَسّات الأمراء خارج برٍ مصر! وإن أبدلا "شمس"، و"حفيظ" أماكن لقاءاتهما التكتمية، فهي عند البعض علنية، خاصة عيونِ العسس الذكور منهم، والإناث المتخصّصة المتلصّصة. وعليه قيل.. "اللِّي يتدارى في القلعة عِريان.!"

الأمراء من حول السّلطان يعلمون علم اليقين، أنَّ السّلطان الجسيم القبيح، أغبى من السّلطان السّابق. وإن كان السّلطان الحالي قد أنزل البلطة على السابق، فكاد يشطره نصفين، فالسّلطان الحالي سوف يثب عليه مملوك آخر ويقتله، فالقاتل في عُرفهم مقتول، ولو بعد حين. فمن الذي يسبق ويقتله، ويجلس على عرش مصر؟. هل الأمير الداودار "كمال

الدين"؟ هل يتناسى العقرب حُلمه بأنّ يصير نائب السّلطان، ويتشوّق ليكون السّلطان ذاته؟، أم الأمير "اليوسفي" الذي صار أمير الجيوش؟، أم مماليك "أَيْبَكْ" المجروس الموسوط المتحرّقين ليوم ينتقمون فيه لسيدهم؟، أم ربّما تأتي شقلبة السّلطان من داخله؟. وإن كانت الشقلبة من داخله، فهل ستكون من نصيب نائب السّلطنة زميل وصديق السّلطان "حفيظ السلولي" الألعبان، والذي هو في نفس الوقت عشيق زوجته الرّائعة شمس؟! لا مخلوق يعلم، الذي يعلم هو عالم الغيب العليم الغفور، والذي كتب كلّ الحوادث في كتابه المسطور.

اكتشف سّلطان البلاد الأمجد "بِنْبان" أنّه وهو السّلطان، لا يسيطر حقيقة على مُجريات الأمور! الداودار "كمال الدين" هو المحرّك الأساسي بالتفاهم مع نائب السلطنة "حفيظ السلولي"، والأمير "اليوسفي" أمير الجيوش!، وكلّما جلس في جمعية مشورة، يجد نفسه لا يفهم في القضايا، ولا يستطيع أنّ يُحلّل مع المحلّلين، ولا أنّ يُخطّط مع المخطّطين. فتؤخذ القرارات من الثلاثة، وما عليه إلاّ أنّ يختم الجمعية قائلاً..

– "تمام. تمام ما تقولونه أمراء كبار. أنا موافق. نفّذوا قرارات أمراء تمام.!"

يأتيه الورق ليوقّع عليه، ثمّ يبصمون بالطير الصّقري "شعار السّلطنة". وكان من أوائل ما وقّع عليه، وصار يفتخر به طوال حياته، وحتّى مماته.. أنّه بناء على ما وصلهم عن وقوع الغلاء العظيم بمكّة المشرفة، أمر أنّ يُبعث فورًا باثني عشر ألف أردبًا من القمح، لتفرّق على فقراء ومساكين "مكّة المشرفة والمدينة الشريفة. وإبطال كلّ ما يؤخذ من المكوس على الحُجّاج،

وأنّه يعوض "الشريف" أمير "مكة" عن تلك الملمة بقطائع بمصر يُرسل له ريعها كلّ سنة؛ ليستغلهّ فيما يراه من صالح أهل "مكة"، والمدينة الكرام.

وفي قصره الخاص زوجته السّلطانة تُدير الشئون، وهو عليه أنّ يهزّ رأسه موافقًا على كلّ ما تقوله "شمس"! فإن تلامض، تسأله.. "قل لنا ماذا نفعل يا سّلطان؟!" تقولها بسخرية. فيحتار، ويحتار، ويحتار، ولا يجد مخرجًا.. فيقول..

- "تمام. تمام كلام تمام "شمس". أنا موافق. نفّذي كلام زوجة مصون."

وله أنّ يحضر الحفلات التي تقيمها "شمس" في جناحها. يأتون لها بأحلى الرّاقصات، وأندى المطربين والمطربات. ترقص هي رقصاتها الخاصّة ببلاد السّهول الثلجية، والبحيرة البحر، مُحاولة تلفيق خطواتها، ولفتاتها مع السائد في برّ "مصر". لا تنجح رغم أنّ الكلّ يُبدي الاستحسان، والكلّ يُصفّق مدّعيًا الانسجام. وللسّلطان "بِنْبان" أنّ يتريّض، وحوله الحرس في الجناين، وفي الصّحاري بامتداداتها الرمّلية. له أنّ ينزل أمام القلعة في ساحة الرمِيلة. وعلى فرسه مع بعض المماليك على أحصنتهم، فيقود لعبة ضرب الكرَة بالعصي الطويلة. له أنّه كلّ يومين يلبس "حربي"، ويهبط على حصانه يرمح به في أفنية القلعة وممرّاتها الواسعة. يضرب بسيفه هنا وهناك وكأنّه في حلبة قتال، ثمّ يهبط من فرسه، ليمسك بسيف تدريب بدون حد، ويقاتل عددًا من المماليك الشّباب، فيطيح بهم كأنّهم ذباب، ويبين للجميع أنّه المقاتل الشرس الذي لا يجاريه فارس. له أنّ يعقد أمسيات وَنَسات مع أصدقائه، ورفاق الصِّبى خاصة "حفيظ السّلولي"!.

حفيظ الذي لا بدّ منه، ولا غِنى عنه رغم سوسة القلَق التي أحيانًا ما تُخَرْبِشه في الحشا، فيكاد أحيانًا أنّ يعلن ما بداخله من شكٍ لولا الخَشَى. أيقول لصديق العمر أنّه يَشُك في علاقة قديمة بينه وبين زوجته؟! له إنّ أراد محظيات مِمنّ ملكت يداه يؤانسنه، و"شمس" لا تمانع أنّ يأتي بأجساد حريم يُفَرْفِشنه، لكنّ زواج لا، حتّى لا ينجب من ضرّتها من ينافسون من أنجبتها، ومن ستنجبهم في الثروة والسلطة. فكان ما يَفِشْ ضيقه ثلاثة أمور ليس لهم رابع.. تنويعات من الطّعام تأتيه، إيشي لحوم ضأن، وجاموس، وماعز، وطيور، وإيشي طبيخ بأسلوب مصري، وما هو بطرِيقة شامي، وما هو بتسبيكات تركي، ولم يتركوا له الفتّة البدوية ولا الكسكسي المغربي، بهارات هندية وشطيطة سوداني وأبخرة يمنية. والحلو فاكهة البلدان التي تحت إمرته قريبة وبعيدة، فالتجّار كفيلون بإحضار العجيب، والغريب. وطباخ مخصوص يُصنّع شتّى تشكيلات الفالوذج. وثانيًا أنواع المشروبات الهادئة والمُسكرة. وثالثًا جارية حبشية شابّة رشيقة كالغاب سريعة الالتهاب. فحين يلجها، تتراقص وتتلعبط كسمكة أُخرجت من المياه تَوّا، أصواتها مضحكة لكنّها أصليَّة وليست تشخيصًا للترضيَّة، فكانت الأثيْرة لديه. معها يشعر أنّه يقبض على الأمور باقتدار، يختار الوضع كما يَبغي ويَودّ. لا تعارضه ولا حتّى تناقشه. فليكن السّلطان فوقها.. تحتها.. جنبها.. أو حتّى وهما واقفان. وقتها السّلطان يتسلطن بجد وبدون حد. حينها يشعر أنّ الأمور تحت أمره يأمر فيها، ويختار ولا يحتار.

أما "شمس"، فهي التي تطلبه في أوقاتٍ هي تعرفها، وهو بعد سنوات

عرفها. "شمس" لا تريد مزيدًا من الخِلفة منه! ولما امتلك شجاعته بعد **سنوات** إضافية، وواجهها بما اكتشفه، لم تنكر ما عَرفَه، لكنّ حجّتها **أقنعته**، أوِ هكذا أقنع نفسه بأنه اقتنع.. تزرف الدموع من عينين ساحرتين **تُلين** بأس السّباع، وصوتها الهامس مُحمَّل بِطلاء الخنوع، تتحجّج بحادث **موت** طفلها الذي ضربها في قلبها، وسقوط حملها الثّالث الذي زعزع **كُلها**، ولا تريد أنّ تفقد ابنًا أو بنتًا أخرى. وابنتها "قمر"، وعيبها المخزي **الذي** تجسّدَ عَيانًا بَيانًا، ففضحت نفسها، وفضحتهما معًا، فهل تريد يا **سّلطان** البلاد بَلْوَة ثالثة؟! سكت "بِنْبان" وقنع ورضي رغمًا عنه.

وهكذا تمرّ سنوات حكم السّلطان الأمجد "بِنْبان" على دي الحال: سّلطان محكوم من داخله وخارجه، وخوف الانقلابات يحاصره. حوله مماليك وأغوات يتقاتلون، ويتناحرون، ويمتلكون والبلاد تنهار أكثر وأكثر، ورِعيّة هي صاحبة البلاد، ومن المفترض أنّ تكون هي صاحبة الشّأن، لكنها رضيت إلى حين أنّ تكون مجرّد شخوص عَبيدية عند حُكّامهم العبيد!

5

حين وضعت "شمس" ما في بطنها قبل أنّ تكون سّلطانة، كانت رضيعة ورثت فتنة أمها، وجدّتها، فأطلقت عليها اسم "قمر". تستمرّ "شمس" فيما تفعله مع زوجها القبيح، له أيام الأمان ينكحها حيث لا تَبَعَات، ولعشيقها أيام تفجّر النطفات. الحَبْلة الثانية قرّرت إسقاط حملها. تشكّ أنّ من في بطنها ليس من "حفيظ السّلولي". بعد إسقاطها الجنين بقيت شهرًا وبعض شهر عيّانة تعبانة. ثمّ عادت لحيويتها سعيدة بنجاحها، وعادت لأحضان "حفيظ السلولي"، لكنّ في لقاءات مُحتاط لها غاية الحيطة. وحين يزورهم "حفيظ" أو حين اللقاء في أيّ حفلة، لا تحتاج لإطفاء أو مداراة نظرات عاشقة، فهي أصلاً ليست عاشقة. فـ"حفيظ" ما هو إلا ذَكَرٍ يُؤدّي لها مُهمّة، وهو في حد نفسه غير مُهم. فمن متى وهي تأمن لرجلٍ أو تصدّق من يقول لها إنّه عاشق؟! مبدأ أساسي من أساسياتها.. لا ثقة في ذكران، ولا في نسوان. لذلك يطمئن زوج الغفلة قليلاً، فمن الواضح حتّى له،

أنّ "شمس" لا تهوَى "حفيظ"، ولا تحمل أيّ عشق له.

يهيج عليها زوجها ليلة وهو سكران وفي حالة فوران. يحتضنها، ويمسك بأمورها وهي تقاوم متألّمة، ثمّ تفور هي الأخرى، وتخور، وترقد مستسلمة. وليلة كانت لزوجها أيضًا، لكنّها قلقة من حساب فترة الأمان. الحَبْلة الثالثة حَبْلة مقلقة. قالت أُسقط الجنين. بدأت بالأعشاب، ثمّ إدخال عود ملوخية في نفسها، كررت القفز من سريرها على الأرض بالضّرب على بطنها، كلّ محاولاتها لم تجدي. النتيجة إنجاب فتاة صورة طبق الأصل من سِحنة أبيها وقوّة جسده. ومثله أيضًا مندفعة، لكنّ اندفاعها انكسر لما وعَت أنّها منبوذة من أمّها التي قالت لها صريحة إنّها قبيحة، فانطوت مستسلمة للقدر والكدر، خاصةً لما سطع جمال أختها الكبرى "قمر"، وتفجّر.

شمس حتّى لم تختر لها اسمًا -كما اختارت اسم "قمر" لمن سبقتها، فأطلق عليها أبوها اسم "هناء". فكانت "هناء" تسخر من اسمها الذي لم تنل منه إلا الاسم! السّلطانة "شمس" لم ترضَ عن "هناء"، و لم تُعرها اهتمامًا، وكأنّ تلك الفتاة ليست ابنتها تمامًا. ومع كَرْ الأيام أسقطتها من حياتها، وحذفتها من تخطيطاتها، وتردّ "هناء" على أمها بنفس المعيار، فأسقطتها سنوات طويلة من حياتها، بعدما تم تزويجها من مملوك له نصف قيمة، فكانت معه في "الإسكندرية" مقيمة. لكنّ "هناء" كما ورثت عن أبيها تهافت الجمال، ورثت عنه أيضًا طيبة الحال، لذا وقت أنّ احتاجتها أمها القاسية، نسيت "هناء"آلامها، وأظهرت طيبتها ونُبْل طَيَّتها، وأقدمت

على محاولة أخيرة، لتصل لحبّ الأم وإعجابها، لكنّ وجدت السرّاب.

سنوات وانتفخت بحَبْلَتها الرّابعة، والنافخ هو "حفيظ السّلولي"، وضعت "شمس" ذكرًا أطلقت عليه اسم "صُبيح". صُبيح أتى فرحة إضافية بعد فرحة "شمس" بقمر. و لم تَعمُر فرحتها وفرحة زوجها به طويلاً، فبعد مولده بصحّة تامة، وبصورةٍ جميلة، صحّته مع الأيام لم تعد على ما يُرام. أرجأت "شمس" فطام "صُبيح" حتّى وصل إلى السنة الثالثة من عمره، وتوافق فطامه مع بداية السّنة العاشرة من حُكم السّلطان الأمجد "بِنْبان"، وعليه حاشية السّلطان "بِنْبان" خاصة نائبه "حفيظ السلولي"، قرّرت أنّ يكون نهار ختان ابنه "صُبيح" من صباح اليوم لصباح اليوم التالي، في احتفال لم يكن من قبل، ولن يكون من بعد. في اليوم السّابق للاحتفال، هبط السّلطان على فرسه ومعه كوكبة من الأمراء، والفرسان، وعلى الجانبين تُسرع بجوار الخيول مجموعة من العبيد السّود حاملين العصيّ لحفظ النظام. وخلف الموكب ضاربو الطبابيل، ونافخو المزامير على الخيول يعزفون في أُبهّة ودلال. السّلطان نازل من القلعة ليشاهد بداية بناء سبيل مياه جديد للغلابة، ومن هناك ليشاهد استكمال السّبيل المخصّص للمواشي في أكبر سوق لبيع وشراء الأبقار، والجواميس، والحِملان، والمعيز. لكنّه لم يسمع عن الخباثة التي سرت بين العامّة ووصلت للخاصة.. أطلقوا على سبيل المواشي "سبيل الأمجد بِنْبان"! رابطين بين السّلطان والمواشي! فقد وصلت لهم سذاجته، وضعف حالته رغم جسامة جِتّتُه!

رَسَمَ السّلطان للأمراء، والجند، والرعَيّة، أنّ كلّ من كان له ولد في

سنّ الختان، يطلع به إلى القلعة، فسيكون ختانه مع ختان ابن السّلطان، فياله من شرفٍ رفيع لعالي المقام والوضيع. فطلع الناس من كلّ فج قاهريّ بأولادهم إلى القلعة، واختلط الحابل بالنابل ما بين أمراء عظامٍ، وأمراء صغار، وأولاد النّاس، وأعيان الناس من كبار التجار، وانحشر بينهم صغار التجار والكثير من الغلابة العوام، فبلغ عددهم بما لا يقل عن مائة ولد وكلّ ولد معه والديه، وربّما أخواله وأعمامه، ومن دخل وسط الزيطة، وليس له ولد يُختن، بل غرضه الانحشار في المَهْيَصَة، وحشر بطنه بمأكل ومشرب لغيره مخصّصة، وربّما كسوة يتلقّفها خلسة مثل أي قطة عدمانة متلصصة! ورسم السّلطان لكلّ ولد من أولاد الخاصة الذين سيُختنوا بكسوة مُعتبَرة، محترمة على قدر مقام أبيه.

أمّا أولاد العوام من الغلابة، فرسم لكلٍ منهم بكسوة على قد الحال، ووزنة لحم، ومائة درهم حلال. وحضر إلىّ الأبواب الشريفة لقصر القلعة، وإلى "الإسكندرية ودمياط وجرجا الصعيد". هذا نهار الهيصة والكلّ مُشْرِق بالفرحة، سواء فرحة التقرّب من السّلطان، أو فرحة بالمنحة الكريمة. والسّلطان وإن صرف الكثير من بيت المال، فقد أتته الهدايا الكثيرة من أعيان المسلمين، والنّصارى واليهود والأكابر والتجار، خاصة هدايا نقيب التجار "عز الدين" الذي أتى بأكياس الذّهب، ومشغولات الذّهب، والفضّة والحرير وجوهرة رمّانة لشمس السّلطانة. والهدايا لا تدخل في بيت المال، بل تدخل قصر السّلطان، والسّلطانة.

لعِليّة القوم مُدت الأسمطة الحافلة بلحوم مُنوعة، ومشاريب ملوّنة،

ومنعنعة. الكلّ في أبهى ملبس وأفخمه. فكان لقاء ابتسامات، وضحكات وأحضان، وقبلات، مهما كان في الحشا حسرات، وفي البال أمنيات سهات لمن يبتسم ويضحك. الأمير "عثمان أغا" يحتضن "اليوسفي" أمير الجيوش، والداودار يحتضن نائب السلطنة "حفيظ السلولي"، والكل يصرّ على التقرّب من السّلطان الأمجد "بِنْبان"، ليُشعره، ويُشعر منافسيه أنّه الأقرب للسّلطان. وفي فسحة الحريم تجمّعات لا تقلّ خباثة، بذخ الملبس، وثِقْل العطور وبهرجة الذّهب والجواهر. النّفاق والخباثة. منهنّ من نلن لقب "خاتون"، ومنهنّ من نالت لقب "خوند"، وكلّ تتباهى بما نالت، وبما وصل إليه بعلها المملوكي. خلعن الأثواب الفضفاضة المسدّلة، وبقين الملابس الحريرية التي تكشف، وتشفّ أكثر مما تغطّي، وتخفي، لتلمع أبدانهنّ البيضاء الناصعة، وتنسكب جدائل شعرهنّ على الظهر والصّدور الشبعانة، وتفوح العطور السكرانة وسط جلجلة الضحكات وحُلو الكلمات، لتغطّي ما تحتها من سوءات مسالك، وأمنيات مهالك، وما تحت القشور أقلّه طيب، وأكثره غير ذلك. "غُزلان" وقد نالت لقب "خاتون"، وصارت أكثر بياضًا وأكثر امتلاءً، تُبَيِّن لمن حولها كمّ سعادتها، وتخفي عنهنّ كم حِقدها التي تظنّه مستترًا. أخذت "غُزلان" خُطوات محسوبات، لترجرج ثدييها فخرًا بهما، وبمؤخّرتها ذات الوزن، تتجه للسّلطانة "شمس"، لتغيظها بجسدها الوافر، والذي يعجب الرّجال ويُلهبهم. تحتضن "شمس" لتحسّسها ببدنها الزاخر. وقالت لها كلمتين نحيفتين عجفاويتين. وافترقا.. فهذه تعلم أنّ تلك عشيقة زوجها، وتلك تعلم أنّ هذه تكرهها كُره العَمَى!

والعامّة في ساحة أجلسوهم دوائر خمسات خمسات، العديد من العبيد يأتون. كلّ منهم يحمل قصعة فتة يعلوها خمسة قطع لحم كبيرة، يضعون وسط كلّ مجموعة قصعة. ثمّ يمرّسون عليهم بكيزان الشربات. من يعمل من العامّة حَنْكَشَة، وسيتسبب في فَرْكَشَة، ينال خرزانة تُعلّمه الأدب. ثمّ كان ختان الأولاد بالصفّ. ثلاثين حلّاقًا أتوا بهم ليقوموا بالمهمة. ولأنَّ الحلاقين مقامات، فأهمهم نقيب الحلّاقين، واثنان من مساعديه يتولّون ابن السّلطان، وأبناء الأمراء الكبار، والمماليك الصّغار، والباقين في الساحة البعيدة ليختنوا أبناء الصّعاليك. فكان يومًا بهيجًا بحقّ وحقيق، رغم صريخ الأطفال عند القطع الدّقيق. وبعد تصريف العامّة، والليل أخذ راحته قليلا. السّلطان متربّع، وعلى يمينه "السّلولي"، وعلى يساره الداودار "كمال الدين"، ثمّ "اليوسفي"، و"عثمان أغا"، وعدد من الأمراء، ثمّ كبار رجال الدين، وكبار التجار، في صدارتهم "عز الدين". أمامهما السّماط الحاوي على كلّ ما لذّ وطاب، والأبخرة المترعة بنسائم اللّحم المشوي، والمحمرّ عبأت الفسحة الواسعة، مضاف بجانبها كلّ أنواع اللّحوم، والطيور، والأسماك، غير الخضار والسلطات ونثرات من الطرشي.

المماليك حول الطعام ينتظرون أنّ يمدّ السّلطان يده، ليبدأ بسم الله. قال السّلطان "بِنْبان" بسم الله.. فأمسك "الداودار" يده ونظر خلفه، ونادى على الجاشنكير المتخصّص في تذوّق الطعام قبل أنّ يتناوله السّلطان. تعجب السّلطان.. فالطعام على المشاع، وقد قام أحد عبيد

السّلطان بانتقاء ما سيأكله السّلطان بنفسه! تقدّم "الجاشنكير" بطبق صغير، وتناول قطعًا صغيرة من كلّ ما أمام السّلطان. وقف جانبًا يأكل في هدوء. انتظر السّلطان ومن حوله، وانشغلوا في حديث شيّق وابتسامات في حالة تبدو صداقية سامية. وإذا بالجاشنكير تجحظ عيناه، ويسقط الطبق المحمّل بالطعام من يديه، فينكسر في صوت مكتوم؛ لكنّه كصوت رعد الموت عند سامعيه. يمسك ببطنه، ثمّ يقعى، ثمّ يتمدد أرضًا، ويتلوّى مُولولا وهو يطرش ما أكله. قام الجميع بعيدًا عن الطعام المسموم مرعوبين. وانقلبت البهجة لفزعة. في سرعة أمر الداودار الحرس السّلطاني بأخذ السّلطان بعيدًا. "بِنْبان" انعقد لسانه، يريد أنّ يهدّد.. يريد أنّ يشكر.. يريد أنّ يقول للأمراء وللمماليك أيّ كلام.. لا يستطيع.

أمسكوا بالعبد الذي انتقى الطعام للسّلطان. وجمعوا معه كبار المسئولين عن المطبخ، وعن مخازن الطعام والشراب. وأمسك الحرس بكلّ من شكوا فيه أنّه مشارك في هذا الوَلَسْ. وُضعوا في سجن القلعة تحت التعذيب الرهيب. قبل الصّباح التالي كلّ منهم اعترف باسم من الأسماء.. من قال إنّ قائد الحرس الألباني هو الذي وَزّه. ومن قال إنّ المملوك الفلاني هو الذي رشاه، ومن قال إنّ الأمير "كمال الدين" الداودار نفسه هو الذي خطّط كلّ شيء. والعبد قال إنّ نائب السلطنة الأمير "حفيظ السلولي" هو المسئول! وتحت التعذيب المستمرّ ماتوا جميعًا في اليوم التالي بعدما قال كلّ منهم عددًا من الأسماء فقط، ليخفّفوا عنه التعذيب، أو يعملوا فيه معروفًا ويقتلوه سريعًا. مات تحت التعذيب سبعة وثلاثين من بين طباخ،

ومساعد طباخ، وشغالين نظافة وعبيد وجواري. أغلب القتلى بعيدين عن وَلَس الاغتيال، ومنهم أصلاً من اقتادوه، و لم يعلم ما جَرَى، وضاع دمه ودمهم سبهللا.

مرتبة الداودار "كمال الدين" العقرب زادت حشيتها حشيات، فَعَلَتْ درجات بعدما أنقذ السّلطان الأمجد من ميتة فطيس.

يوم الختان الذي انتهى بالفزعة، أتت من بعده أيام كئيبة ثقيلة على السّلطان وبيلة، حسرة تحاصره.. فهو لم يعلم من الذي دبّر مؤامرة تسميمه؟، وبما أنّ الفاعل مخفي، فسوف يعود لفعل فعلته، لكنّ كيف ستكون مؤامرته المرة القادمة؟. هل بالسم؟، أم بالطّعن؟، وربما بانقلاب مفاجئ؟، ثمّ من هو هذا الجبان؟، هل يمكن أنّ يكون من أقرب الناس إليه؟، وإن كان منهم، فمن فيهم؟ "حفيظ السّلولي"، أم "اليوسفي"، أم "عثمان أغا"، أم "الألباني"؟ لما انفرد به "حفيظ"، قال له..

– "مولاي.. تلاقي داودارك "كمال الدين" العقرب هو مُدبّر الأمر كله، ليثبت نفسه عندك أكثر، وأكثر."

ولما انفرد به "الداودار" قال له..

– "خللّي بالك من كلّ اللّي حواليك!"

وهكذا دواليك. كلّ واحد رمى الطّوبة على من ينافسه. بات السّلطان موهومًا على نفسه. و لم ينته الأمر بهذا الحَيْص بَيْص فقط، بل زادت أموره حسرات مريعات، ولوَّن طنبور الأسى في النغمات. جُرح طفله "صُبيح"

صار ينزف. يصرخ ويتأوه. لا ينام من قسوة آلامه. مات صُبيح كما مات ثلاثة من أولاد كبار القوم، والغريب أنّ أولاد العوام بقوا أصحّاء! علية القوم يتعجّبون.. هل صحيح أنّ لعنةً ما تحوم على المماليك، فتطيح بسلالتهم، ولا تبقي منها إلا أقل القليل؟!، هل هذا غضب من "الله" نتيجة لفعلهم كلّ ما هو شر وبيل؟! مات الأمير الصّغير، فيُصدم من يظن نفسه الأب، فيركع بجانب السّرير الصغير الذي يحوي جثمان الطفل، يخلع عمامته، ويُلقيها أرضًا وهو يبكي. دخل عليه "حفيظ السلولي"، فألقى بعمامته، ثمّ ألقى بنفسه بجوار صديقه، وأخذ يبكي، ويصيح بأكثر ممّا كان من الأبّ المكلوم. فكان هذا الموقف مما يقرّب الجسيم القبيح من الوسيم المليح، وكان ألم الاثنين حقيقيًا، فهذا يظن أنّ الطفل الميت ابنه، وذاك يعلم أنّ الطفل الميت ابنه.!

وقع الصّراخ، والنّواح في قصر الحريم بالقلعة. الجواري أخذن في لطم خدودهنّ، وشد شعورهنّ، وتمزيق سراويلهنّ من أعلى الصدر للصرة، يدبدبن بالأقدام في سرعة، ويثبن في لوعة، ومنهنّ من أمسكن بفردتي قبقابهنّ الخشبي، وصرن يضربن بهما في بعضها لعمل إيقاع حزين تتلوّى فيه بقية الجواري في رقصتهنّ المقبضة المتوحّشة. واستمّر المأتم عمّال سبعة أيام بلياليها، وبلاويها.

تحزن السّلطانة "شمس" حزنًا عظيمًا، ومن هذا اليوم يبقى الأسى في قصرها مُقيمًا، فلم يعد أمرها صعود، وصعود، وصعود، وتحقيق أماني، بل سحابات من الكدر بدأت طفيفة خفيفة، منذ أنّ قُرِرَ عليها أنّ تبقى تحت "بِنْبان" بدلاً من "السّلولي"، ثمّ إنجابها ابنتها الثانية التي لا تملك من سحر

الجمال شيّا، ثمّ اكتشافها أنّ ابنتها الأولى بدنها يرفضٍ الذكور رفضًا، ولها في الإناث غَيّا، ثمّ ضربة المرزبّة بموت ابنها الذي ركّزت فيه آمالها، ابنها الذي كان، ومازال، وسيبقى في بالها حيّا. لذا تصرّ السّلطانة "شمس" أنّ ينادونها رسميًا السّلطانة "أمّ صُبيح"، وكلّما سرحت مع نفسها، أو كوتها الأيام كيًا، تأخذ في البكاء على "صُبيح" كما تبكي أمّها التي حُرِمت منها.

الصّباح الباكر.. نقيب الحلّاقين، ومساعدوه الاثنين متدلّين مشنوقين من أعلى باب زويلة. ثلاثة أيام، ثمّ أخذوا جثّتهم العفنة، لتُدفن بدون أيّ صلاة عليها، وبدون أنّ يحضر أيّ من أهاليهم، وحتى إنّ سمحوا لأهاليهم بالحضور، فلن يحضروا! فمن يُعرّض نفسه لغضب السّلطان، والسّلطانة، وغضب الأمير "عثمان أغا" اللذين فقدوا طفليهم في عملية الطهور. وكانت مقتلة السبعة والثلاثين، ثمّ شنق نقيب الحلّاقين، ومساعديه جالبة لِسُخط، وكُره الرعية على السّلطان والسّلطانة، وكلّ من هم حولهما، بل بعدما كانت حزينة على موت الطفل المريضِ "صُبيح"، تحوّلت لتشمت خاصة في السّلطانة الجشعة الجعانة، رغم كلّ ما عندها من مسرّات الدنيا.

السّلطان قوي البأس بدنيا، بفقد ابنه وانكسار اطمئنانه صار كسيرًا نفسيًا. سأل عن شيخ الأزهر ليشكو له حزنه. أتاه الشيخ ليواسيه. قال له كيف يكون مولانا في غاية الضّنْك، والرّعاع غارقين في الهنْك والرنْك؟! كيف والحزن جاثم على صدر خليفتنا، والمرّ في قلب أهل منزله سيدتنا

سّلطانتنا، والأوباش ما بين حشّاش لاهٍ وسكير واهِي؟ لترضي "الله"، فيعوضك خيرًا -يجب عليك أنّ تتبعَ ما أنقله لكَ من أوامر "الله"- سبحانه وتعالى، -ونبينا- صلى الله عليه وسلّم.

وفعلاً لم يُكَذِّبْ السّلطان خبرًا، فأصدر مرسومًا بإبطال ضمان الحشيش، وإحراقها، وإخراب بيوت المُسْكرات، وكسر ما فيها من الخمور وإهراقها، وغلْق الحانات، ومنع النّساوين الخواطي، واستتواب العلوق، واللّواطي بعد ضربهم وسبّهم، وفضحهم، وعمّ هذا الأمر سائر جهات الديار المصرية، وبرزت المراسيم الشريفة بمثل ذلك في سائر الجهات بالبلاد الشامية، فطُهرّت في تلك الأيام سائر البقاع، وامتنع الناس من ذلك غاية الامتناع لشهورٍ قليلة، ثمّ عادت ريمة لعادتها القديمة، فمن خَلَقنا خَلَقنا بشرًا، و لم يخلقنا ملائكة، والرّعية قالت في سرّها وجهرها..

- "قبل ما يِشَّطَر علينا، يلمّ الأول أهل بيته."

"شمس" تضع كلّ همها في بكريتها "قمر" التي تفجرّ فيها الجمال والذكاء. لم تستطع "شمس" في أنّ تمنع ابنتها "قمر" من حبّ من تناديه عمّي! "حفيظ السلولي" يأتي في زيارة من الزيارات تجري عليه "قمر"، وترتمي في حضنه وهو يأخذها في حضنه، ويقبّلها قبلات أبٍ يشتاق لطفلته. يبتسم "بِنْبان" وهو يرى ويحسّ بمدى الحبّ الحقيقي الذي يُكنّه "حفيظ" لطفلته "قمر". ابتسامة "بِنْبان" ابتسامة حائرة، لا هي مستريحة كلّ الراحة، ولا هي تستطيع البوح بمتاعبها في صراحة. خاطب نفسه بصوتٍ عالٍ مرةً واحدة، بعد أنّ تأكد أنّ "شمس" بعيدة. جلس كما اعتاد

أنّ يجلس بجوار فراش طفلته النائمة ينظر إلى وجهها مُتمعنًا، يريد أنّ يقبض على سِحْنَة تقول إنّها من سحنات "حفيظ السلولي"، وقد تسلّلت، لم يجد وإن كان باله يقول له إنّ سِحْنَة تحتية لحفيظ السلولي تسلّلت، ونامت بداخل طفلته، وتوطّنت. صاح..

– "آآه. الشكّ يشكّني. الشك شكّة نار، ولا سهم ينغز في الكبد."

"شمس" تُقلّل من لقاءاتها بـ"حفيظ السّلولي"، قلقة من فواح روائح اللقاءات بأكثر مما يُحْتَمَل، فلا أمان حتّى لخاصة الجواري، والعبيد العالمين بما يحدث في الدِّرَى. وإنّ ورم الشك في زوجها تخشى "شمس" أنّ يحدث مالا يُحْتَمَلْ. بالفعل وقعت بين زوجها، وبين "حفيظ" اصطدامات كلمات، وبعض التحرّشات، لكنّ لم تصل إلى الوَحشَة والقطيعة في حينها، فكلاهما يحتاج إلى الآخر وسط هذا المحيط اللّجي من المؤامرات، والخباثات المملوكية، لكنَّ الشّك سُوسة تسلّلت من ليلة زواج "بِنْبان" و"شمس"، سُوسة اخترقت بطن الزّوج، واستقرّت في بعض المواضع، وأخذت تبثّ موجات المواجع. مواجع من داخله، ومواجع من خارجه تتوالى، وتتزايد خلال كرّ الأيام، والشهور، والسّنوات. السّوسة تتكاثر سوسًا، فتصير جيوشًا ألوفية، فتّاكة زاحفة تخترق حصونه الداخلية فتخربّها، وتتركها تالفة وهي تزحف لأخرى لتخرّبها، ثمّ أخرى. حتّى أتاه وقت زلزلة الشك في نَسَبْ "قمر" أيّما زلزلة. أهي من ظهره، أم من ظهر غيره؟، وهل غيره هذا يكون السّلولي؟ باطنه يفور ونفسه تثور، وتقول..

– "آه لو أنت خائني بالفعل يا "سلولي"، آه لو أنت يا رفيق وصديق

عمري يا حفيظ!، آه يا ويلك، ويا ويل ويلك. آه لو أنت من وَزّ على دس السمّ لي يا "حفيظ". ويلك يا حفيظ يا سلولي منّي!"

أنهكته الشّكوك الشوكية. ثقلت دواخله بأكثر من ثِقل خوارجه التي بانت، ورطرطت قنطار لحم وشحم. خارجه العيون تَزنه، لكنّ من يزن ثِقل الدواخل؟ لم يعد يمرح على الفَرس، ويبارز المماليك والحرس. فقط يسير جيئة وذهابًا في طُرقات القلعة وقصرها، صُبْحها، وظهرها، ومسائها، وخلفه أربعة من الحرّاس لا يفارقونه، ولا يقتربون منه بالزيادة، فيقرفونه. أخذ السّوس يتوالد في نفسه بكمّيات بيّنات تُخرب دواخله، وتُضعفها يومًا بعد يوم في هديرٍ مكتوم، تاركة مظاهرهُ الخارجية وكأنّها قوية لوقت ما ينهار، فيتعجّب ممًّن يشاهد السّقوط.. كيف لهذا الطّود أنّ يخور على نفسه متهدّلاً بهذه السهولة؟!

والسّنوات تترى تحمل في جُعبتها الحَزَنُ والأسَى.

6

صحيح.. ليس كلُّ ما يشتهيه المرء مُدركه. "شمس" التي كانت مُهانة ابنة مهانة، وحفيدة مهانة، أصبحت سّلطانة طيلة سنوات وسنوات! الفقر الأزلي انقشع، والإذلال الرّاسخ انقطع. الذّهب منثور تحت قدميها، والجواهر متناثرة عليها، والحرير، والطيلسان، وزيوت التعطير، وأطيب البخور تُعبِّئ حجراتها، وصالاتها. غيّرت كلّ ما في جناحها من سجاد تحتيّ لثريات في السّقف. أبدلت الألوان لألوان أنثوية طريّة. تُصرّ على أنّ يكون كلّ ما حولها جميل يصل لحد البذخ. زجاج النّوافذ مُعشّق مُلوّن، والمشربيات في تشكيلات مُتقَنة، والأرابيسك رائع. "شمس" سكنت قصر قلعة "صلاح الدين" مقرّ حكم مصرِ. لها زمامات أراضي زراعية يرمح فيها الفرس، فيتعب ويخور. لا تفكر، ولا تشتاق لبلادها المُثَلَّجة على ضفة البحيرة البحر، فرِحة بأيام طَيِّبَة تتنسمها، وكأنّ الدنيا أتتها على طبقٍ ذهبي، والدنيا لعوب لا تأتي بكامل سعدها لا لسعد، ولا لسعيد. تعطِي المرء، فيقول ظالمًا نفسه.. ما أظن أنّ تَبيدَ ممتلكاتي أبدًا! ثمّ يفيق،

وما كان لديه راسخًا، ينهار هددًا، وما كان يحتضنه راضيًا يتبخرّ من بين يديه بددًا.

مشهد إذلالها وصفعها وهي صغيرة، يوم أنّ وضع الحارس الضّخم قدمه الثقيلة على بطنها، والبلطة في يده مُشرّعة لقطع رقبتها، لحظة أنّ تبوّلت على نفسها رعبًا، وهي تنظر إلى أمهّا المضروبة بقسوة فأُغمي عليها.. ساعة أنّ وافقت أمّها مُرغَمة على بيعها حتّى لا تُقتل.. غرّبتها عن موطنها في رحلة ثقيلة على قلب طفلةٍ صغيرة، كلّ هذا آلمها في مُقتبل حياتها. ثمّ صعدت في الحياة بما لديها من جمالٍ وذكاء، وبدأت تتنفّس الصّعداء، فتأتيها البلاءات موجات بعد موجات. ابنتها "هناء" التي أتت محرومة من الجمال والدّلال، فزَوَّجتها سريعًا لمملوك هُمُل، مملوك أيّ كلام، يُقال عن أمثاله مماليك "كليشنكان"، مملوك كان يأمل أنّ زواجه من "هناء"، سوف يأتيه من السّلطان والسّلطانة بكلّ هناء، فيصعد للأعالي، لكنّ السّلطان لم يهتم، والسّلطانة به لم تبالي.

ضربة المرزّبة على أمّ رأسها بموت ابنها "صُبيح". كثيرًا ما قالت السّلطانة في سرّها وفي علانيتها.. آه لو بقي لي "صُبيح"، وذهبت "هناء" هذه. قرّرت بناء مسجد متوسّط أنيق، ويكون اسمه مسجد "أمّ صُبيح". وبالفعل تمّ بناء المسجد، فكان جميلاً مظهرًا ومخبرًا، وفي ركن منه حجرة صغيرة به منامتان، إحداهما أتوا بداخلها ببقايا جثمان ابنها "صُبيح"، والثانية أُعِدّت لها حين يتوفّاها "الله". ولما أتت السّلطانة، وزارت المسجد في افتتاحه، ووُضع جثمانُ ابنها فيه، بكت كما لم تبكِ طوال حياتها. الناس

لا يحبوّنها، ولا يحبون اسمها، فأطلقوا على المسجد الأنيق مسجد "وهبة المجذوب"!، ووهبة عجوز مجذوب غاية في الفقر، والاتساخ قرر البقاء بجوار المسجد. فصار المسجد الأنيق باسمه!

أمّا بكريتها "قمر"، فقد أتت كما تشتهي "شمس" تمامًا، أو كما خال لها ذلك. جمال ساطع، وذكاء فاقع، فعقدت "شمس" عليها آمالها. أتت لها بالمعلّمين لتكون قارئة كاتبة، فتفوّقت الفتاة، ودرست علوم الحساب، والفلك، وبعض أمور التطبيب. تهتمّ بنظافة جسدها اهتمامًا مُبالغًا فيه، تنتقي ملابسها بعناية ودراية، وتضع الطِّيب على جسدها، وملابسها بالزيادة. قباقيبها الخشبية عالية، وكلّ منها تُحفة في الشكل، وفي تشكيل الرسومات المحفورة في خشبها، وكلّ منها لها رنين أنغام خاص خلال سيرها بها على الرخام. زادت غرابتها في رفضها لأكل اللّحوم، لا تتحمّل ذبح الحيوانات والطيور! حجّتها أنّها لن تجعل بطنها مقبرة لها. يضحكون منها ويسخرون. أُغرمت بتناول الفواكه.

رغبت "قمر" في دراسة الموسيقى، فأتوها بمعلّمة العود، فامتلكت زمامه، وسيطرت على أوتاره. خُلِقَتْ شفيفة وشَفَّتها الموسيقى أكثر وأكثر، فصار قلبها طيِّبًا رقيقًا. تصعد إلى سطح القصر، وتتأكّد من رشّ الحبوب بغزارة، وملء الأواني بالماء لحَمَام القصر، وللطيور البرية معًا. وفي الحديقة الجانبية زرعت بنفسها شُجيرات برتقال، تعشق تلك الفاكهة الذّهبية، وتكثر من تناولها فصوصًا وعصيرًا. يأتيها العاملون في القصر، لتشفع لهم عند أبيها وأمّها فلا تتوانى عن المساعدة، صارت هي أحبّ

إنسان في القصر. لكن.. وكلّ من قارب الكمال به لكن، واللّاكن تؤكّد أنّ الكمال لله وحده، وليس لفردٍ من البشر حتّى لو كان قمرًا اسمه "قمر"، وأمّها سُلطانة، واسمها "شمس". "قمر" من صغرها لُوحظ عليها ميلها لمعاشرة البنات فقط، وكراهة الصّبيان. ولما دخلت المراهقة رفضت أنّ يجالس بقربها أحدَ من معلّميها الذكور. وفي حمّام قصر الحرملك بدأت "قمر" تحسّ بأحاسيسها الغميقةِ العميقة. تكره أنّ يفرك جسدها أيّ خصي، وتستلذّ حين تُدَلِّكلها الجواري الشابّات، وترفض أنّ تدلّكها معلّمة الجواري العجوز، وكأنّ العجوز لا تجوز!، وتلك العجوز هي التي فهمت ما بالأميرة "قمر" من خلل، لكنّها آثرت السّكوت، فإطلاق عيب مثلِ هذا على أميرة أمرٌ جَلل، وعاقبة الفضح ربما تصل إلى الذّبح. ثمّ أتت معلّمة العود وبها نفس خلل "قمر". وهي من اقتربت من "قمر" لدرجة التلاصق والتعانق. أحسّت معلمة العود بأنّ التجاوب من الأميرة الصغيرة يعني أنّها تشتهي الموضوع، وأنّ الخوف مرفوع. سقتها قبلات، وأحضان سحاقية، فاستمتعت وأمتعت حتّى انتهى دورها، ورحلت وتركتْ حسرة شجية في قلب "قمر".!

"قمر" لا تلامس جسد ذكر سوى أبيها ومن تناديه بعمّها.. "حفيظ السّلولي". من ابتداء بلوغها تأكّد شذوذها. نصحتها أمّها "شمس"، وصفعتها مّراتٍ ومرات، ثمّ عادت إلى أسلوب الملاطفة واللّين. ثمّ قررت الصبر عليها شهورًا، فَغَطْرَشَتْ عن أحوالها وقالت أمور عِيال. "شمس" جسدها لا يتحّمل الابتعاد عن الذّكور أسبوعًا واحدًا، يصيبها التوتر، ولا تجد أيّ مذاق في أية متعة في دنيتها إلا بعد إشباع الجسد الجوعان

الملهوف. وعليه لا تصدق أنَّ ابنتها الجميلة كاملة الجسد، سليمة العافية سوف تستمر في رفضها للذّكران. مرّت الشهور و كما هي الأمور. حادثها أبوها السّلطان، لا فائدة. "قمر" دواخلها تنفض الذّكور نفضًا. رفضت الزواج، و لم ترضخ لضغوط أمّها، ولا لتوسلات أبيها. فجيعة "شمس" غاية في الإيلام على معقد آمالها، وطموحاتها في مستقبل الأيام، تشاورت مع عشيقها والد "قمر" الحقيقي "حفيظ السّلولي"، لم تجد عنده حلاً، و لم تجده يحمل من أحوال "قمر" همًا. هي متألّمة على ابنتهما، وهو يشكو شكوى كلّ مرة، زوجته "غُزلان" أصابها مرض في كبدها، تفقد سمنتها، وتفقد أعصابها يومًا بعد يوم، صارت خميرة عكننة في قصره. لم تعد تكتفِ بلعن العبيد والجواري، بل صارت تلعنه هو، ثمّ يأتي الدور على ابنتهما. وفي هذا اللّقاء أضاف شكوى جديدة.. يعيد ويزيد في موضوع قلقه من عُلو كعب الداوادار عليه، وأنّ على "شمس" أنّ تُسانده ضد هذا العقرب! انتهى لقاء "شمس" بـ"حفيظ" بجفوة نتيجة لهفوة "حفيظ". غضبت "شمس" من برود "حفيظ"، وعدم ألمه من شذوذ ابنته "قمر". قرفت منه، و لم تتحمّس لمداعباته ليُضاجعها، وهو أصلاً كانت مداعباته ليست حقيقية. برود اعتراهما، سواء لحالة "شمس" النفساوية، أو دبدبات عربة الزمن التي أثّرت على جسدها وشِدّته، ووجهها ونضارته، أو لتواجد أكثر من عشيقة عند "السّلولي".

السّلطان فجيعته عظيمة. "قمر" أحب إنسان لديه، هي بكريته، وقُرة عينه التي يعشقها، ويفخر بها، ويحلم لها بزيجة من أميرٍ كبير غني يُهَنّيها، ويَحميها ويستولدها. أمر بإحضار الأطباء، والنّساء الفاهمات، لا فائدة.

قالوا عن "نطاسي" عجوز منحه ربّه الفطانة والكهانة. أتى، وجالس "قمر" ساعة بعد ساعة. ثمّ بدأ بسؤال السّلطانة بعد أنّ أخذ منها الأمان..

– "هل وأنت مرضعة، أكثرت من أكل الكرفس، والجرجير، والخندقوق؟"

– "ليه السؤال الغريب شيخ الهَبَل؟"

– "مولاتي.. أعطيتيني الأمان!"

– "اتكلم."

– "الكرفس، والجرجير، والخندقوق. يتسلّلان إلى شفري المولودة. فتتولّد هناك الحكة."

– "حكّة تُحك عمرك شيخ أهبل."

– "إذن مولاتي. ليس عندي إلا نصائح معروفة في مثل هذه الأمور مفهومة.. اجبري ابنتك على تناول ما شبه عضو الرّجال. لتأكل القثاء، والجزر، والباذنجان الروّمي. ولتشرب من كأسٍ طويلة، وليست مستديرة. ولتجعلي جميع المراوح التي حولها من ذوات الأيادي الطويلة. وإن أمكن تجعليها تمصّ القصب!"

– "غور من قدّامي شيخ حمار!"

"النطاسي" أخذ يفكر، ويدبر ثمّ أتى السّلطان وسجد عند قدميه، وقال..

- "هذا ابتلاء من اللـه، مثلما يوجد رجال لا يطيقون النّساء، ويَنْكحون أو يُنكحون من أمثالهم الرجال، فهناك نساء لا يطقن الرجال ويفضلن معاشرة النساء من أمثالهنّ. لا علاج يا سّلطان البلاد لابنتك إلا بعض ملاحظات أبديتها للسّلطانة حَرَمك يا مولاي.. ثمّ.. ثمّ ارض بما قسمه "اللـّه"."

"بِنْبان" طلب هذه المرة المفتي، فربّما يجد لها حلاًّ.. شرح المفتي أنَّ أسباب الشذوذ، ربّما نتيجة لخطأ الزّوج ألذي أتى زوجه وهي حائض، أو أتاها ولم يُسِمّ "باسم اللـه"، فينطوي الشيطان في إحليله فيجامع معه زوجه، فتنجب كلّ عِلق وسحاقية. وأنَّ الأنثى مع الأنثى من علامات السّاعة، لأنه بهذا الفعل.. المرأة تُزيح الرجل عن موضعه، وتحذفه عن دوره الطبيعي، لتكتفي بالمرأة. أيّ أنّ سنّة الكون تَلَخْبَطَتْ، ومسارات الحياة تَكَعْبَلَتْ، ولا حول ولا قوة إلا باللـه. ثمّ نصح السّلطان بأنّ يعمل عملاً عميقِ الصّلاح، عالي الفلاح، ليرضى "اللـه" عنه وعن ابنته المختلّة.. أنّ يعيد الكرّة أيضًا كما نصحه شيخ الأزهر من قبل، فيأمر بالتشديد على النّاس في تحشيشهم وسُكرهم، ويحبس الخواطئ، ويجلد العلوق واللّواطي. لكنّ في مقابل نصيحة المُفتي نصائح معارضة، خاصّة نصيحة الداودار "كمال الدين". قال الأريب..

- "كَتْم الانطلاق ليس هو الترياق. اترك الرعية فيُ هزلها وهزارها، وهزالها حتّى لا تكرهك، وإن كنت لا نخشى كرههم لك، فاخش دعاءهم عليك!"

السّلطان "بِنْبان" قرر أنّ يستر عليها، فلا يعلم أحد بشذوذها. لكن.. هل يُخفى الجبل عن الناظرين؟ القلعة كلّها عرفت أنّ الأميرة الجميلة الرقيقة، الفاهمة، والدارسة لأكثر من عِلم، وعازفة العود، المحبّة للناس، والكارهة للعنف والظُلم.. سحاقية؟ الغَريب أنّ لا أحد احتقرها، لا أحد كرهها، سِوى بعض الحاقدين على جمالها، ومكانتها.

وبعد ابتعاد معلّمة العود، و"قمر" لم يزد عمرها عن الرابعة عشر، أخذت تمارس السّحاق مع الجواري الصّغيرات، ثمّ اقتربت منها الجارية "رجبيّة" السحاقية ذات العشرين ربيعًا. صارت "رجبيّة" صَبْوَتُها.. صديقتها التي تحسّ بها نفسًا، وجسدًا. عشيقتها المُجَرَّبَة المفضّلة، عشيقتها الوحيدة التي لا تسلاها ولا تطيق سواها. أصرّت "قمر" على رفض الزواج. لم ترضخ لأوامر أبيها السّلطان، ولا رجاءات أمّها السّلطانة. فاقتراب ذكر منها يجعل جسدها يقشعرّ، وتقيء، وتُصاب بالقرف. ولما حجبوا عنها "رجبيّة" امتنعت "قمر" عن الطعام والشراب أيامًا. رفضت الحديث مع أبيها، وصرخت غاضبة في أمّها السّلطانة، وكادت أنّ تمسك بها، فذُعرت "شمس"، لم تكن تتصوّر أنَّ الشذوذ بلغ في ابنتها كلَّ هذا المبلغ.

أعادوا لها "رجبيّة" خشية عليها من السّقام. "رجبيّة" خشيت على نفسها من انتقام السّلطانة "شمس"، طالبت "قمر" بالزواج من أيّ ذكر، على أنّ تكون علاقتهما مستمرة، وإلاّ.. السّماح فات، والويل آت. وهذا كان ملعوب حقيقي من "شمس". ولتأكيد أنّ الأمر حقيقي، وليس هزارًا، بمجرّد أنّ رفضت "قمر" وقعت "رجبيّة" في خطر.. سجنوها في سجن

القلعة الرهيب، وكان فراق العاشقتين عن بعضهما عذاب أكثر من رهيب.

"شمس" لم تستسلم، فمن بعد موت "صُبيح" آمالها مرتكزة على "قمر". تحلُم بأنّ تكون "قمر" سّلطانة "مصر" بعدها! كيف؟ لا تعرف. لكنّ في بلاد السّهول الثلجية، والبحيرة البحر التي أتت منها، الملك يُوَرّث ابنه، فَلِم لا يكون هنا مثلما هناك حتّى لو كان الابن ابنة؟!. لم تفاتِح أحدًا بما في قلبها سوى زوجها السّلطان، فسخر منها، وأكدّ لها، إنّ فكّرت في ذلك فكأنّها تفكر في مقتل ابنتها، ومقتل من سيتزوّجها، فلن يجلس على عرش "مصر" إلا مملوك قويّ حوله مماليك أقوياء. الغريب أنّها لم تحادث أحدًا غير زوجها السّلطان الضعيف، لكنّ جاءت النّجدة من حيث لا تحتسب.

بطن السّلطان التي يُحشر فيها من الطعام بما لا تطيقه، تعبت، وصارت ترتبك، فتتخشّب مرة، ومرة ترتخي، ومرّات تُفرز الحامض. ثقل عليه مرضها أيامًا، فعادته الحاشية. نقيب التجار زاره ومعه الهدايا كالعادة، وكالعادة لم ينسَ هدية للسّلطانة، فاستأذن الداودار من السّلطان أنّ يزورا السّلطانة، لتسليم الهدية القيّمة. "عز الدين" أخذه الداودار لتسليم الهدية. عُقد ذهبي تتدلّى منه زُمرّدة خضراء ستضوي على صدر "شمس" الشقراء. فرحت بها السّلطانة، وصرّحت أنّها مستعدّة لأي طلب من نقيب التجار، ولهذه الرضاءات السّلطانية يُهدي الهدايا التجار الشطّار. اتخذ "عز الدين" جنبًا، وترك الداودار دقائق مع السّلطانة. الداودار "كمال الدين". فتح الموضوع..

- "مولاتي شمس. بعدك يكون القمر."

- "إيه يعني؟"

- "قمر بنتك تكون سّلطانة مصر!"

- "قمر.. سّلطانة!"

- "لازم تورث عرش أبيها وأمها."

- "في بلادي هذا يحصل. لكن.. في بر مصر والمماليك وتحريضاتهم! هذا شي ما حصل قبل كده!"

- "حصل يا مولاتي.. زماان "قلاوون" ابنه ورث عرشه. و"قايتباي" ابنه ورث. طب ليش ما يحصل مع "بِنْبان" وبنته؟!"

- "كلام معقول داودار. لكنّ ابن السّلطان بنت مش ولد داودار!"

- "أنا في دماغي مُخطّطات. دماغي فيها دواهي على كلّ عدو للسّلطان. من غيري أنا داودار عظيم، "بِنْبان" كان راح في شربة ماء."

- "كلام داودار كتير كتير."

- "أمراء مماليك فيهم غدر كتير، وحقد كبير. كلّه عايز عرش. "بِنْبان" مخّه بدون مؤاخذة بالوظة."

- "داودار. كلام غلط في سّلطان "بِنْبان" في قطع راس داودار."

- "اسمعيني أنا مع سّلطان "بِنْبان". أنا عايز مصلحة سّلطان وسّلطانة.

عارفة إنتِ، وعارف كلّ المماليك.. "بنْبان" لا يعرف كيف يحاور؟ كيف يضرب هذا بهذا؟. "شمس".. بعلك "بِنبان" قاعد سنين سنين على عرش مصر، علشان أنا وأتباعي عايزينه. غير كدّه كان راح في داهية من أوّل شهر. من أوّل أسبوع. من أوّل يوم سَلطانة!"

– "إيه كلام زفت داودار."

– "كلام كلام صحيح."

– "غرضك إيه داودار؟، فأنا عارف "داودار" مش سهل، ومخك واسع وسعان بحور، ولك في كلّ أمر أمور. عايز تكون سّلطان داودار؟!"

– "لا لا لا سّلطانة. لكنّ عندي غرض تاني. مش غرضي لوحدي. غرض حاشية سّلطان وعدد من عِظام أمراء، ومن كبار تجار، وعلى رأسهم نقيبهم "عز الدين" اللّي جاب لَك هدية من بلاد الهند والسند، ومستعد يجيب لك عجايب الدنيا تحت رِجْلِكْ مولاتنا، وزيدي على "عز الدين" والتجار، مشايخ، وقسّسة، وأحبار كَبار. كله لهف في عهد الأمجد "بِنْبان" اللّي إيش لم يحلموا بيه.. ذهب ذهب ذهب. إقطاعات زراعات، مناصب فخيمة. فيه مثل يتقال عند الرعيّة الأوباش.. "اللّي ما سرق في عصر بِنْبان، مش حيقدر يسرق بعد كده"!

– "داودار. كلام دا قلة أدب داودار!"

– "هاها. هدّي صدرك علينا مولاتي.. وعلشان يدوم علينا مصالح كتيرة، ومكاسب كبيرة، لازم يدوم عصر الأمجد "بِنْبان"، ووقت يتوفاه

ربّ رحيم، لابد من يِخْلفْ "بِنْبان" يكون زي "بِنْبان" علشان يستمر عهد "بِنْبان". كيف يستمر عهد بِنْبان؟. يكون فوق العرش إنسان من صُلبه. لكِنّ صُلبه بِتْ! الحلّ سّلطانة.. بِتْ سّلطان يتجوّزها مملوك قوي، معاه أمير قوي قوي قوي."

– "آآآاه.. خوف من حسرات."

– "لكن زحام شديد شديد على "قمر" بنت السّلطان. أنا فكرت.. الحل ياخدها ابن أمير الجيوش."

– "اليوسفي!"

– "صحيح. تمام."

– "تضمن بنتي، وابن "اليوسفي" يكونوا سّلطان وسّلطانة.. ومفيش مملوك يشيلهم.. يسجنهم.. يقتلهم؟ "عثمان أغا" خطير خطير داودار."

– "كلّ شيء معمول حسابه. مماليك كتير معانا. نزيد ليهم مغانم، يزيدوا لنا انحناء. نرشّوا عليهم دهب، يقولوا طظ في "عثمان أغا".. نقتله."

– "السّلولي نائب سلطنة.. يغضب، يخامر علينا، مماليكه كتار داودار."

– "أنا عامل حسابي تمام تمام. "سلولي" النهاردة غير زمان. "سلّولي" أنا قَصّيت كتير من جناحاته."

– "وإنت داودار. إيش مكسبك؟"

– "يدوم عهد بِنْبان. وكمان.. مطلب بسيط.. وعد من سّلطانة تخبز خدمة كبيرة لخدامها داودار "كمال الدين".

– "قول داودار."

– "لا. غرضي وقته مجاش مولاتي. لسّة الفرن بارد."

"شمس" تحمّست، وتقوت بما خطّط له الداودار. انهمرت دموعها على فقدها "صُبيح". لو كان حيًا لكان توريثه أسهل. لكن.. لن تترك آمالها تنهدّ لموته، ولا لأنّ ابنتها ركيزة كلّ طموحاتها تكره الذّكور، وتعشق النساوين! وإن رفضت "قمر" العِنديّة، فلا مفرّ من قطع رقبة "رجبيّة". قاومت "قمر" أوامر أمها، وامتنعت عن الطعام والشراب. أتاها أبوها، وأكّد إنّ هي استمرت في امتناعها، فرقبة "رجبيّة" لها الذبح، ولا تراجع من قراره السّلطاني. فأعطت "قمر" تهديدًا قصاد تهديده.. سأقتل نفسي إنّ قتلتم "رجبيّة". أتوا برجبيّة من السجن. حارسين ألقيا بها تحت قدمي قمر. حال "رجبيّة" بشع. عليها جلباب ممزّق أقذر من القذارة. شعرها مقصوص، وعيناها متورمتان وشفتاها ومنخاراها داميتان. "رجبيّة" وذراعاها مربوطين خلف ظهرها، تنهال بشفتيها تقبّل قدمي "قمر"، وتغسلهما بدموعها، تمسح خديها المتورمين في ساقي "قمر". تحكي لقمر أنها ضُربت بالخيزران على باطني قدميها. لكموها في بطنها، وظهرها، وجنبيها، بل في وجهها. منعوا عنها الطعام والشراب، وكلّ هذا هين، لكنّ ليذلّوها رفضوا أنّ يأتوا لها بفصّ أفيون الذي أدمنته سنينًا. وليقلبوا معدتها قرفًا.. هَروها نكاحًا من ورَا، ومن قُدام حتّى

تمنّت الموت، فهو أرحم من كلّ هذا الهوان، ومن ركوب الرجال عليها. تنتحب، وترجو "قمر" أنّ توافق على الزواج، وستستمر علاقتهما حسب وعد السّلطانة "شمس"، أمسكوا "رجبيّة" من شعرها، وسحبوها بعيدًا. "قمر" صرخت ولعنت، وألقت بجسدها على "رجبيّة" تحاول منعهم من سحبها مرة أخرى إلى السجن البشع.

الشاب المختار هو "البهاء بن اليوسفي". وإن كان أبوه هو أمير الجيوش المصرية، فمن أهم خصاله أنّه لن يتجاسر يومًا، ليقف أمام السّلطانة "شمس". فالبهاء طري سَلِسْ، به عرجه خفيفة. بعيد تمامًا عن الفروسية، والقتل والقتال. أبناء المَماليك ليسوا مماليكًا، تربيتهم لَطّافي خَفّافي، فليس لهم في حمل السّلاح، وسنوات التدريبات القاسية في الطباقات العسكرية. أطلقوا عليهم لقب "أولاد النّاس"، وهو لقب فيه بعض من الالتباس. وكأنّ غيرهم من أبناء الوادي مش ناس! اللقب تمييز لهم عن بقية الرعية المصرية أهل الطبقة التحتانية. أولاد الناس ينطبق عليهم المثل "رقصوا على السلّم، لا اللّي فوق شافوهم، ولا اللّي تحت حسّوا بيهم"، لا هُمْ من الناس اللّي فوق، ولا هُمْ من الناس اللّي تحت. يأملون دائمًا الصّعود للأعالي، ويرعبهم أبدًا الدحرجة للواطي حيث غلابة الأهالي. أغلبهم يتعلّمون في "الأزهر"، فيكونوا من الفاهمين المحترمين، وكبار المؤرّخين. وتُخصّص لهم مساحات معقولة من الأراضي الزراعية، فلا يكونوا من عامّة الرعية. ويحشرون حشرًا، ليكونوا تجارًا متوسّطين وكبارًا.

و"البهاء" يداري غيرته من أبيه! ويعلن أحيانًا مقته لطبقة المماليك التي

منها والده، فهم فرسان شداد وهو لا، هم من طبقة عُليا وهو لا. هو وأمثاله أولاد المماليك العُلَى، لكنهم نسبةً للمماليك هم مُجرد جيل طري قلّ منهم من سيعلو عُلوًا بائنًا، والأغلبية الغالبة منهم طِيشة، وإن عاشوا في رخاء مَعيشَة. وفوق ذلك عرّجته بعِلّة ركبته التي أركبته أحاسيس نقص. صار وميله الداخلي مع العامّة المصرية الذين يعاملونه بالكثير من الهيبة والمُدارية، على أنّه من نسل المماليك. لا يهمّ إنّ كان ما يعطونه من أجل هناه، أو خوفًا من أبيه. له صداقات عدّة مع بعض صغار التجار خاصة تجار الذّهب والجواهر، يشاركهم سهرات بعضها سهرات ماجنة.

الزواج المُخطَّط زواج سياسة، وقيل "لعن "الله" ساس، ويَسُوس"، فإن كان أمير الجيوش "اليوسفي" بما يملك من مقدّرات الجيش في زمرته، وعشرات المماليك تحت إمرته، يأمل في انتشال ابنه من عيشة تافهة "كليشنكان"، وفرضه يومًا ما كسّلطان، فالسّلطانة تأمل بهذا الزواج أنّ تكون ابنتها مثلها سّلطانة، وفي نفس الوقت تُثَبِّتُ العرش تحت مؤخّرة زوجها "بِنْبان"، ومؤخّرة السّلطان "بِنْبان" تورّمت، فجسده تَكدَّسَ بأرطالٍ كثيفة من الشّحم واللّحم، ولم يعد الفارس القديم الهُمام الذي يُخيفُ الخُصوم، والبادئ دومًا بالهجوم. وحتى لا يكون النسب بين "بِنْبان"، و"شمس"، و"اليوسفي" قوة عليه يومًا من الأيام، اشترط "كمال الدين" العقربَ أنّ يتمّ تعيين أحد أتباعه نائبًا لليوسفي. وبهذا لا ينقلب "اليوسفي" عليه وقتما يريد، بل يصير "اليوسفي" مربوطًا في تحركات جيشه برضاء نُوابه.

المعترض الوحيد كان "حفيظ السلولي" نائب السلطنة، والصديق الودود اللّدود للسّلطان.. كان، والعشيق المستديم للسّلطانة والذي لا تستغني عنه لا في تلاحم جسد، ولا في ونسات مُفرجات عن آلام الصدور.. كان. كان السّلطان، وكانت السّلطانة، والآن "الكانتان" تنسحبان منه. تبُوخان كلّ نهار، وتتبخّران كلّ ليل، وتبهتان في كلّ مقابلة معهما. صحيح أنّ "قمر" التي يتكالب عليها العرسانِ من الفرسان في الَحقيقة من صُلبه هو، لكنّها في الحق الظاهر، والتربية ابنة السّلطان "بِنْبان"! زواج "قمر" من ابن أمير الجيوش سيكون قوة للسّلطان والسّلطانة والداودار وأمير الجيوش، وليس له، وياما في الدنيا من عجب العُجاب، ورسوخات ظاهرة تتحوّل لمجرد سراب. "حفيظ السلولي" نائب السلطنة.. في أفول.. فأذنا السّلطان دائمًا منفتحتين لنصائح الداودار، وعيناه دائمًا الاتساع دهشة من أفكار الداودار! ألا يكفيه أنّ الهوّة بينه، وبين الداودار العقرب تتسّع، وتغفر فاها؟، ألا يكفيه أنَّ كلاً منهما يأمل أنّ يكون البادئ بخلع الآخر، سواء كان خلعه بالنّفي، أو بالسّجن، أو حتّى بالاغتيال؟، ألا يكفيه أنّ أمير الجيوش يتباعد منه، ويقترب من السّلطانة "شمس"، وبهذا شمس "اليوسفي" تُشرق، وتَبرق، وشمس "حفيظ" تغرُب وتهرب؟ هذه أمور تُقلقه وتكاد تُهلكه، أمّا حزنه، فإنجابه أربعة فتيات ماتت ثلاثة منهنّ، وبقيت واحدة، حزنه أنَّ زوجته "غُزلان" تُنغصّ عليه حياته بغيرتها من عشيقته السّلطانة "شمس"، خاصة بعد مرض "غُزلان"، وذوبان شحمها، وضياع لحمها التي كانت بهما تتدلّل. تغضب قليلا، ثمّ تتناسى كلّ وثبات "حفيظ" على الجواري، والحرائر، لكنّها تثور براكينًا، وتقاتله زلازلاً كلّما جاءتها وشاية

بلقاءاته بشمس! تقسم أنّها لن تغضب إنّ هجر فراشها شهورًا طِوالاً، وانغمس في أحضان الجواري وغير الجواري، لكن.. من جسد "شمس" لا تقترب. حوار منفرد مع "شمس" هو كارثة على قلبها الموجوع. افعل ما تشاء.. إلاّ هذا الممنوع.!!

من شهورٍ عرض "حفيظ" على "اليوسفي" أنّ يزوّج ابنه "البهاء" من ابنته الوحيدةَ فيكونا معًا قوة، وتكون فرصة تولّي ابنته، وابن "اليوسفي" كبيرة في العرش، لكنّ "اليوسفي" كان أبعد نظرًا، وأعمق طمعًا، وأشمل حذقًا، فلماذا يأخذ التي تحت، مادام يستطيع أنّ ينال التي فوق؟! هو في حالة انسجام مع "الداودار"، هما معًا يريدان التخلّص من نائب السّلطنة "حفيظ السّلولي". أقنعه الداودار بأنّ يُنشِّن، ليزوج ابنه من ابنة السّلطان خَبْط لزق.!

"حفيظ السلولي" أسرّ للسّلطانة أنّ به قلقًا أنّ تقع في غرام "اليوسفي" الذي لا يقلّ وسامة، ومكانة عنه، وإن كان يزيد عنه في سنّه. "شمس" مالت فعلاً إلى "اليوسفي". طمأنت "حفيظ" أنّ مكانته لن تضعف أبدًا، فدوره معها لن تنساه، وهو عشيقها التي لا تسلاة ولا حتى باليوسفي، وليس لها من مأرب في سواه، وهو أبو ابنتها "قمر"، وابنها "صُبيح" الذي راح. هو من تحمِل له قدرًا كبيرًا من الودّ، وإن عُلِمَ أنّه يُجدد في سراريه الصغيرات، ويزيد من عشيقاته الصَّبيات، وصار يسلاها كأُنثى تقدَّم بها العمر، و لم تعد تلك الصبية الفتية التي كانت، ولا الشابة التي بالسّلطة زادت، وازدانت. "حفيظ" يحافظ على قربه منها كونها السّلطانة، فهي

قوّة قوية من القُوى المتعددة. "حفيظ السلولي"، و"شمس".. كلاهما لا يُصدّق الآخر، ولا يُصْدِقه. أقسم "السّلولي" أنّها مازالت عنده شمسه ذات الجمال الذي لا يُبلَى، والتي لا يستغني عنها، ولا يسلها. فأقسمت له أنّه لو كان قد أنجب ولدًا، لزوجت "قمر" لابنه، رغم أنّ "قمر" في هذه الحالة ستكون أختًا لزوجها! وكما لم تتقبّل "شمس" كلام "حفيظ"، فهي التي تفهمه، وتحفظه كما تحفظ أركان غرفتها، لم يرتح هو لتأكيداتها، فمن يفهم "شمس" أكثر منه؟، ومن سبر أغوارها أعمق منه؟، والرّباط بينهما مهما كان قديمًا ظاهره متينًا، فهو كبيت العنكبوت وأوهى.!

مخاوف "حفيظ" في محلّها. لم يعد "السّلولي" بالأهمية التي كانت. الأهم لها هو الأهم، ومن ذابت أهميته يصير على كتفها هَمْ. و"شمس" لا تحمل هَمًا إلا هَمّها. ولا تعرف حقًا إلا حقها. هي العنكبوتة، فبعد أنّ يلقّحها العنكبوت الذكر، تقتله، وتأكل لحمه، لتتزوّد بالعافية، وتربّي أبناءها وأبناء من قتلته! مكانة "السّلولي" تبهت، ومكانة الداودار واليوسفي تشتدّ. وزوجها السّلطان وساوسه تزيد من "حفيظ"، وغيرته تشتعل يا "حفيظ". إذن.. آن "للسلولي" أنّ يختفي، وآن للداودار أنّ يقترب، وعلى "اليوسفي" بقواه المتصاعدة الالتصاق بها، وبالمرّة كذَكر وسيم عفيّ ذكيّ تُواعده، فيعطيها ويأخذ منها، تأمنه في السّنوات الآتية، ويأمنها.. سيجمعهما النَّسَبْ؟ تصير مصلحتهما متجسّدة في مصلحة ابنيهما "قمر والبهاء"؟!

"البهاء اليوسفي".. شاب غني أشقر مثل والده. رشيق طويل بوجه

ناصع الطلعة، أخضر العينين، وبشعر ذقنه الخفيف، وشاربه النّحيف. به زكّة بسيطة حين يمشي لعيب في ساقه اليمنى. بُهر بجمال "قمر"، وتطلّع إلى مكانة تسمو بأبيه وبه بإتمام زواجه ببنت سّلطان مصر، ولربّما حسب وعد السّلطانة "شمس" يجلس على عرش البلاد، ربّما! فتكون طبقة المماليك التي يغار منها تحت إمرته، ورهن سطوته. سيحميه أبوه ومماليك أبيه.

احتفالات زفافه على "قمر" استمرّت سبعة أيام بلياليها. لعلعت فيها "القاهرة" بقصورها، وحواريها. بذخُ ليس له حد، و لم يره من قبل أحد. في الميادين، وفي الجنائن، والبحيرات ليالي سبعة طعام وشراب للجميع، وفِرق رقص ومهيصة ومزامير عديدة، وطبول من كثرتها مُرصَّصة. زاطت العامّة وانبسطت، ومن كلّ ما هو مرغوب أحاطت. في القلعة وقصرها أقام السّلطان والسّلطانة. سبعة ليالي للخاصّة وعِليّة القوم البهية. أتوا بأشهر المغانِي والغوازي وأرباب الآلات من كلّ صوبٍ وحدب. وفي اليوم السّابع أولَم السّلطان، ومدّ سِماطًا حافلاً لمجموع الأمراء وكبار المماليك، وشهابندرات التجار، بحضور شيخ الأزهر والمفتي وقاضي القضاة، وشيوخ المذاهب الأربعة. وبجانبهم كبار قسس النصارى، وأحبار اليهود. لكنّ قبل أنّ يأكل، الجاشنكير الجديد ملأ طبق ممّا أمام السّلطان من طعام، ثمَّ بدأ يأكل حتّى أتى على الطبق، ثمَّ شرب من العصائر ما يكفي. بقي دقائق مبتسمًا فلا سُمًا ولا عَفَنْا. سمَّى السّلطان باسم اللـه، ومد يده، وتبعه الجميع.

وقُرِئت الختمة، ثمّ مُلِئت الفسقيات سكرًا وماء ليمون، ليشرب الكل بالطاسات، وكلّ حسبَ ما يتسع بطنه. أُقيم هذا المهم بكلّ ما هو مُهم. وقيل إنّه صُرِف على ذلك عشرة آلاف دينار، هذا غير ما أُخذ من المخازن السّلطانية من مخزون موزون، وما دُفع هِبات للمماليك، وما وُزِعَ من جواري وسراري وعبيد.

"البهاء" عَرف من قبل أنّ "قمر" سحاقية، ولها عشيقة خاصّة لا ترضى عنها بديلا. "قمر" مخلصة لها إخلاص الزّوجة لزوجها!، لكنّه واثق من تأكيدات السّلطانة أنّ "قمر" بعد الزواج، وبعد أنّ تذوق ما لدى الرّجال من عناق، سوف تترك أمور السّحاق، بل ستنفي عشيقتها بعيدًا، لتبقى في حضن زوجها الشابّ الجميل "البهاء اليوسفي".

وفي نهاية حفلات اللّيلة السابعة، "البهاء اليوسفي"، وكأنّه نَسيَ لهفته على الفتاة التي تسبّبت في كسر ساقه وعرجته. يتحرّق شوقًا للانفراد بعروسه الرائعة. و"قمر" جسدها يقشعرّ، رفضًا لعريسها من قبل أنّ ينفرد بها، معدتها، تقلّصها يزداد لحظة بعد لحظة. مساحيق الجمال أخفقت في إخفاء حالها المفجوع، ولونها المنقوع. صارت من الهلع والجذع في بياض الجير، وكأنّ أسرتها ستُلقيها في شرٍ مستطير. أيامًا لا تنال الزّاد إلا بالكاد، ولا تشرب إلا مُضطرّة. حملوها داخل هودج باذخ على ظهر جملٍ عالٍ. زَفّة بدأت من القلعة حتّى "بِركة الأزبكية"، حيث قصر "البهاء" بحديقته الوارفة. في المقدمة وعلى جانبي الجِمال، حرس سّلطاني على خيولهم المطهمة، لابسين أزهى حرائرهم، ومتناثر عليهم أغلى جواهرهم. العبيد

على الجانبين يحملون المشاعل، وكوسات الطبل المتنوّعة ترجّ الجو بأنواع من الضربات، مزامير مملوكية وشعبية. رقص بلدي من العامّة العاديين، ومن المحترفين. زغاريد تنطلق من زحام النّساوين والبنات، فتملأ الجو فرحة. السّلطانة "شمس" ستارة هودجها مفتوحة على آخرها، سعيدة بالزّحام على الجانبين، ودعواتهم الكاذبة لها، ولهفتهم على ذهبها، وفضتها تُلقى عليهم. كلّ من يقع بصره عليها يُذهل من تأنّقها وجمالها، ومن بعيد لا ترصد عين بدايات التجاعيد، ومن فوق ملبسها لن يعرف بداية تهدّل الصدر. لكنّ كلّ هذا الزّحام يريد أنّ يرى العروس.. يريدون أنّ يروا "قمر" القمر. لم تشعر "شمس" بأيّ غيرة من ابنتها، ولهفة الناس على رؤيتها أكثر من لهفتهم على رؤيتها هي. "شمس" سعيدة، فالجميلة التي تنافسها هي ابنتها. تزيح "قمر" ستارة الهودج، لتطلّ على الناس المتشوّقة لرؤية جمالها. تبتسم حبًا للناس الفرحانة وهي الحزينة. كلّ مسافة يتم نثر النّقود الفضّة المخلّطة ببعض قطع ذهبية على الجانبين، فتكون زيطة، وفرحة الرّعية المصرية، ولا يخلو الأمر من شجار اثنين، أو أكثر على قطعة فضية، والشجار يكون أشدّ إنّ كانت القطعة ذهبية!

قصر العريس تُحفة من خوارجه ودواخله، بثروات أبيه السّائلة التي لا تُعَدّ، وإقطاعيات أراضيه التي لا تُحَدّ. تدخل العروس "قمر" وقد تمّ صبغ خديها بالأحمر، لمداراة انخطاف الدّم من الوجه. حولها وخلفها الغوازي أنصاف العرايا يرقصن بالصّاجات، وخصلات شعرهنّ تتطاير هنا وهناك، وحول الغوازي الرّجال ضاربوا الدفوف يتقافزون، وهم يضربون على دفوفهم، فتتطاير جدائل شعرهم المدهون. الجواري

يتمايلن، وزغاريدهنَّ المنطلقة في أذن العروس صرخات فجيعة عليها. "قمر" وحولها الزفّة تصعد إلى الدور الفوقاني، وكأنّها تصعد للعدم حيث سيتم ذبحها، وسلخها قبل أكلها. ترتدي ثوبًا أبيضًا طويلاً، وطرحة بيضاء حريرية هفهافة، والأحجار الكريمة تزين كلّ ملبسها. أمامها وخلفها الغوازي يصعدن راقصات على ضربات الدّفوف الفرحة وحتّى الباب.

ينتظرها العريس متشوقًا، هو أيضًا مَلَكَ مُبهر.. وسامة، وأناقة، ورشاقة. يأخذ بيدها، ويدخل بها حيث جناحهما الذي أثّثته السّلطانة "شمس" لهما ببذخ سفيه، وتَوَصَت بالمنظرة التي تطلّ على البحيرة. وضَّبتها، فجعلتها حديقة خضراء رائعة تطلّ على منظر يجمع الخضرة والماء، أمّا الوجه الحسن.. فوجه ابنتها "قمر"، وزوجها "البهاء". الزغاريد ارتفعت مدوّية. وقبل أنّ تدخل "قمر" نظرت أسفل السلّم حيث تقف هناك أمها "شمس". نظرت إلى أمّها نظرة لوم مُشبّعة بالأسى. "شمس" تمسح بمنديل دمعتين سالتا على خدّيها، لم يهمّها لوم وأسى ابنتها، تتوقّع أنّ "قمر" سوف تنجذب لزوجها الوسيم، ولذكورته، وسوف تشكرها على إجبارها على هذا الزواج.

دخلت العروس، وأغلق العريس الباب خلفهما، لتبهت كلّ الأصوات خارج مخدعهما، وليرتفع داخله الآهات المتشوّقات.

بان "للبهاء اليوسفي" أنّ الأمور مع زوجته ستكون دومًا عكس تأكيدات السّلطانة "شمس". "قمر" لا تطيق أنّ يقترب منها. لا تريد أنّ تخلع ملابسها. تبكي، ولا تريد أنّ تحادثه ولو بكلمة! تعب منها فكان

أوّل كلامها.. تريد أنّ تنام على كنبة وحدها وهو على السّرير وحده! ضاحكها لم تتأثّر. هدّدها فازداد بكاؤها. لاطفها ليطمئنها لم تأبه. أحسّ بالإهانة فأمسك بها عنوة، عضّته، فضربها، واحتضنها رغمًا عنها، وقَبَّلها فعضّته في خده. ابتعد عنها صارخًا ماسكًا خده الدّامي. هجم عليها مُمزقًا فستانها وطرحتها. تقاومه بشراسة، فلكمها في بطنها، وأسقطها على السّجادة السميكة. تَعَرَّا هو أوّلاً، ثمّ هجم عليها مُمزقًا كامل ملابسها، فعَرّاها رغمًا عنها، وألقاها أرضًا. جمال جسدها سكب النّفط على ذكورته المشتعلة. ارتمى فوقها ليفَضّها وهي تقاوم بشراسة، وتلعن وحشيته. تلاحم جسديهما، ونجح في فضّها. فثارت ثورتها أكثر، وصرخت صرخة فزع رهيبة، ودفعته بكامل غيظها فخرج منها. ومع الاحتكاكات والشّبق وصل العريس لذروته، فسكب على خارج ما بين فخذيها. اعتدل منتصبًا على ركبتيه يلهث، ويمسك بمكان العضة التي تؤلم خدّه، ناظرًا إليها في ضيق. "قمر" رفعت جذعها ناظرة لما سكبه بين فخذيها في رعب وقرف، بكت وهي ترى ماء الذكر مُخلَّطة بنقاط دمها المغتصَبة. ابتعد "البهاء" عنها وهي تتقيّأ. قامت ونَفَسها مضطرب لتغطّي نَفْسها. تتقيأ أقل القليل فليس في معدتها الكثير. لوّثت أكثر من موضع. تستحمّ وهي تبكي، وتدعك جسدها في قسوة. تعطّر فمها، حتّى تبعد آثار بدن ونَفَسْ الذّكر الذي نكحها رغمًا عن أنفها.

الصدمة شديدة عليها، وعلى "البهاء" أشدّ. فعلاً.. عند صفو الليالي يحدث الكَدَر، ومن المأمن يأتي الخطر. من قبل أنّ يغتسل جمع أقرب عبيده، وجواريه في حجرة جانبية. من البداية أحسّوا بدوي سقوط بعض

قطع أثاث حجرة العروسين، فعلموا أنّ هناك دَرْبَكَة، ثمّ سمعوا صراخ العروس، وزعيق العريس فتأكّدوا من نشوب معركة. وإحداهم أجلسته لتعالج جرح خَدّ "بهاء"، ولا أحد منهم يعلم أنّ جُرح نفسه أكبر وأخطر، أعلن "بهاء" لهم أنّه طلق زوجته "قمر"!

في الصّباح كان أبوه وأمها في القصر. بضغط شديد وافق "البهاء" على إرجاع "قمر" زوجة له، لكنّه أقسم أنّه لن يقترب منها. صدمه للأسرتين وخيبة. طلاق "البهاء اليوسفي" سوف يسيء، ويضر بتحالفهم الثلاثي القوي.. "شمس" و"اليوسفي" و"العقرب". أعطوا الإذن للبهاء أنّ يُخصّص لنفسه أكثر من محظية، وسرّية كما يشاء، لا لوم عليه إنّ ضاجع كلّ ليلة جارية، لكنّ مرفوض أنّ يتزوّج زوجة ثانية. اتفقوا على منحه لقب أمير في أوّل فرصة تسنح، رغم أنّه لا يُعَدُّ من المماليك الحقيقية أصلاً، فهو من أولاد الناس ليس إلاّ، ولن يعترض أحد، فهو زوج ابنة السّلطان، وابن أمير الجيوش، ومن يعترض لن يُجاهر باعتراضه. وفي المقابل "قمر" تأتي بعشيقتها "رجبيّة". عادت "رجبيّة" لقمر، لكنّها لم تعد بكامل طاقتها، وعنفوانها المعتاد، انكسرت بالتعذيب، والإهانات، مرعوبة من الآت، فربّما الآت يكون أنْيَلْ من الذي فات.!

اتخذ "البهاء" ثلاث حجرات منفصلات في الدور الفوقاني يطلونّ على الحديقة الداخلية. يقضي أيامه ولياليه في حزنٍ وضيق. في إذلال أنّه مُضطر أنّ يُبقي على زوجته التي صدمته، وعَكّنَتْهُ بشذوذها. وما يضايقه أكثر، اضطراره للموافقة على بقاء عشيقة زوجته في قصره الخاص! عنده

العديد من الجواري أشكال وأنواع جمال. يأتي بمن يريدها، ويمارس كلّ طرق الجَماع بقدر ما يُستطاع، لكنّه حريص تمامًا ألاّ تنجب أيّ جارية منه. ومازال يحلُم بسراب قديم لم ينخلع عنه. حبّ قديم وإن تلهّى عنه أيامًا يتشوّق لجسد "قمر". يستحلب الذكريات، ويمدّ أصابعه ليلامس طيف صبية صَبوح، فلاحة صغيرة فقيرة قلبه يهفوا إليها، وينوح.

"شمس" لم تصمت على هذا التهديد، لن تسكت، ولن تسكن قصاد هَدَدْ آمالها، وتخطيطها البعيد. لن تترك ابنتها "قمر" بدون نكاح سليم يأتي لهما بنسل عظيم. فكان سندها، وصاحب مفاتيح الحلول الأكثر أمنًا تحت أمرها.. "حفيظ السلولي". في هذا السرّ الحسّاس يكون "السلولي"، فهو ليس بكم الغدر الذي في قلب، ونفس "كمال الدين" العقرب. وما في بالها من تخمير لن يرضاه عشيقها الحالي "اليوسفي"، فالتخمير ضدّ ابنه الغرير. "السّلولي" سيسعد بعودتها، ثمّ إنّ "قمر" ابنتهما، ويجب أنّ تحبل خلال أيام ليس إلاّ، وعندها الفكرة، وعلى "حفيظ السّلولي" أنّ ينفذ.

تقابلا في مكانٍ ناء. تعانقا، وبثّا لوعتيهما، واشتياقهما الكاذب لبعضهما. تضاجعاٍ، وبعدها هطلت دموع حقيقية من عيني "شمس". تشكو مقالب الحياة التي فرضت عليها الزواج من الغبيّ القبيح، وأنّ تختلي خفية بالذّكي المليح. ثمّ دخلت في الموضوع.. ضرورة حَبَلْ ابنتهما "قمر". بينت للسّلولي ما في نفسها من تخطيط حويط. سعد "السّلولي" بهذه المهمة، فمازال مهمًا عند "شمس"، وسوف يمسك عليها سرًا يُقوّيه ضدّها، وضد منافسيه "كمال الدين" العقرب، و"اليوسفي".

ليلة بعد أنّ تناولت "قمر" عشاءها، النّعاس غلبها بسرعة، وهذا ليس

اعتيادها. نامت. فجاء دور المملوك "تُركي"، فيه كلّ المواصفات التي أوصت بها "شمس". شاب وسيم ذكي كتوم من المماليك الصّغار التابعين لحفيظ.

تسللِ "تُركي" إلى القصر بمعاونة أعوان السّلطانة "شمس". ضاجع "قمر" المُخدَّرة، وانسلّ راجعًا. فكانت هذه المضاجعة من جانب واحد، فيها الفوائد العظام له.. ظاهريًا، وباطنيًا.. جلبت له الوبال. تمتع "تُركي" برضاء سيده "السّلولي"، وتأكد أنّه صاعد في الأعالي، ولم يعد بنهايات الأمور يتفكر ويبالي. وقبل أنّ تلد من أحبلها، أرسله "السّلولي" في أمر. مهمة في صعيد "مصر". ولم يعد منها! أغُتِيل في الصحراء، ودُفس بحفرة تافهة لا قبر، وبهذا تم قَبْر السر.

وتكرّ الأيام، واللّيالي.

"قمر" لا تُصَدق حَبَلها! كيف وزوجها في محاولته اليتيمة قاومته في موقعة دموية، فأفرَغ ماءه خارج موضعها؟! بطنها تكبر، وأعراض الحَبَلْ تظهرًا! فكّرت في إجهاض نفسها، إلاّ أنّ "رجبيّة" أقنعتها بترك الحَبَلْ ينمو، ويعطيها ابنًا أو بنتًا، وبهذا تبتعد عنها أمّها "شمس"، ويتركونهما في عشقهما. "رجبيّة" آلام غيرتها من حَبَل عشيقتها الأميرة "قمر"، لا تقلّ عن آلامها حين سجنوها، وعذّبوها في سجن القلعة. لكنّها خشيت انقلاب وعقاب السّلطانة، قبلت بحَبَل "قمر". المتألّم المشدوه هو الزوج. أكد له أكثر من حكيم أنّ الحَبَلْ ممكن حدوثه بسكب ماء الرجل على موضع المرأة الخارجي. اقتنع نصف نصف، والنّصف المتشكّك كلّ ليلة

يتباطأ في المرواح، ولا ينزاحِ. وانتظر مصدومًا مكلومًا، ومقته لقمر يزداد يومًا بعد يوم. لم يرها مطلقًا وهي منتفخة البطن زائدة الوزن. حتّى كان يوم ميلاد ابنه. السّلطانة "شمس" قبلها بأيام ذهبت إلى قصر "البهاء" داخل "تختروان" مُثبّت على جملٍ عظيم. حولها فرسان بأسلحتهم، وفخامة ملابسهم، ووسامة مظهرهِم على صهوات خيول مطهمة يتبخترون. وخلفها عبيد سود بخرزانات مُشهِرات يسرعون خلف الجمل. ذاهبة مشتوّقة متلهّفة.

تمت الولادة، وحول الأم مجموعة من الدايات الخبيرات. السّلطانة "شمس" تحمل الوليد. تنظر له، وتناغيه في عشقٍ أموميّ عميق. تماهى وجه ابنها "صُبيح" الذي مضى مع وجه حفيدها الذي أتى. أمسكت دموعها بصعوبة. مدّت "شمس" ذراعيها بالوليد لـ"لبهاء اليوسفي". قطعة لحم مُحْمِرة في قماشة لينة بيضاء. مُغمض العينين، ويطلق صريخًا رفيعًا حادًا. أخذه "البهاء"، واحتضنه. قبَّل جبين الصّغير، وجيشان حاله يرفرف ويطير! طوفان حب انبثق منه لهذا الوليد المشكوك في نسبه. "البهاء" نظر إلى والده الأمير "اليوسفي"، اقترب منه خُطوة، وهمس في أذنه.

- "أنا حاسس إنّ السّلطانة مبسوطة معاك!"

ارتدّ "البهاء" خطوة، وكأنه لم يقل شيئًا ذي بال لوالده. "اليوسفي" أخذ برهة واحدة ينظر إلى ابنه "البهاء" في دهشة. التفت إلى السّلطانة مبتسمًا ابتسامة دهشة المفاجأة، فضحكت السّلطانة "شمس" من تلك النظرة الغريبة، وفهمت أنّ "البهاء" همس بشيء ما لوالده، فأدهشه، وحيّره..

- "مبروك يا أمير الجيوش، وإنت يا "البهاء" يالا اختر اسمًا لابنك."

- "ضَيْ."

- "ضي إيه يا البهاء! كفاية إنت البهاء، ومراتك قمر، وحماتك شمس! وابني اللّي مات "صُبيح". الناس اتزغللت من نورنا. هاها.. لا يا جوز بنتي لا. إحنا في أيامنا الجاية محتاجين "حسام". "بص لبعيد يا البهاء!"

- "لكنّ يا مولاتي.."

- "انتهينا. مبروك يا أبو حُسام. وأنت يا أمير الجيوش المصرية، بقيت جد حسام. بقيت عجوز."

- "هاها. "حسام" حيفضل جامع بيني، وبين مولانا السّلطان الأمجد "بِنْبان". وبيني وبين مولاتنا السّلطانة "شمس"."

"اليوسفي" قال جملته الأخيرة، ونظر إلى ابنه "البهاء" نظرة فِخار لا تحمل أية دهشة.

الذي لم يكن موجودًا هو نائب السّلطنة "حفيظ السلولي". كان يتمنّى التواجد، لكنّ ليس له مكان في هذا الاحتفال، رغم أنّ الوليد حفيده من "قمر" ابنته في الخفاء. تأكّد وقتها أنّ مكانته عن "شمس" تذهب هباءً، وأنّ بالفعل أمير الجيوش "اليوسفي" قد احتلّ مكانه في عقل، وقلب السّلطانة وأيضا بين فخذيها!

عادت السّلطانة إلى قصرها بالقلعة. لم تذهب إلى حُجرة السّلطان المريض ببطنه. دخلت حجرتها مُتحسرّة على فتوتها التي ذهبت. صارت

جدّة! تقدّم بها العمر، وعَبَرَتْ على جسدها ووجهها الجميل سنوات من بعدها سنوات. تبكي فِقدانها لابنها "صُبيح". تنظر في مرآتها الشاسعة، تقترب، وتقترب، وتتمعّن في وجهها.. تجاعيد تتجسّد، تمسك بخصلات شعرها الذهبية.. تُواصل صبغة، لكنّ الخيوط البيضاء مُصرّة على التكاثر والتجدّد. الرقبة.. كرمشات، ونحول. الصّدر من بعد تحَدّي، وشرعة في الصدام آخذ في ذبول. لهذا سلاها "السلولي"، واتخذ عشيقات.. وسوف يسلاها "اليوسفي"، ويكثر من الرّفيقات. لكنّها مازالت جميلة، مازالت "شمس".. "شمس"، وإن كانت آخذة في الذبول.. هابطة لغروب.

"قمر" تحتضن وليدها. الطفل ينظر إليها مُستطلعًا مستفهمًا. تنظر إليه مُندهشة. ترضعه فتتدفّق منها مشاعر أُمومية حانية سامية. قلبها معه، ونَفْسها ضده لذكرى ليلة زواجها البشعة، حيث مازلت تظنّ أنّه طفل هذه الواقعة. وضدّه؛ لأنه جاء ذكرًا لا أنثى، ضدّه فهو سبب غيرة "رجبيّة" الهوجاء التي أثّرت على تدفّق مشاعرهما التي كانت سَلِسة، رغم أنّ "رجبيّة" هي التي نصحت باستكمال حَمْله!، و"رجبيّة" وإن كانت، ومازالت تكره السّلطانة كراهية عمياء. صارت تكره "حسام" رضيع عشيقتها أكثر، وأكثر وأكثر. ترفض مجرّد أنّ تلفظ "قمر" باسم رضيعها أمامها، أو تبين شفقتها على هذا الرضيع الضّعيف المسكين. "قمر" ترفض إرضاع وليدها، وتتركه لمرضعة بالأجر. تضغط على ثدييها المتألّمان من زخم اللّبن، لتفرغ حمولتهما. ثمّ تحنّ للإرضاع، فيأتون به لترضعه، ثمّ لتتركه، فهي في صراع داخلي شرس بين أمومتها النهرية الفيضانية، وما يعترضها من جنادل صَخرية جرانيتية.

وفي هذه الأيام، أيام ضياع "قمر" ما بين أمومتها الفطرية، ومتطلبات شذوذها القسرية، وحبّها الهائل لرجبيّة، بدأت تشارك عشيقتها "رجبيّة" في مصّ الأفيون، ونزلت إلى حديقة القصر، ليس فقط للتريّض، بل لتزرع الورود وترعاها، ثمّ زراعة أشجار الفاكهة، خاصة أشجار البرتقال التي تهوى التهام ثمارها. أمّا متعتها، ومتنفس كبتها، وحسرتها بعد لقاءات "رجبيّة"، ففي عزفها على العودِ عزف حزن وغيوم، حتّى تنهال من عينيها سيول الدموع، ويتأثر، ويشفق عليها كلّ من يسمع هذا العزف الشَّجيّ الأسيان المهموم.

"شمس" وقد صار حفيدها "حسام" هو مُهجتها، وحياتها. أحبّته حبًا لم تكن تتصوّره، تحبّه حبًا أكثر من حبّها لابنتها "قمر". عرفت بالهوة التي بين ابنتها، وحفيدها "حسام"، تأكّدت أنّ "قمر" لن تكون الأمّ لهذا الرضيع الحبيب. أخذته لتربيه في قصر القلعة. صارحت البهاء..

– "الطفل حسام، عايز تربية تمام، عايز شيَ اهتمام. سيكون يومًا من الأيام سّلطان محروسة."

وافقها "البهاء" رغم حسرته بابتعاد "حسام" عنه، فمصلحه الصغير "حسام" تهمه، وقد تأكّد من خيابة "قمر" كأمّ. والسّلطانة "شمس" حبًا في حفيدها لن تُبعده عن أبيه، طالما ألاّ خطر من أبيه على طموحاتها.

السّلطان الأمجد "بنْبان" مازال لا يصدّق، ولا يتقبّل شذوذ ابنته "قمر". لا يستطيع استيعاب أنَّ فتاة جميلة في شبابها الغضّ تمرض من قرب الذّكور منها، وتستحبّ الإناث! أتاها ليقنعها ببقاء ابنها معها. رفضت.

أمّها "شمس" أقدر على تربيته منها، قبل أنّ يعود السّلطان إلى القلعة، يريد أنّ يشكو هوان حالة لابنته "قمر"، فهي التي تحبّه حقًا، وهي التي يحبّها حقًا، فابنته الثانية "هناء" بعيدة في "الإسكندرية". وقف أمام ابنته يحرّك يديه في حيرة. أسارير وجهه تبين كم هو عاجز عن شرح بؤس حاله. "قمر" دخلت فيه، واحتضنته. لقد عبّر أبوها بوجهه ويديه، وانحناء ظهره كلّ الهوان الذي هو فيه.

بعد أنّ ترك قصر ابنته، بكى في صمت وهو عائد إلى القلعة. "قمر" قلقة على نفس أبيها المتدنّية، وعلى صحّته المتردّية. شحمه زاد وازداد، وساقاه متْعَبَتان، وعيناه منطفئتان. أبوها وقد أحس بابنته المُحبة في حضنه، استطاع رغم دموعه بثّ كلماته المحشورة بين ضلوعه..

– "جسمي تعبان. أنا مش الفارس بتاع زمان. عافية ما فيش. ممكن خصي يرميني على الأرض بزقّة واحدة. احترام تمام مفيش. حساب للسّلطان مفيش. أنا أقعد على سرير السّلْطَنَة، ما يكون على رأسي عمامة سَلْطَنَة، لا.. على رأسي طرطور. أبوكِ يا "قمر" اسمه السّلطان الأمجد طرطور.!"

عَلم كما علم من في القصر، أنّ الرعية الحَوَشْ أطلقوا عليه نعت "السّلطان الأمجد طرطور"!، فكان نعته حتّى بين المماليك نفس النعت.. "السّلطان طرطور".!

"البهاء" لا ينقضي يومان إلاّ ويزور قصر القلعة. لا يصبر على الابتعاد من ابنه، ابنه ويحبه حبًا جمًا، مهما كانت الشّكوك. كُرهه

لقمر زاد لبرودها تجاه ابنهما. حقده على "رجبيّة"، واستحواذها على زوجته اشتعل نارًا، لكنّ ما بيده حيلة.. يلحّ كلّ فترة على أبيه أنّ يترك له الحرية في تطليق "قمر" والزواج من غيرها؛ ليعيش عيشةً سوية. أبوه يُصبرّه، السّلطان خائر، والصراعات الخفية تزداد، وسوف تنقلب في أية لحظة لحروبٍ دموية، وربما راح فيها أبوه ذات نفسه وهو قائد الجيوش. لذلك فالعشق بينه وبين السّلطانة، وأنّهما معًا جدًا "لحسام"، وبقاء ابنيهما في زواج، كلّ هذا قوّى لتحالفهما معًا، وقوة مزدوجة ضدّ "الداودار" العقرب، حتّى لا يلعب بأي منهما منفردًا. أنهى كلامه مع ابنه ناصحًا..

- "يا بني.. لا تحالفات تدوم، ولا صداقات تطول. المصالح، وخد دي وهات دي، هيّ الأساس. أهذا أفضل يا البهاء، أم قطع الرّاس؟!"

صار قصر "البهاء" ملتقى بعض الأصدقاء من أبناء كبار التّجار، والتفّ حوله بعض العيّاق. يأتون بالمغنّين والمغنيات ويسهرون للصّباح في طعام وشراب، وتحشيش. و"البهاء" يذهب إلى قصورهم وبيوتهم الواسعةٍ؛ ليسهر لديهم للصّباح. وكثيرًا ما يسهرون على شواطئ البرك المُنعشة. هم الذين يُرِوَّحُون ضيقه، ويُرَيِّحُون غضبه. "قمر" لم تأبه بما يفعله، بل انبسطت له ولنفسها. فليكن كلّ منهما غاطسًا في حياته الخاصّة.

نهـايتـــه..

7

من سنواتٍ مضت..

"إبراهيم"، وزوجته "زكية"، وابنهما "عَزّازي"، وابنتهما الصّغيرة "نَجِيَّة"، أسرة تعبانة عَيّانة في قرية فلاحين كَحيانة. و"إبراهيم" فلاح قَراري تخطى الثلاثين. يُخَيَّل له أنّه بمجرد نزوله من بطن أمّه سعى مباشرة إلى الأرض، مشاركًا والده، وإخوته الكبار في العَزق. تكرّ عليه السنون كرًا، مترعة عرقًا، مشبعة ظلمًا، وإجحافًا بردًا وحرًا، فيصير بدري بدري كهلاً مُتْعَبًا. غضون وجهه، ورقبته وكأنّها أخاديد حُفرَتْ بأزميل حديد. وما يهري مصارينه، ويحرق قلبه.. أنَّ الأرض أرض أجداده القدامى، فهم من حوّلوا المستنقعات، والبراري إلى وادي يُثْمِرُ بالخير الأخضر والبركات، لكنّها صارت من عهد أجداده الأقربين، وكأنّها أمر قديم جاء خيالاً، وفات، كان حيًّا ومات. صارت أرضه مملوكة للحاكم وبطانته! سواء كان الحاكم ملكًا يطغى بدون مداراة بأي كلام، أو خليفة يتجبّر من خلف ستار

الإسلام، أو سّلطانًا يجمع بين هذا وذاك. وحول كلّ طاغوت كام هلفوت هُم أتباعه الألاضيش ذوي الغطرسة الكذابة، ونَفْشْ تفاهات الريش، وكلّ منهم لص حقير ما يختشيش.

"إبراهيم" يعشق القمح، ويعتبره الذّهب الحقيقي، ويحبّ الأرز، ويحصده على أنّه الفضّة الحقيقية، لكنّ لا هذا، ولا ذاك يبقى كاملاً لإطعام أهل بيته، بل ينقص نقصانا هائلاً يصيبه، ويصيب أهله بالحسرات المحرقات. الآن.. في عصر المماليك الثاني، الذي لم يكن مثل الأول في بعض بطولاته، وصولاته وتعلياته، والذي زاد سوءًا بخراب وصول عصر العثماللي. الآن صارت "مصر" بكاملها، وشاملها مقصومة مقسومة على أربعة وعشرين قيراط، أربعة قراريط للسّلطان، وعشرة للأمراء، وعشرة للجند المملوكي، أيّ للجيش، أما الرعية المصريون فلهم مَفيش.!

ولما قُتِلَ "شنْدَرْ"، انتقلت ملكية أراضي القرية كلّها في قسمة ضِيزَى إلى كلٍّ من نائب السلطنة الجديد "حفيظ السلولي"، والسُلطانة "شَمس". وكان من المفروض أنّ تنتقل كلّها إلى الأمراء حسب التقسيمة اللّئيمة، لكنّ السّلطانة الطمعانة نَطّتْ على القسمة المتّبعة، وحشرت نفسها، وأيدّها نائب السلطنة، وأمير الجيوش، و"غطرش الداودار" ظاهريًا، وأيد تَذَمّر المماليك باطنيًا، فسكت الأمراء إلى حين، وأسرّوها في أنفسهم مدة سنين.

من قَبْل هذا السّلطان وبيت المال ضَرَبْ تَفْليسَة. ويقال إنّ السّلطان معذور ياناس، وكذلك الأمرا وكلّ الغُزْ. مبقاش الدهب والفضة داخل لهم زي زمان. طب ليه؟، إيه اللِّي حَصَلْ، وخلّا اللّي حَصَلْ حَصَلْ؟

بجيب جامعي الجبايات المضاعفات، محاولين إقناع متاعيس الحرافيش، وغلابة الفلاحين، وغيرهم من الضَبَشْ والرَكَشْ..

– "الفرِنجة الملاعين اللِّي حاربوا الإسلام والمسلمين، من سنين لفّوا من طريق في البحر البعيد، ومعادش نصارى الفرنجة كلاتّهُمْ محتاجين بضايعهم تِعَدّي على "مصر"، وتدفع المكوس للمسلمين! يعني بالعربي الفصيح.. تركوا الطريق الذي عمله ربنا لصالح المسلمين، وراحوا الطريق تاني عمله شيطانًا من الشياطين! والأكادة مش بس كده. كمان مراكبهم بتضرب مراكبنا على شط الحجاز.

أحد السامعين سأل في دهشة..

– "شطوط إيه؟ الحجاز! مُشْ دي اللِّي فيها "مكة" بتاعتنا، وفيها شِبّاك النبي عليه الصلاة والسلام؟!"

– "تمام."

– "يالهو بالي."

– "يبقى الجبايات الزيادة ضرورة، ولا لأ يا مسلمين؟"

فلاّحو القرية كلّهم كما المتاع يتبعون مالك الأرض. انتقلوا أخيرًا من أملاك الأمير المقتول، ليكونوا عبيدًا عند المالكين الجديدِين! وعلى رأي المثل.. "ما أظرط من سيدي إلا ستّي"! عليهم يفلحوا الأرض، ويرووها، ويتابعوها، ثمّ يحصدوها، ليأتي أتباع السّلطانة "شمس"، ونائب السلطنة "حفيظ" من عسكر، ومسئولي الجِباية يِلْطُشوا الحصاد تحت اسم "ضريبة

الخَراج". وأصلًا من عصر السّلطان المائل، الغُزْ زادوا في عَصْر أولاد البلد بكلّ أنواعهم.. الجبايات زادت الضعف، إشي زيادات مُكوس على التجّار، والصنايعية المظاليم. إشي زيادات جزية على القبط واليهود، وإشي زيادات الخَراج على الفلاحين. وأتباع الغُزْ الخُبَثَة كلكعوا جبايات جديدة.. إيشي جمكات، وإيشي أوزان لحم، وعيش، وتوابل، وشمع، وعليق، وزيت. وبعد كلّ ده.. شبِع لم يشبعوا! فلفّقوا جباية كمان سمّوها "جباية الطعام"! أحد عشر إردبًا من القمح!! يعني حال الزفت زادوا عليه قطران. فماذا يِبقى للفلاح؟! تبقى له الوكْسَة، وإن تململ، أو بان على وِشّه إنه يتأمل، يتهري ظهره من الكرابيج ألف لسعة ولسعة. وأخْذ الخِراج وجباية الطعام يكون عُنوة.. جلدًا بالكرابيج، وضربًا بالفلكة، ولطعًا على القفا، وصفعًا على الوجه، مع ما تيسر من السِّباب الذي لا يترك كرامة للفلاح، ولا مقام أبويه، ولا صيانة زوجته، وبقية نساء أسرته، فلا يبقى "لإبراهيم" وغيره من غلابة الفلاحين، غير الانسحاق، والحسرة، وثورة مكتومة تريد الانفجار، والعصف بالظَلمة الغُزْ، وأتباعهم من الفلاحين أنفسهم. لكنّ ثورتهم، وعصفهم مكتوم تحت طبقات من الخوف، والاعتياد على الانصياع، وتفسيرات دينية مُلَوَّثَة من شيوخ الفَتّة، وأمثال وأقوال شعبية خايبة مُكدّسة. وكلاهما يحضًا على الصبر، وحقيقة يحضّا على الجُبن، فيرضى أصحاب الأرض (الفلاحين) بهذه العيشة، وما هي بعِيشَة.

صباح يوم.. مراهق أشقر صغير ابن أمير مملوكي خطير. جاء في فسحة لقرى الفلّاحين. فلا مشغوليات عليه، ولا مسئوليات. لا يُعتبر مملوكًا

وإن كان ابن مملوك. المراهق على حصانه يتريّض، ويتابعه خفير بعصاته الغليظة كحرس شرف. الفلّاحون يعتبرونه مملوكًا.. أليس غنيا أشقر على حصان؟! أليس هو آتيا من قِبَل الغُز المفتريّة، للفسحة في قريتهم الفقرية؟! المراهق على الحصان، والخفير العدمان يجري بجانب الحصان. على يسارهما الغيطان خضراء مزهوّة، وعلى يمينهما الترعة منخفضة ممتدّة. في هذه النواحي سيتم تخصيص أفدنة محدودة له. البنت "نَجِيَّة" لم تتعدّ الثالثة عشر وسط كوكبة من البنات، يغسلن ملابس، ومواعين بيوتهنّ في مياه الترعة التي تصل لمنتصف سيقانهنّ. البنات مشمّرات الأكمام، رافعات ذيول جلابيبهنّ، ويربطنها في خصورهنّ لتسهيل الحركة. منهمكات في الغسيل والحكي مع بعضهنّ. سيقانهنّ، وأذرعهنّ المكشوفة لِما فوق الرّكبة وأعلى صدورهنّ تبرق. يتضاحكن، وشعرهنَّ ينسدِل على جانبي الأكتاف وعلى وجوههنّ، فيُبعدن الخَصلات في دلالِ أُنثوي صبياني. المُشاغَبات، والضحكات الطفولية المراَهقية تتصاعد. أطفال يستحمّون عرايا بجوار البنات، وثلاثة لامستهم فترة المراهقة توغلوا داخل الترعة في الغويط، استعراضًا لمقدرتهم وفتوتهم، وفي نفس الوقت يراقبون بنظرات شهوانية لحم الأفخاذ، والأثداء النيئة منها، والرّجراجة. مرح وفرح البنات رغم ما ترزح تحته قراهنّ من نكبات!

"نَجِيَّة" بينهنّ متألقة بفتنتها، وجرأتها، وبصوتها العالي، وضحكها الغَنجي، وأيضًا بلسانها السّليط. خلال انهماكهنّ في الغسل، والضحك تأخذ "نَجِيَّة" لحظات من الرقص الفلاحي وهي تُصفّق، فيترك البنات ما في أياديهنّ، ليصفقنّ لها، ويزغردن، ويغنين.

- "ياللي ع الترعة حَوِّدْ ع المالح."
- "ياللي ع الترعة حَوِّدْ ع المالح."
- "وِسطي بِيوجعني!"
- "من إيه؟"
- "وِسطي بيوجعني من رقص امبارح."
- "ياللي ع الترعة حَوِّدْ ع المالح."
- "صدري بيوجعني!"
- "من إيه؟"
- "صدري بيوجعني من قرص امبارح."
- "ياللي ع الترعة حَوِّدْ ع المالح."

يضحكن مسرورات بتجراتهن وتفجر شهوتهنّ. على بُعد صبي يدّعي الانشغال بأمرٍ وهو يراقب صَبيَّة من الصبايا. البنات يتسمن للصّبية التي يترصّدها الصبي العاشق.

المراهق الأشقر أوقف حصانه، وأخذ يتملّى في هذه الفلاحة الصغيرة ذات الوجه الصّابح، والصوت الصّادح. صدمته بفتنتها الفلّاحية. كيف أخذته من مجاميعه؟. هكذا! استحلاها جسدًا ونفسًا. "نَجِيَّة" قصيرة مدكوكة. فخذاها وذراعاها ممتلئات ناصعات، وصدرها أكبر من عمرها. طلب أنّ تأتيه تلك الفتاة. يريد الحديث معها.. أنّ يتأمّل في صباحة وجهها، والألق المشعّ من داخلها. يريد أنّ تقترب منه ويقترب منها. أسرع الخفير حامل العصى الغليظة ينادي..

- "نَجِيَّة. إنتِ يا بت، إنتِ يا مَقصُوفة الرقبة."

ارتعبت "نَجِيَّة" ، وأنزلت جلبابها ووجهها ضَرَبْ أحمر. البنات توقّفن عن الغسل، مراقبات متوترات، والأطفال أسرعوا هاربين، والثلاثة في وسط الترعة بقوا مراقبين. خطوات صعدتها "نَجِيَّة" إلى الضفة وأسفل جلبابها مبتل بالمياه. الخفير أمسكها من ذراعها وسحبها مقتربا بها من الحصان وراكبه. تَرك الخفير ذراعها ووقف خلفها يَبُصْ على المملوك الصغير بَصّة طاعة مخلطة بالخبث. "نَجِيَّة" خطفت نظرة سريعة من المراهق الأشقر المتربّع على ظهر الحصان، ثمّ بقيت ناظرة للأرض المتربة. إنه شاب جميل، على رأسه طاقية صغيرة مُزركشة لا تخفي، ولا تمنع الشّعر الذهبي اللّامع المنسَاب. الأشقر من فوق الحصان يتمعن فيها مبتسمًا ابتسامة فيها الكثير من حميمية الطفولة القلبية، وشهوة المراهقة الجسدية النيئة.

"نَجِيَّة" لم تستطع السيطرة على لهفة اشتعلت داخلها، رفعت وجهها ناظرة إليه مرة ثانية، وكرّرتها ثالثة ورابعة، وقد أُصيبت بما خال لها أنّها نزوة بنات، وليست جناية. المملوك شاب صغير يَشِعّ جمالاً وغِواية. أشقر ولون الدم نثر الحُمرة المغرية على خدّيه، وخصلة شعر ذهبية استلقت على جبهته في حنوْ. شاربه، وذقنه خفيفان ذهبيان كزغب الطيور التي بدأت في النمو. عيناه واسعتان تبثّان خُضرة المزارع. ابتسامته مُغرية بشفتين تبثّان لهفة القبلات. ملابسه كامل الأناقة، وتمام الرشاقة، وطاقيته مُذهبة رقيقة. ضربها بحلاوته، فارتجّت، وفزعت أكثر

مما كانت فزعة. يُحادثها بلطف، وهي لا تفهم أيّ كلمة من كلماته التي لم تسمعها من قبل، والمخلّطة بلهجةٍ شاميةٍ غريبة.

أشار المراهق الجميل لها لتتبعه، ثمّ نغز حصانه، فعاد به. لم تتحرك "نَجِيَّة". الخفير يريد مراضاة المراهق ابنِ الأمير الخطير. أمسكها من ذراعها مرة أخرى ليجرها. ارتعبت "نَجِيَّة".. إلى أين سيذهب بها؟، وماذا سيفعل بها؟ عضّتْ يد الغفير، فصرخ وتركها. أسرعت "نَجِيَّة" هاربة لوسط الحقول. الأشقر أسرع على حصانه، فسبقها، وقطع عليها الطريق يلاعبها، ويضحك لها مُؤكدًا أنّه لا يريد بها سوءًا. صرخات البنات، وقد خرجن من الترعة عمّقت رعب "نَجِيَّة"، فزادت من صراخها. الأطفال الثلاثة سبحوا سريعًا إلى الضفّة، والتقطوا جلابيبهم في أياديهم، وأسرعوا عرايا متفرّقين ليبلّغوا آباءهم. الفلاح المراهق الذي كان يحوم من بعيد اختفى.!

"نَجِيَّة" تصرخ، والبنات يصرخن، وهنّ يهربن ناحية بيوتهنّ تاركات ما كان بأياديهنّ. "نَجِيَّة" تحاول الإفلات، والشابّ بالحصان يحاصرها سعيدًا مبهورًا برجرجة فلقتيها من الخلف، وثدييها من الأمام، وهي في هذه الورطة لم يفوتها ملاحظة أنّ الفتى وهو يتأرجح مع وثبات ظهر الحصان، أنّ شعره الذهبي ينهض برشاقة، ويعود ليسترخي مكانه في أناقة، وخصلة منه تتقافز على جبهته البيضاء الناصعة العريضة! وحين وقعت على الخضروات المزروعة، ونهضت وقد تلوّثت بالطين ازدادت أنوثة، وروعة في نَفْس المراهق، توقّف عن مطاردتها ليهدئ من فزعها.

يكتفي بمتابعتها بحصانه من بُعد خطوات يرجوها ألاّ تخاف، وهي لا تفهم كلماته. تسرع مبتعدة لتقع مرة ثانية، وثالثة. انقطع نفسها، فاتخذت شجرة ضخمة حاجزًا بينها وبين المملوك المقترب. أُخذت تنهج، وتبكي وهي تبحلق في وجهه الوسيم، وهو جالس على صهوة حصانه، متوقفًا عن الكلام، رافعًا يديه عاليًا علامة على السلام. بدأت تَعي أنّه لا يريد بها سوءًا. هدأت.. تتمعّن فيه.. عيناه تشعّان طمأنينة، وتاج شعره من حول وأسفل طاقيته مستقر، والخصلة الذهبية نَعسَتْ على جبينه. كَم هو حُلوُ هذا الغُز الصغير! تُرى.. هل هو أمير؟

الفلاّحون يأتون من هنا، ومن هناك على صرخات بناتهم. مَنْ على رأسه طاقية جربانة، ومَنْ يربط حول رأسه منديلاً مُتهرئًا هو خرقة عدمانة، مَن هو مشمِّر جلبابه، ومن وضع طرف ذيله بين أسنانه. العرق يكسوهم والطين الطري، والجاف يُلوّث سيقانهم، والغيظ كاسي وجوههم.وهم يصيحون ويلعنون. بعضهم يمسك فأسه، والبعض يمسك منجله، والبعض بالعصي الغليظة. أشهروا أسلحتهم صانعين سدًا بين الحصان، وبين "نَجِيَّة". فزع الشاب الأشقر، والحصان توتّر من الأصوات العالية، وما يُشهرونه عاليًا، يدور حول نفسه والشابّ الأشقر من فوقه يراقب الدائرة التي أحاطت به غاضبة. كلّ منهم في جوفه ذُلّ يكويه من الغُز، ويغيظه. الشاب الأشقر يحادثهم بأنّه لم يكن يريد مكروهًا بالفتاة. حاولت "نَجِيَّة" التسلّل من بين أجساد الفلاحين التي تحاصر المملوك، تريد أنّ تقف بينه وبينهم! لم تستطع. أمسك بها اثنان، وابتعدا بها ليحميانها غير آبهين بصرخاتها، ومحاولتها إفهامهم بأنّ الشاب لم يكن يريد بها شرًا كما ظَنّتْ.

الحصار يطبق على المراهق المفزوع. هجم الولد "عَزّازي" بفأسه، وضرب فخذ المملوك فكسر عظمها. صرخ المملوك، ونغز حصانه، فأسرع به وهو يحمحم، ويشقّ حصار الفلّاحين، وينثرهم هنا وهناك وسط الزراعات.

نفس الليلة المشاعل والفوانيس تنير السّاحة أمام بيت العمدة، "عَزّازي" عارٍ مربوط في النطع الخشبي، والكرباج ينهال على ظهره. الكرباج شقّ في ظهره تُرعًا، وأنهارًا حمراء تنزّ الدم. وأبوه "إبراهيم" مطروح على ظهره، وساقاه مربوطين بالفلقة، وخفير يمسك بهما عاليًا، وخزرانة خفير ثان تنهال على باطني قدميه. العمدة يُشرف على العقاب، وهو يلعن الفلاحين وجهلهم، مؤكدًا أنّ الشاب الصغير كان ضيفًا على القرية، و لم يكن يريد اغتصاب "نَجِيَّة"، فَلِم حاصرتموه، وكسرتم عظم فخذه؟. "نَجِيَّة" تصرخ، وتحاول الهجوم على العمدة، البنات من حولها يمسكن بها. أمّها "زكية" تلطم، وتصرخ، وتجاوبها صرخات نساء القرية، أختها "خضرة" تُمسك بها وهي تحاول أكثر من مرة أنّ تلقي بنفسها على ظهر ابنها، لتحميه من ضربات السّوط البشع، ومرة تحاول أنّ تُلقي بنفسها على الخفير الرافع ساقي زوجها وتبعد باطن قدمي زوجها من هَري الخرزانة. لن يتركها الخفر، لتفعل أيّ شيء، بل سوف يضطرون لضربها إنّ اقتضى الأمر.

أسلم "عَزّازي" الروح بعد ليلتين، وبعد أسبوعين استطاع "إبراهيم" أنّ يسير على قدميه. "زكية" في بكاء مستمرّ على ابنها، وفي شفقة ولوعة على زوجها، وفي رُعبٍ مستمر على "نَجِيَّة".

جمّيزة عتيقة أمام باب البيت. حصيرة مسلولة جلسا عليها "إبراهيم"

وزكية. "إبراهيم" يدخّن الجوزة بشراهة. البوصة في فمه يسحب منها، وكأنه يسحب مخدرًا يريحه من الهوان. يسعل سعلات مؤلمة، ومن عينيه تسلّلت قطرات دموع. ينفث الدخان من منخريه المشعرتين، ثمّ من أنفه. بِكُمّه مسح الدمعات..

– "اسمعي يا زكية. ماعدش لينا عيشة هنا. لا الأرض أرضنا، ولا البيت اللِّي عايشين فيه بيتنا. وأنا مش مآمن الغُزْ ولاد الشرموطة، يصمّموا ينتقموا مننا، يرجعوا، وينيلوا "نَجِيَّة"، ودي لسّة صِغار. يومين ونهرب من هنا. "مصر" مش بعيدة عننا، يادوب فَركة كعب. نروحوا، وندوبوا وسط الزحمة."

– "لو الخفر قبَضُوا علينا، وإحنا بنهرب، وقْعتنا مش فايتة."

– "مفيش قدامنا غير الهرب. بس اوعي تقولي لحد، الخباصين كتير."

– "أختي خَضْرَة، أروح لها أحضنها، وأشوف عيالها، وأقولّها دا كلام في سِرِّك.!"

– "ولا حتّى أختك خَضْرَة."

– "إهِّي!! إزاي يا "إبراهيم" دي هيَّ اللِّي باقية لي من أبويا، وأمي."

– "الحرص واجب يا "زكية". بعدين يبقى نبعت لها خبر نطمّنها، ونطّمن عليها."

"زكية" تُنهنه حسرة..

– "نفُوت أهلنا يا خويا؟"

– "أهلنا سابو "عَزّازي" يتقتل قُدّام عنيهم، سابوني أتعبط ولا حرامي سرق سريقة. وبعدين يا "زكية"، ما كتير سَبَقونا، وفاتوا عزبتنا المنحوسة دي، لا إحنا الأول، ولا إحنا الآخر."

ليلة سودة كما كلّ ليالي حياتهم. احتضنت "زكية" الجمّيزة، واستكفى "إبراهيم"، و"نجَيَّة" بنظرات حسرةً عليها. تسلّلوا لا يملكون غير زوّادة بسيطة، "لقمتين، وحزمتين سِريس، وجُعضيض، ولَبْشة بصل أخضر، وحتّتين جبنة"، وبالحرص على عدم الشبع ستكفيهم ثلاثة أيام يسيرون فيها حُفاة، ليصلوا بعدها إلى "القاهرة"، وهناك في المدينة.. يكون ما يكون، فما سيكون لن يكون أوسخ، وأنيل مما كان في القرية.

8

شهر رمضان المبارك أتى حزينًا، واستمرّ طوال أيامه ولياليه حزينًا، فالرزق شحيح، والفقر صريح، والبؤس وضّاح كشمس الصّيف في ظهيرتها، مؤلم كقرصة حَيَّة بثّت فيها كلّ سُمِّيَتها. بهجة التواصل مع الخالق والفرحة بخيراته أين هي؟، لم تعد ألوف ألوف الأيادي المرفوعة لربّ العزة تلهج بالشكر، بل تلهج بالخوف من صعوبة الحياة، ونزلات القرح، والتوسّل للستار بعدم الفضح ولو لميقات عيد الفصح.

صار المسحّراتية في قلب الليل صوتهم باهت، وطبلهم خافت، وهم يُوقظون الناس لوجبة السحور. والخارجين لصلاة الفجر أقدامهم ليست بالنّشاط المعهود، ولا تحياتهم الصباحية لبعضهم بالودّ المفروض. من أطلقوا ذقونهم زادوا، ونقاب النسوان زاد في التعداد. ورغم الكآبة، وكثرة الغلابة، والمبالغة في مظاهر التدين، لم يكن أمر الناس مع بعضهم هيّن، ولا كما كان ليِّنًا. والغريب أنّ كسرتهم النفساوية، بدلاً من أخذهم

إلى الجادّة، حدفت بهم للهرولة إلى كلّ ما هو سبهللة! زادت حالات السُكر الغميق للهروب من ظلم، وطغيان السادة. ورَبَت أعداد الفجّار في اللّيل المخصّص للعبادة وفي عزّ النهار. وانفضحت نساء عائلات مستورات، ودخل بناتها في مِضمار الشغل البطّال! الفسحات على سطح النيل بهتت، والتنّزهات على ضفاف البرك لم تعد كثيفة العدد.!

على أطراف حي "الحسينية"، والذي بُني خارج سور "القاهرة"، ساحة رملية شاسعة نُصبت خيام مقام شيخ مجهول، قيل إنّ له رضاء عند خالقه، وقادر على جلَب المدد. ومن أيام بناء مقامه، وكلّ من يسأل عن اسمه تكون الإجابة.. "مش عارف"! فقال من قالوا إنّهم مريدوه.. "لكنّه عند الله معروف". فصار اسمه الشيخ "معروف". فنُصبت الخيام حول المقام عديم المقام، واجتمع الزحام، والكثير من النساوين الخواطي والبغايا، ونصبوا لهم خيامًا خاصة واخصاصًا، وانضم بائعو البوظة والعرقي والحشّاشون، والغوازي، والرقاصون، وأمثال ذلك، وانحشر معهم الكثير من العشّاق، وأهل الأهواء، والعيّاق من أولاد البلد، فكانوا جمعًا عظيمًا يأكلون الحشيش، ويشربون المسكرات، ويزنون، ويلوّطون، ويشربون الجوزة، ويلعبون القمار جهارًا في نهار "رمضان" ولياليه، مختلطين مع العساكر الذين تجبّروا علي أولاد البلد، ولا يختشوا أنّ يلطعوا أيًّا منهم على قفاه سواء كان رجلاً أو امرأة، أو فتاة. بل دخلوا خيام النّساوين، وفعلوا ما يفعله الذكور بدون دفع المقابل، ولا أحد يقدر على أنّ يقول لهم بمْ. ومن فجور هؤلاء العسكر الجلبان، أنّ أحدهم، ويقال إنّ أصله من الغُز أولاد ستين في سبعين، خطف امرأة، وأدخلها جامع "الأشرف"، وزنى

بها بعد صلاة "الظهر" في نهار رمضان! كأنّما سقط عن الجميع التكاليف، وخلصوا من الحساب الدّنيوي، والأخروي!

قال الشيوخ في خُطب الجمعة إنّ حال المسلمين صار عارًا، وإنّ السبب ضعف الدين فمازال في الرجال مِمّن لم يطلقوا ذقونهم، ومن النساوين من لم يتنقبن حتّى الآن، وسوف ينصبّ على الجمع نار، ولظَى قار بذنوبهم. لكنّ حدث في هذا الشهر ما لم يفهمه لا الشيوخ، ولا غيرهم.. وقعت مسلّة قال عنها الناس إنّها "مسلة فرعون"، فلما وقعت وُجِدَ ثقل قلنسوتها مائتي قنطار نحاس أصفر وافي، وداخلها عشرة آلاف قطعة ذهبية من الذّهب الصافي!

فرحة السّلطان زاطت وباضت. نال نائب السّلطنة، وأمير الجيوش، والداودار، وكلّ من حول السّلطان حظه. وزاد الطمع الذي يقلّ ما جمع، فصدق السّلطان "بِنْبان" ما يقوله له الآتي من تبريز العجم، ومن شهور يوحي للسّلطان، والداودار أنّ الهرم الصغير القابع بين أهرامات هضبة "الجيزة"، وهو الهرم المكسو بالحجر الصوّان تحته مَطلب. وما هذا المَطلب.. يسأله الداودار "كمال الدين".. فيقول الأعجمي.. "الذّهب.. الذّهب يا داودار". فأتى السّلطان الأمجد "بِنْبان" بجانب كبير ممّا ناله من قمّة المسلة الواقعة، وجهز جيشًا من العمّال القطّاعين، ومعهم عدد من المماليك الصغار. فأقاموا شهرًا كاملاً حول الهرم الصغير ذي الأحجار المكسية. العمل في الهدم من بداية النهار لنهايته، لكنّ مع كلّ هذا المجهود المضني، و لم يُهدم منه إلا اليسير، وأصرّ "الداودار" على استمرار العمل.!

في نفس الوقت على أطراف "القاهرة" المطلّة على الأهرامات، بدأ العمل.. مائة حمار، ومائة جمل مع مائة عامل، وجنايني في تسوية مساحة شاسعة، وملء كلّ حفرة أو خرم، ثمّ رش الملعب بطبقة من الطين الخفيف، وبناء سور سيحوي خيام السّلطان، وقد تمّ نقل عدد من الأشجار، لتظلّل، وتقلّل من حرقة الشمس المكشوفة. العمل على قدم وساق، لتسوية ملعب لضرب الكرة، بدلاً من الملعب الصغير الذي بساحة "الرميلة" الواقع قصاد القلعة.

مرة واحدة عزم السّلطان لعب الكرة من على صهوات الجياد. في سرعة أرسلوا مجموعات من الجِمال، حاملات قِرب المياه لرش الأرض رشًا خفيفًا، وملء الأزيار المتراصّة تحت خيمة تحميها من الشمس. السّلطان على حصانه سمين غير ثمين، رغم ملابسه البيضاء، وعمامته الشّهباء بمناسبة دخول فصل الصيف الحارّ الحارق.. حوله الحاشية والحرس السّلطاني. خلفهم مزارع الفلّاحين، وسور "القاهرة"، وأمامه على بُعد الأهرامات وكأنّها خيالات لعصورٍ انضمّ فيها البشر لفئاتٍ من أغرب الكائنات، فصنعوا ما لا يصنعه العفاريت. الفواعلية عليٰ هرم صغير كثيرون، كالنمل صاعدين هابطين، في العمل غرقانين. بدأ اللّعب. كرة محبوكة على الرمال وفريقان من الفرسان، وكلّ فارس يحمل عصى يحاول ضرب الكرة، ليصل بها إلى مكانٍ معلوم. كرّ وفر، وصياح، وصهيل الأحصنة، وعفرات تراب، وحركات حرفنة. وسريعًا لهث السّلطان "بِنْبان" تعبًا، وتصبّب عرقًا. فذهب إلى ظلّ خيمة الأزيار يشرب، ويستظلّ، ويتابع الفرسان، ويتحسّر على ماضيه المجيد في الفروسية، وقلبه

يعوي قلقًا على تركه القلعة، فربما يخونه خائن، وربما الأخرى التي تخصّ زوجته "شمس" معدومة، فنائبه وصديقه والذي يشك أنّه عشيق "شمس" يلعب أمامه الكرة متحمسًا. اللّعب يفتقد فقط "اليوسفي" أمير الجيوش.

فشلت مهمة البحث عن الذّهب في الهرم، وضاعت الأموال، و لم يفد من ذلك شيئًا. هرب الأعجمي، وترك السّلطان "بِنْبان" محسورًا، ناقمًا على داوداره "كمال الدين". وعليه زادت سخرية العامّة من هذا السّلطان الطرطور.!

الصباح يتمطّع. "إبراهيم" وزكية، وبينهما "نَجِيَّة"، وصلوا أطراف القاهرة منهكين مرعوبين من كلّ هذا الزحام. حفاة مثلما أغلب الناس حفاة. سور "القاهرة" القديم على مرمى البصر بضخامته، وهيبته. الأحياء العشوائية بُنيت خارجه لما اكتظت المدينة بالناس. حي "الحسينية"، والحركة بداخله أمواج متلاطمة من كلّ جهة. زحام مشاة، وعلى ظهور الحمير. نساء عاملات، وعابرات منهنّ من كشفن الوجوه، ومنهنّ من أخفين. صيحات باعة العيش، والبطاطا، والخضروات. السقّايون على ظهورهم قرب المياه الممتلئة يُعلنون عن مياههم السّلسبيل. وبائع "العرقسوس" إناءه المعدني مُعلّق على البطن يُعلن عن خميره الشّافي، وبأصابع يدٍ واحده يتلاعب بصاجين نحاسين، فيصدران رَنّات صادحات. وبائع البسبوسة بجوار حائط، وصينية على مائدة تحتها موقد نفط ليبقيها ساخنة. حلْقة مشاهدين حول حاوي وأتباعه. أتربه تتصاعد من أسفل، لتنتشر سابحة في الجو مع الذباب والهاموش.

واضح عليهم أنهم غرباء مُتعبون ضائعون. عيون الذّكران تلاحظ فتنة الصّبية. ثلاثة نساء على باب بيتهنّ يفترشن حصيرًا، ويجلسن عليها يُغْددن بعض الخضروات للطبخ. مشغولات بالعمل، وبالحديث، والضّحك. إحداهنّ تحمل رضيعتها. شاهدن الأسرة المكروبة. نادوهن. أدخلوهنّ. بيتًا من دور واحد، تسكنه ثلاث أسر. أيسرهم حالاً أسرة "سَعْدية" وهي أكبرهنّ سِنّا، أصرّت "سَعْدية" على استضافتهم، هي صاحبة البيت كله، ولها غرفتان، وليس غرفة واحدة مثل الآخرين. أقسمت إحداهنّ بالمسيح أنّ تستضيف الضيوف فترة الظهيرة عندها، ثمّ بعد ذلك ينتقلن إلى الغرفتين التابعتين لسَعْدية. ما كادت الأسرة المهاجرة تجلس أرضًا، حتّى أخذت "زكية" في لطم خدّيها، والبكاء حسرة على ابنها "عَزّازي". حكت حكايتها ومقتل ابنها. تحاول "سَعْدية" أنّ تُخفّف من قتامة الحال، قامت بتعريف نفسها، وجارتيها للعائلة الحزينة..

– "أنا أختكم "سَعْدية". ودي "دميانة" أمّ سارة، ودي دلّوعتنا "سالمة" اللّي شايلة أوّل عَيلة لها. ويا أهلاً وسهلاً بيكم. دا إحنا زارنا النبّي."

الحزن لم ينقشع. "إبراهيم" تخرّ دموعه، ووجهه رخو كقطعة عجين. "زكية" يثقل على قلبها كربها بمقتل ابنها، وخشيتها على زوجها، فآلامه بفقد ابنه "عَزّازي"، ولوم نفسه أنّه لم يستطع الدفاع عنه، رجولته التي أُهينت، وقد سطّحوه على ظهره، ورفعوا ساقيه حتّى انكشف عضوه، وبانت مُؤخّرته، فمَن من المتعوسين يمتلك لباسًا يستر العورة؟! ضربوه بالخيزران على باطني قدميه، وهو يُولول من الألم. لم يعُد رجلاً بين

الرجال، بل مجرّد خروف.. معزة.. جاموسة، مجرّد قطة.. كلب، أيّ بهيم، لكنّ ليس رجلاً، ليس إنسانًا.

اغتسلوا غسلاً سريعًا. تناولوا الطعام، وقد لاحظوا رسم الصليب فوق السرير الواطئ. عادت النّسوة الثلاث، لاستكمال تنقية الأرز، وتركن الأسرة الغريبة، ليتمدّدوا، ويناموا. "إبراهيم"، يتشوّق ليدخّن الجوزة، لكنّ في خجل أنّ يطلب ما يحتاجه مِزاجه، وهو مجرّد ضيف غريب تمّ إطعامه وإيواؤه. من التعب تغلّب على خرمانة للدخان، ونام.

"نَجِيَّة" مستلقية بجوار أمّها، تربت على كتف الأم الثّكلى حتّى تُهدئها وتنام، قالت لها أمّها – كما قالت لها من قبل..

– "لو كنتِ ولدًا، ماكانش كلّ اللّي حصل حصل. لكنّ نعمل إيه.. إرادة ربنا!"

تنام "نَجِيَّة" حزينة على أخيها، مطعونة من لوم أمّها عليها. تبكي على أخيها الذي كان أحبّ الناس إليها مع أمهّما وأبيهما، ويمتاز عنهما أنّه صديقها. ثمّ يأتيها خيال الشابّ المملوكي الذي أرادها.. غاية في الحلاوة، والأناقة. طاقيته المزركشة المذهّبة. تاج شعره الذّهبي، وعيناه الخضر الواسعتان. يبتسم لها بطيبة. اختارها هي من دون كلّ الفتيات! فتفرح دواخلها، ثمّ تثور وهي تلعنه، وتسبّه بأقذع الشتائم.

في العصر "سَعْدية" أصرّت أنّ يأخذوا غرفة من غرفتيها لحين مَيْسرة. بعد الغروب. ربّ العائلة "عبد الباسط"، وابنه الصّغير "عبد العليم" انضما

لسَعْدية والضيوف. حوارات وأهْلَنات وسَهْلَنات. لاحظ "إبراهيم" زرقة في ذراعي "عبد الباسط". فشرح له..

– "أنا معلّم في مصبغة. نصبغ الأقمشة بأيّتُها لون. واليومين دول شغالين في الأزرق –ولمؤاخذة–. هاها."

"عبد العليم"، و"سارة" ذهبا لشراء ما سيحتاجه العشاء الجماعي. بعدها "عبد الباسط"، والرجلين المشاركين معه في السّكن، "ويصا"، و"حسين"، أخذوا ضيفهم "إبراهيم" معهم إلى المقهى. ليس بعيدًا عن البيت. مبنى بالطوب النيئ، والسّقف من جذوع النخيل المشطورة. الزبائن يجلسون على الدِكك المرصوصة بجوار جدران المبني، وتحت أشجار ظليلة على جانبي المقهى. الرّاوي الأنيق مُتربّع فوق دكّة تتوسط المقهى يروي على أنغام الرّبابة حكايات، ومغامرات "علي الزئبق". ذلك الشابّ الفقير الذي يُدَوِّخ جبابرة الحكّام بذكائه، وسرعة حركته، المحبّ للناس، الكاره، والمحتقر للحرامية الكبار، فيسرق سرقاتهم، ويُعيدها للغلابة.

اختاروا دِكّتين في ركنٍ بعيد، وجلسوا قبالة بعضهم.

– "بناقص سماع حكاوي الليلة دي. عايزين نقعد مع ضيفنا الكريم."

– "سِمعنا حكاوي "علي الزيبق" كتير."

– "أهي حكاوي، والسّلام."

– "نِطَلَّع فيها غُلبنا."

تناولوا الحِلْبة، ودخّنوا الجوزة معًا، "إبراهيم"، يدخّن بشراهة من بعد اشتياقٍ طويل. سمعوا منه حكايته، وحال الريف الفظيع. يتصعَّب "عبد الباسطَ" على حال "إبراهيم"، وحال الفلاحين..

– "إيـه يا أبو خليل. كلّنا في الهّم سوا. اللِّي منُّه لابد عَنُّه."

– "بس يا أبو عِبْدَه، الغيطان الخضرة واحشاني قوي."

"حسين"..

– "طول ما المظالم زيادة على الفلاحين، طول ما حيهربوا. بالك زحمة "مصر" دي كلّها منين؟ ما كلّهم جايين هربانين من الريف."

"ويصا"..

– "إحنا في بلد كلّ حكامها ظلمة، وكلّ ناسها مظاليم!"

"حسين"..

– "الخراب زاد، والقرف عمّ البلاد. بقَي الأصل السرقة والنصب، وبقينا زي السمك كِبيره ياكل صَغِيره. وكلّ اللّي بِدّو يعمل حاجة وسخة يعملها في العلن، مادام عنده ضهر. لغاية ما النّاس قالت المثل المقرف.. "اللِّي ما يقدرش يسرق في عصر "بِنْبان"، مش حيقدر يسرق تاني"!!

وهم عائدون على ضوء الفوانيس المعلّقة على بعض جدران البيوت، وفي مداخل الأزقة. قابلهم رجل سِمنته واضحة، خاصة كرشه. لكنّ ما يُلفت له الأنظار أكثر تكشيرة سِخَنْتُه، ولحيته الشعثاء المُحَنّاة الطويلة،

المتدلية لتحت سُرته! شاربه حليق، وعلى رأسه عمامة خضراء، وحول عنقه سبحة خشبية صفراء، تستقر على لحيته، وتكاد تصل لطولها. يمسك في يمينه بعصىً غليظة يدقّ بها الأرض مع كلّ خُطوة. جلبابه متّسخ كما عمامته ونعليه. نظر لهم، وكشّر متُجاهلاً مستعليًا. ولما مرّ ضحك "عبد الباسط". "حسين" قال "إنّ هذا هو الشيخ "حرنكش". مدّعي مَشْيَخَة لكنّه سيء، ونفسه حمضانة وكأنه يشرب كوز خَل كلّ صباح. كاره لكل خير. يغتاظ من كلّ عاقل، ويحسد كلّ غني، ويمقت من هو قوي البنية، أو نضر الوجه. غبي جعجاع، وحقيقة هو جبان كفأر. مكسبه من عمل الرّقايا الكاذبة للفتيات والنّساء، ليمنع عنهن الحسد، وأعمال السّحر من الحاقدات عليهنّ، وليجلب لهنّ الذّكران، ليقترنوا بهنّ. ومن هؤلاء كثيرات اتهمنه سرًا بأنّه حاول إغوائهنّ، لكنهنّ علنًا يخشين سلاطة لسانه، وامتلاكه منبره الذي يؤذي به من أراد، بدون رادع ضمير. "حرنكش" لا يلقي علينا السلام، ولا يردّ لنا السّلام، طالما "ويصًا" معنا! وفي الزاوية التي يؤم المصلّين فيها، دائمًا ما يلعن النّصارى، واليهود، ويؤلّب الناس عليهم!"

عمل "إبراهيم" في نفس المصبغة التي يعمل بها "عبد الباسط"، وابنه "عبد العليم". كلّفوه بعمل لا يحتاج خبرة. أسبوع، ووجدوا غرفة في حارة قريبة. انتقل "إبراهيم" وأسرته إليها. "نَجيَّة" انطلقت للعمل، أولاً في فرن، ثمّ في ساحة غزل ونسيج. ثمّ في مطعم شعبي. لا تبقى طويلاً في عمل. عنَديَّة، سليطة اللّسان، عصبية. تتشنّج عند أوّل بادرة ذُكورية تَشمّ منها أنَّ صَاحب العمل، أو أحد العاملين، أو أحد الذكور في حارتها ينظر

إليها نظرة جنسية. ويا ويله وظلام ليله من يتحرّش بها، ويلمس جسدها، مُستعدّة للخربشة بالأظافر، والعضّ بالأسنان، والرّدح باللّسان، سريعة الوثب والضرب، ولَمْ الناس من الشرق والغرب. تعلم أنّ جسدها مُغرٍ للذّكور. لهذا جانب منها يكره فتنة أنوثتها الفوّاحة، وما سببته من مقتل أخيها، وبَلْوَة الأسرة، وتوليد الكَمَدْ والنُوَاحَة. ترفض فورة جسدها، خاصة صدرها الممتلئ الذي يجذب أنظار العجوز والمراهق. تتألم وهي تستحمّ، وتحس بجسدها الجائع الصارخ. تدعك مواطنها، حاملة فتنتها، ونكبتها.

استمّرت "زكية" أيامًا في لوم "نَجِيَّة" بكلام يَسِمْ بَدَنها، ونفسيتها. ثمّ لاحظت بكاء "نَجِيَّة" في الدّرا. فبكت هي الأخرى، وهي تتأسّف لابنتها. امتنعت عن اللّوم، لكنّ غضب عنها تنفلت منها نظرات اتهّام تتركّز على جسد "نَجِيَّة".. هذا الجسد الجميل الفائر من قبل الميقات، هو الذي أغرى المملوك الشابّ أنّ ينتقيها من بين بقية الفتيات، هذا الجسد المغري هو الذي تسبّب في مقتل ابنها "عَزّازي" تلك المقتلة المفزعة، وإهانة زوجها تلك الإهانة المروِّعة.

"نَجِيَّة" كلّ ليلة، قبل أنّ تنام، تبكي وتنهنه في صمت. لا تتكلّم عن عذابها إلا مع الطفلين "عبد العليم"، و"سارة"! لا تشرح لهما حقيقة تعبها، فقط تلعن في عصبية ظلم الدنيا، ومن فيها، وأنّ الناس كلّهم وحوش، حتّى ملّ منها الاثنان، وصارا يتحاشيان الاستماع إليها، فهما يريدان اللّعب، وليس النّواح!

الصّباح الباكر، و"نَجِيَّة" ذاهبة لعملها. وجدت الشيخ "حرنكش" أمامها. إنّه ينتظرها ناويًا على أمر. ذقنه المدلدلة، والمصبوغة بالحناء جعلتها تبتسم سخرية. وقف أمامها مباشرة، فأوقفها. ينظر إليها نظرات جنسية واضحة..

– "رايحة على فين يا بت؟"

– "إنتَ مالك!"

– "كلّمي الشيوخ بأدب يا بت."

– "عايز إيه ع الصبح؟"

– "مش تَقِرّي في بيتك أحسن؟"

– "مش قرّة عايز إيه بَقَى؟."

– "اتجوزي."

– "لما ربنا يريد."

ضرب الأرض بعصاته، وهو ينظر لثدييها..

– "مفيش رجّالة عايزينك. أنا موجود."

– "إيه.. إيه.. إيه؟!"

– "حنخشوا في الرّدح يابت؟!"

– "أنا قد بناتك يا حرنكش."

– "ولو، هذا لا يمنع، فالرّجل رجل، والمرأة مرأة."

- "وإنت متجوز اتنين، وقَنيت التالتة فوقيهم!"

- "ولو برضة، فهذا حلالٌ بلالٌ.!!"

- "كتك ضربتين حلالٌ على نافوخك، وبلوتين بلالٌ في قلبك!"

- "لمي لسانك يا حُرْمة. اسمعي. أنا عايز أحميك من نفسك، وأحمي رجال المسلمين من الفتنة، وأحْتَسِبُ أجري عند اللـه -سبحانة وتعالي!!"

- "امشي يا شيخ "مكنسة" بعيد عنّي."

- "إيه؟! "مكنسة"؟! شيخ من شيوخ الدّين تقولي عليه "مكنسة" يا بت المكانس؟!!"

- "امشِ من قدّامي أحسن واللـه العظيم أنتف لك دقنك!"

- "سفالة فلاحين."

- "الفلاح شَخَّتُه أنضف من دقنك يا شيخ يا وسخ!"

ثلاثة شاهدوا موقعة الشيخ "حرنكش"، و"نَجِيَّة". حكوا ما حصل، ومن صباح هذا النهار تبدّل اسم الشيخ من الشيخ "حرنكش" إلى الشيخ "مكنسة". حُوصر بالاسم حتّى من داخل بيته، حيث زوجتيه القديمتين الغاضبتين والثالثة الجديدة، فصار كارهًا لـ"نَجِيَّة"، مغلولاً منها في جانب، وفي جانب آخر.. شهوته على نضارتها ليس منها مفر. حاول تأليب الناس عليها، فلم ينجح. الذي صار أنّ الناس تجرؤوا عليه أكثر من ذي

قبل، فنال من ألسنتهم كلّ سخرية مهينة، ثمّ من الأطفال الذين ينادونه من بعيد.. "شيخ مكنسة"، "شيخ مكنسة"، ثمّ يتوارون بعيدًا، وهو يقف، ليسبّهم بأمهاتهم، فيجلب على نفسه سخرية أكثر من الرّجال والنساء المتابعين لمهانته!

مرّ عام كئيب.

عملت "نَجِيّة" مع حاوي اُلعبان، كما النّسناس يخلع الدّرهم من تحت ضرس الناس. يصاحبه مساعد شاب يزمّر بمزماره، وطفل يضرب على طبلة، لكنّ أهمّ مساعديه هو الحمار. يتجمّعون في الصّباح الباكر في مقهى عبارة عن سقف خشبي مُثبّت في جدار سور "القاهرة" الضخم بأحجاره المهولة، تحته عدد من الدّكك المتواجهة، وجانبها ركوة نار، وعليها كيزان المشروبات. على يمين المقهى تلال من الخُضروات الطازة الآتية من الأرياف القريبة. يُدير المعلم "الدّوسري" جلب الخضروات، وبيعها لتجار التجزئة. جِمال محمّلة بأنواع الخضروات تأتي، وتَبرك، وأعداد من الحمير من المسافات القريبة مُحمّلة بأكثر مما تطيق. زحام والمعلم "الدوسري" يجلس تحت مظلّة واسعة يتعامل مع صغار التجّار بسلاسة وثقة. قوّته الجسدية الواضحة، وشاربه السّميك له هيبة تنبعث منه تلقائيًا، ولا يحتاج إلى العصى الأنيقة التي يحملها إلاّ لمجرد رمز يقول إنّه المتحكّم في هذه السوق الصغيرة.

على يسار المقهى باب "القاهرة" الضخم المتّسع القديم الشهير بباب الفتوح، وأعلاه حجرات الحرس. زحام الدّاخلين والخارجين مُشاة،

وعلى ظهور الحمير والجمال. النّصبة التي بجوارهم نصبة مطعم فول وعدس. تأتيهم أطباق الفول يومًا، والعدس اليوم التالي. ثمّ يطلب كلٌّ منهم ما يحبّ يشربه هذا الصباح.. "الشّاي، أو الحلبة، أو النّعناع، أو القهوة"، كلٌّ حسب –مزاجه، وعلى حِساب الحاوي. يدخّن الحاوي، والزمّار الجوزة. يقف الحاوي مُعلنًا ابتداءَ العمل..

– "يا فتّاح يا عليم، يا رزّاق يا كريم. اتكّلنا على الذي لا يغفل، ولا ينام."

يحمل الطفل طبلته، والكيس الجامع لحاجيات الحاوي. الحاوي على الحمار، والزمّار و"نَجِيَّة" يسيران على جانبيه. يدخلون من باب الفتوح قاصدين أهم أمكنة يعرضون فيه، ألعابهم. السّاحات المنثورة بين الشوارع والحارات. الشابّ يزمّر بمزماره وهو يتراقص، الطفل يضرب على طبلته، ويغنيِّ مع المزمار، لينضمّ له سريعًا عدد من أطفال الحي..

"توت حاوي توت"

"توت حاوي توت"

"توت حاوي توت توت"

"نَجِيَّة" تشخلل بشخاليل، وتُردد الأغنية مع الأطفال. يأتي الناس فُرادى وجماعات. "نَجِيَّة" وهي تدور تصنع دائرة يقف حولها الناس. تشيح بيديها هنا وهناك، وتزعق..

– "قَرَّب يا جدع. بُصْ يا اللّي هناك. تعالي يا سِتْ، تعالي يابِتْ."

يتهدّل كمّاها، ليبان ساعداها لقرب الكتف. فتحة جلبابها واسعة

مفتوحة، فيبان أعلى شقّ الثديين المتراقصين مع كلّ حركة من حركات صاحبتهما. "نَجِيَّة" تلم الناس حولها، وحول السّاحر بأكثر مما يلمّهم مزمار المساعد الشاب، أو طبلة الصّبي. الحاوي يبدأ العرض، وهو يدّعي الوقار والأهمية. حلقة المشاهدين واسعة متشوّقة، والحاوي في وسطها. يدور هنا وهناك؛ ليواجه كلّ المشاهدين، مبينًا لهم بكلام موزونٍ عن قدرة "اللـه" التي أعطاها له، وأمره أنّ يُبَيِّنها للخلق أجمَعين. يُبَكِّشْ بكلام مُشَوَّق، ويُنَتِّشْ بإشِي متزوَّق. كلام مظهره نواحي دينية، ومخبره كلّها حاجات دنيوية، راجل كَلامنجي مُسَهْوِنْ. يخلع هدومه الفوقانية، ويفضل بلباس طويل. نافورة نحاس صغيرة، من بُعد خطوات يشخط فيها ويأمرها.. رُشّي، فتنثر رذاذ المياه. يقول لها بس، تِبَسْ! يأتي له الصّبي بأدوات.. نفط في كوز ياخد الحاوي منها جرعة كبيرة. يبخّ في شعلة نار يُمسك بها، فتنطق النار المستطيرة مثل زوبعة. "نَجِيَّة" تتحرّك، وتنحني قليلاً وتعتدل، فتبرز مقعدتها، وحيوية ثدييها، وهي تزعق في الجمع المتفرج..

– "صلي ع النبي. وحّدوا اللـه يا مسلمين."

الحاوي يشاور آمرا الحمار أنّ يقترب. الحمار يقترب بالفعل. يشير له، ويأمره بالقعود.. يقعد الحمار أرضًا، ورقبته ورأسه مرفوعتان! يشير للحمار، وهو يأمره بالوقوف، فيقف الحمار مُطيعًا لسيده! المساعد يزمر تزميره رقص، الحاوي يُرقص، والحمار يرقص معه!

الزحام مبهور يصلّي على "النبي"، ويصفّق مع "نَجِيَّة". الحاوي بيديه يشير بحركاتٍ يفهمها الحمار، يهدّده بالصوت..

– "السّلطان ربنا يحرسه. علشان يبني سور متين، محتاج كلّ حمير البلد. يحطّ عليهم الحَجَرْ.. إيه رأيك يا حمار؟ مستعد تروح تخدم سور السّلطان؟!"

الحمار ينهق، وينام على ظهره رافعًا حوافره لأعلى الهواء، نافخًا بطنه، مغمضًا عينيه كأنه مات وِشبع موت! الحاوي يضرب الحمار، ويسبّه؛ لكنّ الحمار ميّت لا يحس. ينتحب الحاوي، والمساعد يزّمر تزميره حزايني. "نَجِيَّة" معها كُوز تلفّ على المشاهدين، تستعطفهم أنّ يساهموا بما يجودون به للحاوي، لشراء حمار غير الحمار الميت!

– "بص بعينك، وارحم بقلبك. اللّي يقْدَر يِقَدَّرُه المولى. واللّي يطنّش يبقَى يشوف حيجراله إيه!"

بعد أنّ تمر "نَجِيَّة" على المشاهدين وهي تحمل "كوز صفيح" تجمع المساهمات. الحاوي ينغز الحمار في جنبه. يفتح الحمار عينيه. يصرخ الحاوي فيه، وهو يشير له بحركاتٍ أخرى..

– "يا لئيم يا ابن الكلب. عاملّي فيها ميت؟! طب اسمع دي.. السّلطان حفظه "اللـه" أمر بأنّ الناس يحتشدوا بكرة لدخوله المنتصر، وأمر أنّ أجمل البنات العذارى يركبوا على ضهر الحمير. قلت إيه يا حمار؟ حتفضل ميت؟!"

قام الحمار منتعشًا. يضحك المشاهدين على ذكاء الحمار، ولؤمه. يلفّ الحاوي هنا، وهناك يصيح فيهم..

– "حُط إيدك على راسك يا بني آدم، نزّلها على صدرك، ودخّل صوابعك في عبّك، ولاّ في سيالتك، وطلّع الدرهم، وما تبقاش بخيل. طلّع الدرهم وما تكنش لئيم زي الحمار!"

تدور عليهم "نَجِيَّة" تجمع الدراهم مرة أخرى، وهي تصيح فيهم..

– "صلّي على النبي. صلّي على شفيعك يا مؤمن. طلّع الدرهم، وبطّل حركات الطناش مِنّك له!"

بعد تجميع الدراهم. يعود الحاوي للحمار يحرّك رأسه، ويسأله وهو يشير ناحية المشاهدين..

– "اسمعني يا حمار يا ابن الحمار. بتحبّ النسوان الحلوة؟!"

يحرّك الحمار رأسه موافقًا.

– "طب هنا في نسوان، وبنات زي القشطة. نقّي لك واحدة كده على مزاجك!"

يهرول الحمار خببًا حول حلْقة المتفرجين، ويختار أجمل صبية يقف خلفها مساعد الحاوي وهو يزمّر. ويداعبها الحمار لمسًا بخطمه. تصيح "نَجِيَّة" على الصبية..

– "مبروك عليكِ الحمار!"

يصيح الأولاد خلفها..

– "مبروك عليكِ الحمار!"

- "مبروك عليكِ الحمار!"

الحاوي سعيد بنَجِيَّة، فهي بجمالها وحيويتها تلفت الأنظار، وتجمع المشاهدين الهايجين، والكثير من المراهقين للبَصْبَصَة. تفعل هذا بمزاج أنثوي. وبسلاطة لسانها تردّ على اللّمامة، وتردح لمن يزيد في التلامة، ويمسّ الكرامة، بشرط ألاّ تزيد في اللّعن، فتُخيف المعجبين الملهوفين فيطفشوا. أجرها اليومي زاد، فوسّعت على أبيها وأمها، ابتاعت أكثر من جلباب، وصار في قدميها قبقاب، ولم تعد حافية. لكنّها حين العمل، تخلع القبقاب، وتتركه بجوار متاع الحاوي وتعمل حافية، فهذا أيسر لها وألذّ. صار لها معجبون يأتون كلّما أتى الحاوي، ويضحكون على لعناتها المصبوبة على الملهوفين المنفلتين. "نَجِيَّة" حائرة في أفعالها، من ناحية مستاءة من فتنتها، ومن ناحية فرِحة بجمالها، مستمتعة بعيون الذكْران وهم يحلقون في ساعديها، ثدييها، وعجيزتها. تلوم نفسها على مكرها، واستمتاعها وهي تستعرض، وتتعمّد كشف باطيها، وجانب ليس بالهيّن من ثدييها لشاب أعجبها، وانسعر شبقًا عليها. تسخر من لهفته، وتشمت على حسرته انتقامًا من كبتها هي ولهفتها هي على من تشتاق له، وليس لها إليه من سبيل. مزاجها ينحطّ أيامًا، فلا تبدع في تخنيس الذكور بأنوثتها، وتونيس الإناث بما يمكن لهنّ من فعلٍ يفعل في الذكور الكثير، يتضايق المعجبون الملهوفون، فتقل حصيلة الدراهم التي تسقط في الكوز. يغضب الحاوي، ويلومها الزمّار، والطفل الضارب على الطبلة، لكنّها لا تأبه.

ليلاً شبح الشابّ الأشقر الوسيم يأتيها. تراه يهبط من على حصانه

عند باب البيت. في نفس ملبسه يوم أتاها، وهي تغسل هدوم أسرتها في الترعة. يدخل في خُطوات واثقة، غير آبه لا بأبيها، ولا بأمّها النائمين. لا يتأفّف من فقر البيت، ولا رِثّة الملابس، فكلّ تركيزه على حبيبته خليلته. يتصدّى له الشابّ الذي أُعجب بها خلال حلقة الحاوي، فلعبت به وأشعلته، وجنّنته. قبل أنّ يعده الخيّال الأشقر تكون "نَجِيَّة" بنفسها قد مَحَته. الأشقر يقف ناظرًا إليها بعينيه الساحرتين، وهي مستلقية مسترخية وَلْهَى. جسدها يرتعش وهي تنظر إلى الحبيب الذي تشتاق إليه، وتصبو. يتمدّد بينها وبين أمها. تحسّ بأنفاسه الحارة، وتتبين ملامحه في الظلام. ابتسامته بشفتيه الفراولتين واثقة مؤكّدة أنّها يوم اللّقاء الماضي كانت تريده بأكثر ممّا هو أرادها، فلِم صرخت، وتسبّبت في كلّ ما جرى؟ خصلة شعره السّائبة المتدلّية على جبينه النّاصع البهاء تفك مفاصلها، فيصير جسدها كما "فالوذج" بدون وعاء. ترتعش بكاملها ولْهانة. يقترب بوجهه الجميل منها، فتصدّه في دلال وهي راغبة. تلومه على نِسيانه لها. يدّعي الغضب، ويحاول النهوض من جانبها. تمسك به، فيمسك بها. تغرق في خيالاتها، وتقوم بدور عشيقها ودورها معًا. يتحسّسها بيديها هنا وهناك، ويتوصّى بثدييها، ويهبط على البطن الغضّ، ويتسلّل إلى فخذيها سابحًا عليهما ثمّ يصل لما بين وركيها، فتكتم لهاثها المتصاعد المتشنّج، حتّى تفرغ طاقتها الجنسيةَ المكبوتة.

دموعها تنساب غاضبة، وهي تشتم نفسها، وتشتم خيال الشاب الجميل، وتتأسّف لأمها النائمة بجوارها، وتنتحب لذكرى أخيها، صديقها "عَزّازي". لا تمرّ ليلتان حتّى تعود لاستحلاب نفسها في الليلة

الثالثة، وحين تعصرها الشّهوة بشدّة تُعاود الفعل ليلتين متتاليتين.

تقدّم للزواج منها أكثر من شاب، وأكثر من كهل، وثلاثة من العجائز المستريحين ماليًا بالنسبة لحال "نَجِيَّة" وأسرتها. ترفض. ترفض، وتنتظر من أخذ قلبها، واستولى على سريرتها، وكان السّبب في بلاءات أسرتها. جسدها منتفض عليها، ويلحّ متعجّلاً حقه في المتعة والإمتاع. تحتاج لذكرٍ يُهدئ هذا الجسد الثّائر، ويريحه. التحرشات من الشباب والرجال، بل من الكهول، والعجائز لا تنقطع. الكلّ طامع أنّ يحوي جسدها، ويتمرّغ في نهديها الواضحين. أبوها يُطالبها بالذوق مرة، وبالزّعيق مرات أنّ تقبل أحد المتقدمين لها. أمهّا تبكي وهي ترجوها أنّ تُسرع بالزواج. "نَجِيَّة" اختلت مرّات بالشابّ الزمّار. تركته يحتضنها مرّات، لكنّ جسدها لا يستريح له وقلبها يرفضه، فرفضت طلبه بالزواج منها.

المفاجأة أنّ الشيخ "حرنكش مكنسة" تقدم لخطبتها! قال أبوها "إبراهيم" له.. إنت متزوج من ثلاثة ياشيخ!، فقال "حرنكش" إنّ الشرع يسمح له بأربعة!، وإنّه متقدم للزواج من "نَجِيَّة" حتّى يريحهما من نفقتها، ويلمّها من السّرحان في الشوارع، عرضة لعيون الزناة ولاد الحرام. ثمّ إنّ "اللـه" رزقه من حيث لا يحتسب، وصارت الدنانير ثقيلة في جيبه، وانتقل إلى مسكن أوسع وأرحب، ويستطيع أنّ يقني في مسكنه الجديد أربع زوجات، ودزينة جواري"! بالفعل حدث تحوّل غريب في حال الشيخ "حرنكش المكنسة"، انضمّ لاهثًا لجماعة صحراوية الأصل، متشدّدة أتتها أَجْولة من الدنانير، فصار من بعد إملاق حاملاً للدنانير،

ومأكله زبدٌ وسمن وعسل وفطير، وملبسه أنيق وتزويق، فخلع العمامة الخضراء ووضع النّاصعة البيضاء.

حشرت الجماعة الصحراوية في دماغه الغليظة تفسيرات الغُلو، والحذلقة، وشرعية النقل، وتحقير العقل، فصار معها من أشّد أعداء ميراث فقهاء الأودية المعتدلين. "مكنسة" بدّل عمامته، وجِلبابه، ومركوبه بالجديد القشيب، وتعطّر وأمسك بالسّواك في كلّ وقت، لكنّ بقيت أسنانه قذرة بنيّة اللون تتحوّل كل يوم إلى السواد، وكلّ فترة يضطر لخلع سن أو ضرس، فازداد قبحًا على قبح. "مكنسة" في زاويته التي هدّوها، وبنوها جامعًا كبيرًا أخذ يكيل السّباب على النساء، فهنّ سبب كلّ غواية، وهنّ سبب كلّ نكبات المسلمين، ويجب عليهنّ أنّ يقررن في بيوتهنّ تحت أزواجهنّ، ولا يفارقنهم إلا ذاهبات إلى القبر. ومع إدانته للنساء لم ينسَ أنّ يزيد الكيل على النّصارَى، واليهود، وألصق عليهم كلّ وبيل عمّال على بطّال، وأنّ عليهم دفع الجزية أضعافًا مُضاعفة وهم صاغرون، أو يرحلون من بلدهم "مصر"، فقد صارت بلد المسلمين فقط! وحين يختلي بإحدى زوجتيه البائختين من حيث الفتنة، يستعين بتخيّلات من فتنة "نَجِيَّة"، وتموجات شبقية من جسدها، ونفحات من طيب رائحتها عن روائح زوجتيه النتِنَة –على حد قوله– في شكاويه لمن حوله، ممهدًا لطلاقهما والإتيان بِبُدَلائهما.

رفض "إبراهيم"، ورفضت "زكية" عرض الشيخ "مكنسة"، فدعا عليهما الشيخ، ووصمهما بأنهما يُسَرِّحان ابنتهما لتجمع لهما المال،

ولا يهمّهما أنّه مال حرام، نتيجة لإغواء رجال المسلين، ولهيهم عن ذكر الله! بعدها أخذ الشيخ "حرنكش المكنسة" في خُطب الجمعة وغيرها، يلعن العوالم اللاّتي يعملن في إحياء حفلات الأعراس تحت إمرة قوادتهن الضامنة. وأيضًا لعناته تنزل صواعقًا على بنات البنوت، السّارحات في الشوارع، ليغرين المسلمين بالفاحشة، زي مين؟.. زي البنت "نَجِيَّة" الفلاحة أم بِزاز كبيرة!

توالت على "نَجِيَّة" المحازن. ففي عصر يوم، وهي تحثّ المتحلّقين عليها، وعلى الحاوي وصبيانه، المبحلقين على جسدها أنّ يملؤوا الكوز من دراهمهم.. جاء بضعة شباب كلّهم مُطلقين لحاهم، حافّين شواربهم، فقراء حفاة كما أغلب الناس. الفرق أنّ كلهم متُجهّمين، غاضبين، ينطلق الشرر من أعينهم. كلٌّ منهم يحمل شُومة غليظة. وسطهم زعيمهم عادي الجسد، قمحي اللون لا يحمل سوى عصى رفيعة تساعده على اكتشاف طريقه. عيناه تبربشان، وتريان بصعوبة. يسأل من حوله عن الفتاة التي تنادي بذلك الصّوت المثير. وصفوها له. هز رأسه، ونفخ في اشتهاءٍ زفيرًا حارًا من رئتيه، ثمّ ضم شفتيه في قرف. دخل فجأة وسط الحلقة، وعصابته من حوله. وجّهوه ناحية "نَجِيَّة". وقف أمامها وهو يبربش مُتمعنًا في هيئتها التي لا يستطيع تحديد معالمها جيدًا. صاح وحديثه مُوجّه للحاوي البعيد عنه..

– "ياحاوي. يا كافر يا اللّي مش بتّتقي ربنا. إزاي تسمح لحُرمَة تشتغل معاك، والناس يتمعّنوا فيها، ويسمعوا حسّها كَتَكْ كَتْم حِسَّك؟، وكمان

زمّار يزمرْ؟! المزمار هو صوت الشيطان يا مُلحد يا ابن الملحد."

تلاسنا الحاوي والمبربش، وارتفع صياحهما. المبربش يُعلن أنّه يريد حماية البنت من عرض نفسها على الرجال، مستعد أنّ يتزوّجها على سنة "اللـه" ورسوله، ويُسَتِّتُها في بيت ويسترها، ويحميها! "نَجِيَّة" سَبَّتْ المبربش رافضة تَدخّله في شئونها. لعنها، فلعنته، هدّدها فرفعت قبقابها تُهدده بدون خشيةٍ من عصاته، وشوم عصابته. والحاوي بعد أنّ شتم المبربش بأبيه "سَكرو السكران"، وبأمه "حزبلة"، فألجمه وكاد يبكيه، هدّده باللجوء للمحتسب، حتّى يردع المبربش وعصابته. كاد التلاسن يصل للتضارب. الحاوي لان قليلاً فحول المبربش العديد من عصابته المسلحة بالشوم الغليظة، المبربش هدأ قليلاً، فالمحتسب إنّ ذهبوا له، فسوف ينال الجلد، وقد سبق وتذوّق طعم الجلد. انصرف المبربش، وخلفه عصابته بعد توعّد الحاوي و"نَجِيَّة" بأنه لن يتركهما. والحاوي عائد مع فرقته. "نَجِيَّة" غاضبة، وفي حالة قرف من قبح هذا المبربش، وقذارته، وتهجّمه عليها.

طلب منها الحاوي أنّ تركب الحمار، رفضت. تسير بينه وبين الزمّار ولا تشارك في حوارهما. الحاوي حكى عن المبربش.. وُلِدّ شبه كفيف لأسرةٍ بالغة الفقر، لأبٍ مخمور طوال الليل والنهار أطلق عليه العامّة اسم "سَكرو السكران"، ولأم عقلها أعجف من جسدها الأعجف، يقال لها "حزبلة"! لماذا حزبلة؟ محدش عارف، هيَّ جت كدة. هجرهما أبوه "سَكَرو السكران"، فغرقا في الفقر أكثر، وأكثر حتّى وصل بهما الأمر إلى حدّ البيات جياعًا، عاشا عيشة الضنك، لولا وقوف أهل الخير، وتقرير

ما يحتاجانه من مأكل ومشرب، إحسانًا. أرسله أهل الخير للكُتّاب، ليحفظ الكثير من القرآن الكريم، وعمل "فقي" في المقابر، وليس له أيّ كيان إنساني. وبدلاً من أنّ يردّ الإحسان بالإحسان للناس. شبّ حقودًا، حسودًا، غلاّويًا نفساويًا يُنَفْسن على الناس. لتهوّره يخشاه الكثيرون. من سنتين ادّعى أنّه غَيور على الإسلام، وأنّ النبي زاره في المنام، وأرشده إلى سواء السبيل لخير الأنام!، ويحاول المبربش أنّ يكون زعيمًا دينيًا.!

عادت "نَجِيَّة" إلى حجرتها في حالة قرف من الدنيا وما فيها. زهقت وتعبت من كثَرة المشاكل، خاصة مشاكل أنوثتها. استلقت، وقالت كما كانت تقول لها أمها..

- "آه لو كنت راجل، لا عندي صدر، ولا عندي بتاعات تِلِمْ عليّ العيون. كنت استريحت من قرف الرجالة."

ليلة من ليالي الأرق أضنتها، وعكننتها. صحيت مبكرة أكثر من المعتاد. مازالت العصافير تصوصو على أغصان الشَجر. لم ترحل لرزقها بعد. الشّمس أعلى جبهتَها لم تبان. ديك يصيح، ليؤكّد أنّه جلب النّهار بالفعلِ. تتجه إلى المقهى. الجِمال والحمير حاملة الخضروات لم تتزاحم بعد. المعلّم "الدوسري" واقف وحده بعصاته الأنيقة يتحدث مع مساعد له. أقبلت "نَجِيَّة" تسير وهي ساهمة. وجهها أكثر طزاجة من خضرة الخضروات النْدية. انتبه إليها المعلم "الدوسري" بشدة. التقت عيناها بعينيه. ارتعشت، وارتبكت خطواتها وهي تواصل سيرها إلى المقهى. جلست وحدها تنتظر بقية مجموعة الحاوي. لا تتحادث مع صاحب المقهى، ولا مع مساعده. لا تسمع أيًّا منهما. لا تنظر ناحية المعلم "الدوسري"، ولا هو ينظر ناحيتها.

هو يتحدّث بدون بال مع مساعده، وهي ضاع منها البال تمامًا. باطنها يفور لأسفل، ويشعلها، وسخونة في ثدييها تشعّ حتّى إنهّا نظرت إلى شقّي ثدييها في توتر. وجهها لم يعد أبيض، صار في حُمرة اشتعالها الدّاخلي. فحولة المعلم "الدوسري" ضربتها بقسوة في أنوثتها. إنّه الوحيد الذي اهتزّ جسد "نَجِيَّة"، واضطرب له. بعدها.. في جوف اللّيالي حين ينفرد بها جسدها المَحروم، لم يعد شبح الشّاب الأشقر الوسيم يأتيها وحده، مطمئنًا أنّها تنتظره، صار يزاحمه جسد المعلم "الدوسري" الممتلئ. جسدها صار له شبحان يتنافسان عليه، وهي تختار من منهما تسمح له بأنّ يلاصقها، هل المراهق سليل الغُز الحلو الأشقر، الحبيب المشبع بصبو الصِبَى والطفولة؟، أم كامل الرجولة ابن البلد المترع بالرجولة والفحولة؟. تحتضن هذا، ثمّ تتقلب لتترك هذا يحتضنها، لكنّ "الدوسري" لا يقبل أنّ يشارك الأشقر في جسدها! خياله يريدها له وحده! وجوده راسخ طاغي باغي عليها نفسًا وجسدًا.

في صباحات الأيام التالية تعمدّت الحضور متأخرّة، حيث تكون السوق الصغيرة. مكتظة، والعمل على قدم وساق، والمعلم "الدوسري" في انشغاله. يرجّها رجًا بطغيان ذكورته، ويُشعرها بالخجل من نفسها أنّها تمارس ما هو عيب مع صبيي الغُزْ. تتثاقل في عملها، ولا تتلاعب بأنوثتها، ولا يهمها أنّ غلّة الكوز تقلّ دراهمًا.!

الشتاء أقبل. أمطاره قليلة وبرده خفيف محتمل، وغلاسته لا تقارن بغلاسة الصيف. هجرت "نَجِيَّة" العمل مع الحاوي، بعد أنّ ألح الحاوي

على ضمها له زوجة ثالثة! حجّته نفس حجج الشيخ "مكنسة"، والمبربش وغيرهما.. أنّ يحميها من عيون الرّجال ومن القِيل والقال! عملت في المصبغة مع أبيها. لم تستمرّ سوى ثلاثة أيام. لم تتحمّل الصبغات التي تصبغ ساعديها، وتُشوههما. تركت العمل، وأخذت معها أباها، صحّته تتدهور، والعمل أثقل من أنّ يتحمّله. أتوا له بعصى طويلة على قمتها علبة مليئة بالزلط يشخشخ بها، وينادي على حلاوة زمان. الحلاوة في علبة خشبية متوسطة معلّقة بحبل على رقبته، لتتدلّى أمام بطنه. عمل لا يرهقه. فله أنّ يجلس ويستريح في أيّ مكان. يبيع كثيرًا أو قليلاً لا يهم.

مصاريف عائلته البسيطة تعتمد على مكاسب "نَجِيَّة". قدما "إبراهيم" صارت تقودانه كلّ يوم إلى أطراف القاهرة، مشوار بعيد، لكنّه يريد أنّ يرى المزارع النضرة، ويتملّى في الخضرة. يتملّى خاصة في حقل قمح صار بلونه ذهبًا خالصًا يلمع تحت شعاع الشمس. يتحسرّ على حقله، وقمحه الذي كان يسلبه منه الغُز. يجلس ناظرًا إلى الحقول. لنفسه يحكي مَحازِن مما جرَى، ويبكي. يمر به الوقت فيعود خطوة خطوة. اكتشف مقهىً به منشد ينشد حكايات ألف ليلة وليلة. وجد عنده سلوته وراحته. يتابع قصّص السّلاطين، والمحبين، والجواري، والعفاريت، والمغامرين. يسرح معهم ومع المظلومين الذين يفوزون في النهاية براحتهم ومأربهم. يدخّن ثلاثة أحجار من الدخان الثقيل، وهو يستمع مع بقية الغلابة للحكي، والعزف على الربابة. يترك المقهى، منتشيًا ليصل بعد صلاة العشاء، فيجد زوجته "زكية" في قلقٍ عليه. يلقي بنفسه على حشيته بدون عشاء، فقط يطلب قلّة المياه ليشربَ. ينام و"زكية" جالسة بجانبه تبكي سوء حظّها.

تتحسّر.. لو كانت أختها "خضرة" معها الآن، لاستمعت لها، وواستها. تضرب براحة يديها على جانب رأسها، وتصرخ صراخًا مكتومًا..

– "واحشاني يا خضرة يا ختي؟! ياترى بتقولي عليّ إيه يا خضرة؟! اوِع تقولِي عليّ قليلة الأصل؟ غصب عنّي فُوتِّك، وطفشت. خفت على "نجِيَّة" اللي فاضلة لي. عارفة يا ختي.. هاها.. دي يا أختي في الرّقص لهلوبة زيك. طالعة لخالتها. طالعة لكْ شكل، وعمايل. آه يا خضرة.. ياترى عايشة ولا ميتة؟! ياترى ولادك حالهم إيه ياختي؟!، لسَّاكِ يا أختي بترقصي رقصك الحلو، وتغني الأغاني إيّاها في أفراح الولاد والبنات؟، لسّة زغروتك بتضوّي في البيوت والغيطان يا خَضْرة؟، ياما نفسي أزروك، وتزوريني، ونقعد نتسامر تحت جمّيزة بيتنا، ولا توتة بيتكم. يا ترى يا جميزة أحوالك إيه؟، ومين بيقعد تحت ضِلّك؟ ربّنا على الظالم. ربنا على الغُزْ، وعلى اللّي بيوالسوا الغُزْ."

"نجِيَّة" في طريقها تمرّ على شارع عريض تظلّله الأشجار، وبه عدد من البيوت الواسعة، وصاحباتها ضامنات العوالم. وبعد كلّ مغربية تأتي النساوين، والفتيات الغوازي لتلك البيوت، استعدادًا للإنطلاق، لإحياء الأفراح، والحفلات الملاح. مرّت في الشارع أكثر من مرة، سمعت أصوات الطبلات، والضّحكات، وشخللة الصّاجات. تريد أنّ تتشجع، وتدخل، وتعرض نفسها لتعمل غازية راقصة. تحبّ الرقص، لكنّ رقصها فلاّحي، وليس رقص غوازي المدن. لا يهمّ. تتعلّم. لم تملك الجرأة، لكنّ لتموّجات جسدها وهي تسير، لاحظتها ضامنة. فأرسلت خلفها فتاة

نادتها، وأتت بها. عرضت عليها العمل مع فرقتها. مكسبها أكثر بكثير من العمل مع الحاوي. وافقت. أمها رفضت.

"زكية" مرعوبة من هذا العمل، فربّما انزلقت ابنتها إلى ما بعد الرقص من هجص. "نَجِيَّة" تشتاق للعمل في الرقص والغناء، متأكدة أنّ هذا اللّون من الحياة سوف يطلق الكثير، والكثير من سخونتها المحبوسة، ويعطيها الكثير من الرضا، واثقة أنّها ستستمتع، وسترتاح أكثر بكثير من عملها مع الحاوي، أو غيره. انتظرت الاعتراض من أمّها، فتريحها أمّها من أخذ القرار. خائفة من هذا العمل متوجّسة. لكنّها حين غفلة ذهبت ليلة متلصّصة، وشاركت في إحياء عُرسٍ شعبي. أضافت شجاعتها فوق تشجيع ضامنة المغاني، تناولت من يديها قارورة، وتجرعت جرعتين ثلاثة من الخمر، فانتعشت، ولمعت عيناها. رقصت، وفضفضت ما كان مكبوتًا في جسدها من حركات وانتفاضات. لم تبالي بغيرة راقصة قديمة على أنّ رقص "نَجِيَّة" "رقص فلاّحي"! شاركت مع أخرى في غناء أغنية أعجبت الناس، وأعجبتها..

تحت الشفّة الرقيقة

يحلى مضغ اللّبان

أتمايل، وأنا أبوسك

يا عُوِيْد الخيرزان

يجرالك ما جرالي

ياللّي تلوم عليّ

أخذت دينارًا كاملاً، وأغرتها ضامنة المغاني أنّ تأتي كلّ ليلة، فالرزق سيزيد، ويفيض. لم تعد لها "نَجِيَّة" بعد هذه الليلة. اكتفت بمتعة سهرة واحدة، حتّى لا تنقلب الأمور، فتنزلق وتندلق حيث لا عودة، وحيث سوف تضيف طبقات حزن جديدة على طبقات حزن أمِها.

منعت نفسها من الفِكاك، والمنع الطويل فيه الهلاك. نفسها حزينة؛ لأنّ جسدها محبوس حزين. أيام طالت "ونَجِيَّة" مصدودة النفس عن العمل. محبوسة طوال الليل، والنهار في حجرتهم. دموعها مِدرارة، ونفسها مُنهارة. أمّها ترجوها أنّ تحكي لها آلامها وهي عالمة.. جسد ابنتها فائر ثائر يطلب حقوقه، ونفس ابنتها تعبانة زهقانة، وأكيد في بالها شاب مّا تأمله، ولا تملكه. تعب "نَجِيَّة" من الجسد المحبوس، والجنس الوسواس، ومن حصار الناس. الشيخ "مكنسة" أتباعه يتزايدون، وعصابة المبربش تضاعفت، وصاروا يمتلكون حِمارًا يضعون عليه المبربش، والمبربش نفسه صار عنده أكثر من جلباب، وفي قدميه لم تعودا حافيتين! وأتباع هذا، وذاك يطلقون ألسنتهم عليها، وعلى كلّ فتاة تعمل، حتّى لو كانت تعمل مع أبيها وأخيها.

في مغربية يوم خرجت لا تعلم أين، ولا تعلم ماذا. مللها عميق، وضيقها غميق. تريد الترويح عن بؤسها قليلاً، والهروب من صراخ جسدها، وحصاره لها أكثر من هروبها من خيالات الشبح الأشقر، وجسد "الدوسري". قدماها أخذتها كما أخذتها من قبل أكثر من مرة

إلى زحام ساحة الشيخ "معروف". غرقت وسط البشر، ولا تصدم أذنيها نداءات البائعين، ولا مساومات الشارين، ولا تأبه للمعاكسات، ولا تحسّ بالملاقشات التي تلامس جسدها من هنا وهناك. لا تهتمّ ببائع ينادي على حلاوة بسبوسته وهو في الحقيقة يغازلها هي. ولا يهمها نظرة غِيرة من بائعة هوى تراقب جسدها، وتتحّسر وجوفها مَهْري أنّها لا تملَك مثل جسد "نَجِيَّة" المغري. منصّة خشبية عالية ترقص عليها، ويطبل لها مطبل، ويزمّر لها مُزمر. تقف "نَجِيَّة"، وتنظر وهي لا ترى. بالها ضائع، وقلبها صايع. يلاصقها جسد من خلفها في بذاءة. تلتفّ وهي تبتعد خطوة. رجل ضخم ذو وجه جلمودي. ابتعدت، وأخذت تهيم وسط الزحام. تمرّ بجوار غرفة طينية، فلم تشعر بنفسها إلا وقد رُفعت، وفي لحظة كانت مخطوفة داخل الغرفة شبه المظلمة. تحاول الصْراخ لكنّ كف قوية تغلق فمها. تحاول الفلفصة، لكنّ أكثر من يد تمسك بها. ملقية على ظهرها. رغم الظلام تبينت أن عسكري مملوكي جُلمودي الصخر يرفع ملابسه، وشاب وفتاة يمسكان بها، وامرأة عجوز تشلّحها. عضت اليد التي تمسك بها، وبكلّ ما تملك من طاقة تخلّصت من إحكام تكتيفها، ولا تحسّ بالضربات التي تنالها. صرخت وخربشت وجه الفتاة، ثمّ ضربت وجه الشاب، ورفصت العجوز، ووقفت وجلمودي الوجه نصفه السفلي عاري، وعضوه مشتد، ووجهه في دهشة من عُنفوان "نَجِيَّة" وقوتها، وسرعتها.

"نَجِيَّة" تسير مُهرولة وسط الزحام، وهي تلهث، ودموعها تهطل. وكلّ خطوتين تلعن بأقسى اللّعنات على أولاد الحرام. عادت للبيت

في حال أنيل، وأزرط مما كانت. وهناك بدأت آلام في ظهرها، ووجنتها نتيجة الضرب الذي كالوه لها.

بائع الأدوية الجوّال طلبها أكثر من مرة. وهذا لا يقل عن ذاك في الطفاسة على النّسوان. بائع الأدوية يريد النّط على مجموع نساوين القاهرة. ولما أفلست "نَجِيَّة"، وأصبحت محتاجة للدرهم، وقيل "المحتاجة غنّاجة"، وافقت أخيرًا على العمل مع بائع الأدوية. تسرح معه في شوارع القاهرة الشعبية. عملها شبيه بعملها مع الحاوي. المساعدة في تجميع الناس، وترديد بعض الجمل خلف البائع. جذب أنظار الذّكور خاصة. البائع يحمل كيس قماش مُعبّأ بالقوارير الزجاجية مختلفة الألوان، وصفيحة مليئة بسائل له رائحة كريهة، وأخرى ذات رائحة مقبولة. وهذه هي عِدّة الشغل. في وسعاية ما، وحسب نوعية الزبائن ينادي باللّون الذي سيعجب الناس، و"نَجِيَّة" تكرر ما يقول..

- "البلي بلي بم بم، والبلي بلي با." [1]

- "البلي بلي بم بم، والبلي بلي با."

- "قالك إيه. قالك آه."

- "قالك إيه. قالك آه."

يرفع البائع يده بزجاجة مليئة بسائل ملوّن، ويشوّح به للناس، وكأنه يمسك بجوهرة..

(1) من أشعار أحمد فؤاد نجم.

- "قالك دي شربة عجيبة. من تركيبة بلدي، يا بلد البلي بلي باه. شوف يا رعية بالتقلية. عندك إمساك فوق الإسهال. عندك دوخة يا دي البوخة. عندي دواك، والرّب معاك."

لا يترك علّة إلاّ وعنده علاجها. ولا ينقضي اليوم إلا وقد باع، وعاكس بعض السّيدات، فلا يترك لا كبيرة، ولا صغيرة، لا سمينة ولا رفيعة. ومرّ أسبوع ولم يمرّ يوم من أيامه، إلا والبائع يراودها بكلّ ما ناله من خبرات، وهي تهدّد، وتتوعد وهو يلين ساعة حتّى لا تتركه، ثمّ تهيج عليه علّته، ويعود لمشاكستها.

اليوم الأخير..

في وسعاية يقف، وينادي..

- "موسى نبي، وعيسى نبي، ومحمد نبي، وكلّ من له نبي يصلّي عليه. شوف بعينك، واسمع بقلبك يا مؤمن.. المريض ليه عندي الدوا. والعليل يجيني نِعّلْ العلّة، ونْسَلِّمْ الجنَّة. قرّب يا ابن حوّا وآدم، وخلّي تُكالَكْ على اللـه."

"نَجيَّة" تردد كلماته. ترفع ذراعيها عاليًا، فيتراجع كماها ليبان ذراعاها حتّى قرب الباط. تُصفّق بكفيها، وجسدها يتمايل بخفة، تجلس لتفتح الصندوق الصغير، أو كيس القماش، فتتعمّد إظهار ساقيها حتّى ركبتيها، وتضييق الجلباب على مقعدتها. ويجتمع الناس؛ ليستمتعوا بالبحلقة في جسدها المدملج، وليستمعوا لشرح أنواع الأدوية وكيفية الاستخدام، حتّى يأتي الدور على من في بطونهم، ومصارينهم دود سواء من الصغير،

أم من الكبير بطول الثعابين. ينادي بائع الأدوية، وتجاوبه "نَجِيَّة"..

– "قالّك إيه؟"

– "قالّك آه."

– "قالّك شِربة الزيت العادية تِنزّل دود الحِنِشَة؟"

– "قالّك لأ"

– "قالّك ليه؟"

– "قالّك معرفش."

– "قالّك طَبْ شَربة المَسَلّكاتي تنفع؟"

– "قالّك لأ."

– "قالّك طَبْ بَكَشْ المَقَرَّعاتي يفيد؟"

– "قالّك لأ."

– "قالّك شَربة الواد الفاجومي بتنزّل الحنش؟"

– "قالّك آه. قالّك آه. قالّك آهين، وتلاتة، وأربعة."

– "كده.. يبقَى خَصيمَكْ النّبي لما تشتري من الفاجومي، لا تدّيها لواحدة حامل، أو لطفل رضيع، أو حَدْ أفرنجي."

"نَجِيَّة" تعمل من مطلع النهار للغروب. وأحيانًا مع سقوط الأمطار يهرب الناس، فلا يتحلّقون حول "نَجِيَّة" وبائع الأدوية، فيعودوا لبيوتهم

مُفلسين قرفانين. طلبها الحاوي مرة، واثنين، وثلاثة وهي ترفض العودة للعمل معه، كرامتها ناقحة عليها، كيف تعود له، وقد رفضته من قبل؟ صحيح العمل مع الحاوي يأتي بدخلٍ أفضل، فتكسب ما يسترها، ويستر أبويها بالكاد. ولما تهجّم عليها بائعُ الأدوية وهو سكران طينة، شمطته بركبتها في خِصيتيه، وهربت منه وهو يلعنها؛ ويسبّ الدين للنساوين الفلاّحي. وبعد الكثير من الاعتذارات، والرّجاءات من الحاوي، وبعد أنّ أقسم يمينًا أنّه لن يُحادثها مرة أخرى في الزواج، بل سيجبر الزمّار ألاّ يحاول التقرّب منها، وإلاّ طرده من العمل، عادت للعمل مع الحاوي.

تثق في نفسها، لا يعتريها قلق من الحاوي، فلن يستطيع إجبارها على شيءٍ ترفضه، القلق أنّها كلّ صباح سوف ترى المعلّم "الدوسري"، ولو من بعيد، وسوف يراها وهو في زحمة عمله. جسدها يشتاق إليه شوقًا مؤلمًا، وعقلها يفكّر فيه مُرغمًا، وهو أيضًا صار مهووسًا بها مغرمًا. طلبت من الزمّار طلبًا، فوافق فورًا ونفّذ، أتى لها بقارورة خمر، قال لتأتي معه ويتسامرا، رفضت، فهي تريد الخمر، ولا تريده. كلّ أسبوع يأتيها بقارورة تشرب منها كلّ ليلة جرعتين ثلاثة، بدون أنّ تراها أمها.

والأيام تَتْرَى.

الشتاء ببعض أمطاره، وبالخفيف من برده انقضى، الربيع سريع أتى، فأينعت الزهور في القصور، وفي الخرابات، والشوارع، والأزقة والحوارى تكاثر الذّباب والصراصير، وتكثّفت روائح القمامات والكناس وعرق الناس. ومن بعد الرّبيع السريع أتى الصيّف الرزيل الطويل. بدأ القلق

الموسمي.. انتظار وفاء النيل. السّلطان الأمجد "بِنْبان" قرّر، وقراره يكون، أنّه بعد وفاء النيل، يبدأ العمل في بناء جامعه الكبير المُطلّ على النيل، والذي تأتي بعض أحجاره، وأعمدته من معبد فرعوني قديم، سبق أنّ انتشل منه سّلطان سابق بعض أحجاره، وأعمدته أيضًا. وجامع الأمجد "بِنْبان" يكون بإيوانات أربعة، وكلّ إيوان بمذهب سنّي من المذاهب الأربعة، صحنه الرّئيسي يتحمّل مُصلّون زحمة، وفي ركن تكون مقبرته الفخمة. التخطيط جاهز، والأموال اقتُطعت من بيت المال، ولا يهمّ إنّ كان بيت المال يتحمّل هذا البذخ أم لا، فالسّلطان ومن حوله لهم الخيرات، والرّعية ليسوا على البال.

المتابعون يتابعون ارتفاع مستوى النهر المتقلّب. فإن ارتفع كثيرًا فسوف يُغرق الحقول، ومساحات شاسعة من المدن بما فيها "القاهرة" العامرة في بعضها، والبائسة في بعضها. وإن أتى منخفضًا، وقيل إنّ النيل شَرَقْ، فيا ويل "مصر" كلها.. عطش الزراعات وموتها، فيضربهم الجوع، حتّى يأكلون الكلاب والحمير، ثمّ يخطفون الأطفال، ليقتلوهم، ويسلقوهم، ويمضغوهم ويزدردوهم.. قال المثل.. "الجوع كافر".

الدعاء "لله" مُن القلب أنّ يفي النيل بالمعقول المقبول، فلا يهدر، ويكون طاغيًا، فيغرق البلاد، ولا يتسنكح، ويكون كسيحًا فيعطّش العباد، الدعاء من الشيوخ في المساجد، والقسس في الكنائس، والأحبار في المعابد، في الرّيف وفي المدن. أتى النيّل وافيًا لا مستعفيًا ولا مستضعفًا، ومرصاد الروضة رصد علوه (18) ذراعا، بما يقال عنه "فيضان سّلطاني

سعيد" يُبشر بالنّماء وبالرخاء، ويجعل "مصر" طول عامها في عيد. هذا في حال أنّ يكون السّلطان سّلطانًا رشيدًا، وأما إنّ كان غير ذلك، فلا وفاء النيل يفي باحتياج الناس، ولا خضرة المزارع تُخَضِّرُ صُفْرَةَ الالتباس.

السّلطان وبطانته أخذوها فرصة، لتلهية الرعيّة عن غُلبهم باحتفالاتٍ متنوعات، تجمّعات، وهيصات تُرَطِّبُ غلبهم، وضيقهم، وقرفهمَ، ويبعدهم عن القيام بهوجة. وأيضًا تحضير قرار خطير يُرضي من لا عقل لهم، ولا وعي، ولا ضمير، ليرضي الصّحراويين الذين اخترقوا الأزهر الشريف بانضمام بعض شيوخه لهم مقابل جانب من الدنانير. الناس تهدَى، وتِغْفل، وعَبالِ ما يفهموا إنّ القرار خاطئ، تكون مرّت مواسم بعد مواسم، وبعدها اللّي قاعد على عرش السَلْطَنَة يبقى يِشْرَبْها.

من بداية النّهار الحار، والمنادين في شوارع القاهرة ينادون..

- "نِعَمُ لا تُحْصَى من خزائن لا تُفنَى. زاد "اللـه" في النيل المبارك. اشكروا اللـه، واشكروا السّلطان الذي رضي عنه "اللـه" هو والأولياء الصالحين، فأرسل النيل موافيًا!"

النيل.. بالقرب من السّد التّرابي الذي سيتم كسره، لتندفع المياه في الترعة الجافة، ومنها للبرك المنتشرة في القاهرة، فتتشبّع بالمياه. القوارب المتنوعة وعلى أشرعتها عُلِّقت بيارق، وفي أرضيتها، وجوانبها رُصَّت نمارق. وفي البر زحام آتي، لينزنق في زحام سابق. جمع غفير من جهة، ومن جهة أخرى جمع وفير، مشاة وعلى الحمير، البائعون نشطون يزيطون بأصواتهم، لِتِحْلَوْ بضائعهم في نفوس الزّحام. بائعي البسبوسة،

والبطاطا، وحلاوة زمان التي تجذب الغِلمان. والمشارِيب كالعرقسوس، والخرّوب، والليموناندة، والسّقايين بقِرب المياه. والمكاريين بحميرهم، لتوصيل من يتعب، أو من يريد الدلع، أو البنات، والنسوان اللاتي يُردن المظهرة والغندرة. مولد "وفاء النيل" مشحون بالنصّابين أيضًا، وبالمكارين، والشطّار يخالطون مَن ليس عليهم غُبار. زِحام في زِحام. كبار الناس والعامّة، أفاضلهم واللّمامة. ذكورهم، وإناثهم، ومن يؤمن باليوم فقط، ومن يوقن بالقيامة. الكلّ في هيصة، ومَهْيَصَة، وفرحة بريئة ومَهْجَصَة. حلقات حول المغنواتيَّة، والرقّاصين، والطبالين. زغاريد وفرحة من القلب بالنيل الذي بوفائه يكون رغدهم، وبخسسانه يكون خسرانهم.

جماعات من الشباب الملتحي الغاضب تسير هنا، وهناك، ووجوهم تبكّ العرق والغيظ. تريد تبويظ هذه الاحتفالات بقولهم عنها إنّها بِدَع، وكلّ بِدْعَة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار، كما قالت لهم- "جماعة الصّحراويين". "المبربش" وسط جماعته رغم أنّ اثنين من كلّ جانب يُمسكان بالحمار الذي يمتطيه، فهو مازال ممسكًا بعصاته تحسّبًا لأية ظروف. لا يرى شيئًا، وإن كان يسمع كلّ شيء. لولا عسكر المحتسِب المراقبين لكل الأمور، لنزلوا في الناس ضربًا بالشّوم، ولعنًا لهم بالكُفر الصريح. "المبربش" يبحث هو وجماعته عن الحاوي، و"نَجِيَّة". يقسم لو وجدهما يعملان مع الزمّار، والصّبي، والحمار، لانهالوا عليهم بالشّوم، ثمّ سريعًا يهربون قبل أنّ ينتبه منتبه. ومن حسن حظ الحاوي و"نَجِيَّة" أنهما مع البقية كانوا في مكان مُتطرّف، فالزّحام المبالَغ فيه لن يسمح لهما بمساحة كافية لعملهم، ولن يكون ذي فائدةٍ مادية.

أتى موكب السّلطان الأمجد "بِنْبان". طبلخانات تضرب الطّبل كالرعد. وأسراب فرسان مماليك في ملبس من أزهى ما عندهم. خيولهم من تحتهم أرجلها تُطبّل على الأرض، فصنعت هي أيضًا طبلخانة ضرب طبول. السّلطان على فرس أبيض مُطَهَّمْ، وفوقه القبة الحرير الحمراء التي تُظلّل عليه، ويحملها من الجانبين المملوكين المخصّصين لهذا. خلفه المملوك حامل تجسيد الصّقر وهو رنك السّلْطَنَة. وضح على السّلطان تُخْنه، وواضح أنّ الشحم في وجهه كاد أنّ يُغلق عينيه الكابيتن. على يمين السّلطان نائبه الأمير "حفيظ السلولي"، ثمّ "كمال الدين" الداودار، وعلى يساره الأمير "اليوسفي" أمير الجيوش، ثمّ الأمير "عثمان أغا". حولهم الحرس السّلطاني بقيادة المملوك الألباني. بعدهم بقية الأمراء، ثمّ المشايخ الذين زاد عددهم، والقسس والأحبار، ثمّ كبار التجار، ووسطهم "عز الدين" نقيبهم. وعلى مبعده "البهاء اليوسفي" على حصانه وسط مجموعة من أولاد الناس، يُخرج منديله ليمسح عرقه. الحسرة في قلبه.. كيف يكون أبوه على يسار السّلطان مباشرة وهو ابن أمير الجيوش وأبو حفيد السّلطان، ويرتمي على هذا البعد من الصدارة؟!.

بعد موكب السّلطان، موكب السّلطانة. "شمس" داخل كوشة حريرية على ظهر جمل. فتحت السّتارة من يمينها، ويسارها. تِتفرّج على زحام جماهير المصرية الفرحانين. هم يشاهدونها كاشفة عن وجهها الجميل. يتمعّنون فيها، ويلوّحون لها مظأطئين بها، وسعداء أنّهم شاهدوا السّلطانة "شمس"، وحفيدها الأمير "حسام اليوسفي". لا يهمّ أنهّم طوال سنوات ماضية يلعنون السّلطان الأمجد، والسّلطانة "شمس"، وكلّ حاشيتهما!

على ربوة تكشّف المشهد، أُقيمت سقيفة خفيفة مزيّنة، تحتها دكك لينة للسّلطان، وحاشيته، وخلفهم صف من العبيد يُروّحون عليهم بمراوح ريش النعام، ذات الأيادي الخشبية الطويلة، الناعمة، وعلى جانب دِكك السّلطانة لا تقل فخامة. أعطى السّلطان إشارة البدء فقال..

- "توكّلنا على اللـه."

وثبت مجموعة من الرجال بمعاولهم، وكسرت السّد الترابي الحاجز بين مياه النيل الريّانة، والترعة العدمانة، لتنطلق المياه إليها ترغو رغاءً يسعد كلّ أذن، وتشكّل بقاليل هوائية تُفرح كلّ عين. ومن هذه الترعة تُدفع المياه إلى بقية الترع الفرعية، والبِرَك القاهرية. على البر منطلقات نفوط، وتطبيل طبول، وزمّارات مزامير. وهيصات منطلقات من المراكب السّارحة على النيل، كلّها تهليلات، وشكرانية "للـه" العاطي خالق النيل.

ساعة مرت. وسط كلّ هذه الأنواع من الفرحات، وزحام الخلايق، "البهاء" حزين مِضّايق! كان يأمل أنّ يكون في الصّدارة مع السّلطان وأبيه، وأنّ يشارك في فرحة وفاء النيل، ومعه ابنه "حسام"، ويحتضنه كلّ دقيقة بدنًا ببدن، لكنّ السّلطانة مُمسكة بحفيدها مسك الحديد على اللّدن. وابنه مثلما يفكر في أبيه، ويريده بجانبه، يفكّر في أمّه التي ترفض حضور كلّ الاحتفالات مهما ألحّ ابنها عليها. يتجوّل "البهاء" على حصانه بعيدًا هنا وهناك، والناس تُوَسّع له. العوالم كلّ مجموعة حسب حلاوة غُناها، وحلاوة نسوانها تلمّ الناس حواليهاَ. شدّ أذنيه من على بعد صوت لِبنت لهجتها فيها شيء فلاّحي. تزعّق..

– "صليّ على النبي. وحدوا اللـه يا مسلمين. بُصْ يا اللِّي بعيد، قَرّب يا اللِّي هناك."

نغز "البهاء" حصانه، واتّجه إلى حلقة الحاوي. الدائرة واسعة. يراقب من أعلى حصانه. لم يلفت نظره لا الحاوي، ولا مساعده الشاب، ولا الحمار الذكي. تركيزه من الوهلة الأولى على الفتاة. قصيرة نوعًا. تكاد تكون ملظلظة. صوتها مثل جسدها مُترع بالأنوثة. بيضاء شعرها أسود في ضفيرتين ثقيلتين. بارعة في حركاتها السّريعة هنا، وهناك، والتي تبث هيجان الوصال. "البهاء" رأس حصانه ضرب في ظهور المشاهدين، ففتحوا له ثغرة. البنت تخاطب الجانب المقابل لبهاء. تدور حول نفسها، وحول السّاحة المتربة. تواجه الجانب الذي فيه "البهاء". تنظر للمشاهدين.. إذا بالشبح الجميل على ظهر حصانه قد أتى! شاب أشقر، وسيم هادئ. الحَرْ زاد خديه حُمرة تُلهب كلّ أنثى صَعب أنّ تلتهب. على رأسه عمامة بيضاء ناصعة، فأخفت سبائك شعره الذهبية. ملابسه حرير، وناعم الكَتّان. ذقنه الشهباء قصيرة أنيقة، وشارب مستقيم، ومن الجانبين رفيع صاعد لأعلى. عيناه خضراوتان، واسعتان طيبتان. "نَجِيّة" ادَّرْبِكِتْ، فلم تتحرّك، و لم تنطق، و لم تخفض عينيها من وجه الشبح المحبوب الذي أتاها بلحمه، وشحمه، وجماله من بعد طول غياب.

المرة الأولى من سنوات جاءها في قريتها على حصانٍ مراهق، مبتسمًا واثقًا من نفسه، تمتلئ عيناه بشقاوة صبي مُعجباني. هذه المرة.. المرة الثانية.. هل ما تراه حُلمًا؟! لا.. إنّه بلحمه وشحمه، وعلى حصانه

أيضًا! قلبها ينتفض، ويدقّ دق الطبول، ويُزغرد زغردة الحبور. فمها انفتح ببلاهة، وسحبت شهقة فجعة، فبرز صدرها وكأنّه سيثب على المحبوب في تعجّل وانبهار، ثمّ خرجت الشهقة زفرة أسخن من سخونة فُرن مشتعل طوال نهار. المملوك الشاب بِقَدْر فرحته برؤيتها، وتذكّره كم خَبلته تلك القصيرة برجرجة ثدييها، وتقلّبات عجيزتها، فهو سَهمان حَيَران، وبرغم سطوع جماله، فصار أقْمَرْ، وتَعَمُّق الرجولة فيه أكبر بمرور سنوات عُمْريّة، لكنّ أين ثقته بنفسه، وغرور المعجبانية؟! تقول "نَجِيَّة" لنفسها.. ماذا فعلت بك الأيام أيها المملوك الجميل؟!

"البهاء" مجذوب بهذه الفتاة القصيرة، الحافية، الفقيرة التي عشقها من أوّل نظرة، لم يَسْلاها، ولم ينسها مع توالي السنين، والتي بسببها نال في ساقه كسرة. يتمعّن فيها كما تتمعّن فيه. سهم "اللـه" الذي ضربهما سابقًا يتوغّل فيهما الآن، رغم ما بينهما من فروقات مكانة. فترة وأفاق "البهاء" أولاً.. يمسك نفسه من ابتسامة ستصل إلى الضّحك.. البنت في ذهولها مستمرّة في النظر إليه مجذوبة، مضروبة. العَرْض توقف.. الكلّ لاحظ ما حدث، ويراقب. البنت مُجَنْدَلَة في حيرتها تُمسك نفسها من الابتسام، ولا تستطيع الكلام، والشاب على حصانه لا هُو من توب الفقر، ولا هو من الألاضيش، والناس اللِّي أيّ كلام. واضح غناه، وسِحنته مملوكية تمام التمام.

الحاوي أخذ خُطوات سريعة مبتسمًا ابتسامة خنوع، وخضوع للملوك، وأمسك "نَجِيَّة" من ساعدها، ودار بها يستكمل عمله، فزمّر

الشاب على مزماره، وطبّل الغلام على طبلته، فانتبهت "نَجِيَّة" وعادت للعمل بِفَتْفوتة عقل، وبدون قلب. عقلها والفؤاد مع شبح الحبيب الذي غاب سنينًا وعاد. الحمار يُضْحِك الناس، و"البهاء" لا يضحك. يراقب فتاته الفلّاحة، وهي تخطف نظَرات إليه، وقد فقدت حيويتها، وحماسها للعمل، ونشطت نفسها، وامتلأت بالأمل. في النهاية "نَجِيَّة" تحمل الكوز في يدها تجمع قطع النقود الصغيرة من المشاهدين، وهي تنادي..

– "بص بعينك، وارحم بقلبك. اللّي يِقَدّر يقدَّره المولى. واللّي يطنش يبقى يشوف حيجراله إيه!"

لما اقتربت من حصان "البهاء"، كيس صغير محمّل بالنقود سقط في الكوز. أسرع الحاوي ليقف أمام حصان "البهاء"، وأخذ في الشكر، وتقديم فروض الرّضَى والامتنان. لكنّ أين نَجِيَّة؟ اختفت وسط الزحام، ولم يجدها "البهاء" رغم لفه ودورانه على الحصان في الشوارع التي حوله، فزاد حزنًا على حزنه القديم.

على باب البيت يجلس عَمْ "إبراهيم" مُكَحْكَح معدوم الصحّة، وكلّ فترة تمسكه نوبات كُحَّة. جعل العتبة دكّانه. أمامه سَبتْ عليه قماشة، وعلى القماشة ثلاثة أكوام مختلفة الأنواع من الحلاوة العسلية. يغفو، وكلّ فترة يفيق، ليهشّ الذباب المتراكم على أكوام الحلوى بمنشّة مسلولة. زبائنه هم الأطفال. المرض يعصره. ممصوص من الدماء التي تتسرّب يوميًا من دُبره. منهوك من الآلام المبرحة. هنا يجلس، ولا يترك مكانه إلاّ إلى المقهى، يجلس تحت شجرة، ويدخّن الجوزة، ويعود على عتبة البيت،

لتعاوده نوبات الكُحَّة. لم يعد يستطيع السّير، ولا حمل أيّ يَسير. مشوار أطراف القاهرة، ليستمتع برؤية المزارع، وشمّ عبقها صار مستحيلاً على هُزاله، وصدره المتعب، وبواره.

"نَجِيَّة" مُقبلة حافية في خُطواتٍ سريعة لا تنظر لا هنا، ولا هناك. من حارة لحارة حتّى دخلت حارتَها. ثمّ دخلت بيتها، بدون أنّ تحس بتواجد أبيها، وسعاله، ولا أبوها في حالته أحسّ بها.

استلقت على ظهرها بجوار الحائط. تنظر إلى السقف. وصدرها يعلو، ويهبط في سربعة. أتت أمّها تنظر إليها في قلق..

– "مالك يا بنتي؟ إيه حصل لك يا كِبدي؟"

– "..".

– "ردي عليّ يا "نَجِيَّة". حَدْ زعّلك؟ حَدْ مد إيده عليكِ جَتُهْ جَطْع إيده؟"

– "مفيش يا امّة."

حوار لم ينته، حتّى عندما هبطت الدّموع من عيني "نَجِيَّة"، فلحقتها دموع أمها "زكية". لم تنطق "نَجِيَّة" ولم تفهم "زكية". ماذا تقول الفتاة لأمها؟ حبيبها الفارس المملوكي الذي شاكسها، وطاردها، والذي تسبّب في مقتل ابنها "عَزّازي"، وضَرْب زوجها.. عاد بسلامة "اللـه"، وظهر، وبان!. تقول لأمّها إنّها كانت ممتنعة عن الزواج طوال هذه المدة، لأنّها تنتظر قاتل ابنها؟ تعترف بأنّ جسدها مكبوت، مضغوط، وينتظر هذا

الحبيب، لينطلق، ويُفرغ كلّ ما يحبسه بصعوبة داخل خلاياها؟! ثمّ إنّها في معركةٍ شرسة مع نفسها.. كيف أصابها الغباء، فهربت من ساحة الحاوي، وتركَت الفارس الأشقر الجميل الذي غاب كلّ هذه السنين، وعاد من غير ميعاد؟! كانت فرصة تعرفه، ويعرفها، وتتلاقى معه، وتتركه يأخذها إلى قصره، ويحضنها، ويفعل فيها إنّ أراد ما يريد، فهي تشتاق، وتريد الأحضان والبوس أكثر منه. لماذا هربت؟، وكيف تراه مرة أخرى؟. أتنتظر سنواتٍ إضافية، ليأتي لها على ظهر حصانه؟! مستحيل. هربت لمجرّد خاطرٍ غبي ضرب في عقلها الوسخ.. كيف لهذا الوسيم الغِني أنّ يُعجَب بها، وهي الفلاّحة الفقيرة التي صارت مساعدة لحاوي بكّاش؟! فلتهرب منه قبل أنّ يهينها، أو على أكثره يطلبها، لينام فوقها مرة واحدة، ثمّ يطلب من عبيده، وجواريه، وخدمه، وحشمه أنّ يُلقوا بها بعيدًا كأنّها زبالة؟ لا. أنّ ينام فوقها مرّة لا يكفي، بل يجب أنّ ينام فوقها مرّات، ومرّات، لكنّ أنّ يلقي بها كزبالة! فهذا لن تتحمّله، سيقتلها إنّ أُلقِي بها مستهينا. الهروب بكرامة أفضل. ثمّ لماذا ارتدى هذا العبيط عمامة، فأخفت سبائك شعره الذهبي، وحرمني من رؤية خصلته وهي مسترخية على جبينه؟! الطاقية المذهّبة المزركشة كانت أحلى أيها الحبيب!

اعتدلت "نَجِيَّة"، لتجلس على مقعدتها، تواجه أمّها الباكية، وكأنّها تواجه نفسها..

- "لا يا "نَجِيَّة".. الفلسعة والهربان مش أحسن يا "نَجِيَّة"، يا خوّافة. الهروب ما فيهوش كرامة. كرامة إيه، ونيلة إيه يا بت العبيطة؟ كرامتي

أشوف اللِّي بحبه، كرامتي أكون مع اللِّي رايدني، ورايداه. كان لازم أفضل في مكاني، واللي يحصل يحصل. حتّى لو خدني، ورِكبني مَرَّة، مَرَّة واحدة وإن شاالله يرميني في النيل بعد كده!"

لم تر "نَجِيَّة" أمها الباكية اللاطمة خديها حسرة على ابنتها التي أُصيبت باللُّطف، ونالها الخبلان قبل الأوان!

مَهْيَصَة وفاء النيل فرحة شعبية حقيقية استمرت حتّى توغل الليل، فيها ما فيها من مَغْنَى، ومَرْقَص، ومَطْبَلْ، ومَخْمَرْ، ومَحْشَشْ. أمّا النكاح المباح، والمتاح في المَنْفَذْ والمَخْرَجْ، فَحَدِّث ولا حرج، رغم الصّحراوية والمبربشية!. حتّى مرت العديد من الأيام، وعاد الفتور يغرقها، وينتابها الملل، والضّيق من سوء الحال، ودوام الوبال. لا يحسّ بهم حسيس، ولا يرحمهم خبيث. المماليك الحُكام في طناش، والشيّوخ في دروشة السخام، وأفضلية اليد اليمنى على اليسرى، وكيفية دخول الحمّام. وبجاحة الأغنياء، وافتراهم على الفقراء. الفلاّحون يفلحون الأرض غصبًا، ويروونها بدموعهم، وأبدانهم مكدودة والصانعون يصنعون مصنوعاتهم، والنِفْس مصدودة. والبيع والشراء فاتران، والكلّ ضائع خانع، ولا تنفيس سِوى بالنّكات المُرضية، والدعوات الغِلّية المستخبية، والانتظار ليوم يكون فيه الفرج. ولله عاقبة الأمور.

المنادون يجوبون شوارع القاهرة. يُعلنون على النّاس بآخر أوامر السّلطان. فحين اشتكى الشيخ "المغربي" أنّه حين كان جالسًا عند باب القلعة، مرّ عليه بعض الكَتَبة، فقام لهم، وبالغ في تكريمهم، ظانًا أنّهم

مسلمون، ثمّ تبين أنّ هؤلاء ما هُم إلا كَتَبة نصارى! فدخل "المغربي" أبو زعبوط على السّلطان المخبوط، وفاوضه في الكلام. وعليه فإنَّ السّلطان الأمجد "بِنْبان"، عمل مشورة لعلماء المسلمين، فقرّروا، وأمروا المنادين أنّ ينادوا في أرجاء القاهرة المحروسة، وسائر أنحاء بر مصر وأشياعها.. أنّه لا نصراني يُستعان به في ديوان. وحتى لا يختلط الحابل بالنابل، على النْصارى أن يلبسوا عمائم زُرق. وأنّ تكون عمائمهم أقلّ من عشرة أذرع، وألاّ يركبوا مع مكّاري مسلم، وإذا مروا بالمسلمين وهم راكبون ينزلون عن ظهور البهائم. وأنّ النصارى لا يدخلون الحمّام الشعبي، إلاّ وفي أعناقهم صلبان خشب قدر قرمة كبيرة. وعلى الكلّ الامتثال، وإلاّ فالعاقبة ليس لها احتمال.

يا فرحة الشيخ "حرنكش المكنسة"، وشماتته في أهل الذّمَّة. ويا انتشاء "المبربش" وجماعته، وكلّ الجماعات الشبابية التي تشبه جماعته في الاندفاع، ونارية الهِمَّة. هلّلوا، وكبرّوا بانتصار هذا اليوم، فلوّحوا بالشّوم، وساحوا في الميادين، والشوارع، والحارات مكبرّين، مهلّلين. مدحوا في السّلطان "بِنْبان" الذي كانوا حتّى يومًا فات يلعنونه بأقسى اللعنات.

وفي عصر نفس اليوم. قال الشيخ "الوداعي" في هذا:

لقد لبّسوا الكفار شاشات ذلّة — تزيدهم من لعنة الله تشويشًا
فقلتُ لهم ما ألبسوكم عمائمًا — ولكنّهم قد ألبسوكم براطيشًا!

في صباح التالي، أسرعت "زكية" إلى جيرانها القدامى. دخلت عليهم،

لتشكو حال "نَجِيَّة" الذي يتدهور يومًا بعد يوم، تشكّ أنّ جنيًا مَسّها من شهور، ثمّ صار يركبها من أيام، والله أعلم.. ركوبها دا جواز على سُنَّة الله ورسوله، ولا ركوب شيطاني ملوش دستور؟! دخلت البيت فضرب في قلبها المثل.. "جبتك يا عبد المعين تعينّي، لقيتك يا عبد المعين تِنْعان!" النسّوان الثلاث جالسات أرضًا، "دميانة" في الوسط، وقد ربطت رأسها بمنديل. خدّها على كف يدها، وكوع اليد على فخذها، والكفّ الأخرى تمسح بها دموعها الشلالية. نصفها يتمرجح يمنة، حيث تجلس "سَعْدية"، ويسرة حيث تجلس "سالمة". يواسيانها في وكستها، ووكسة زوجها "ويصا"، ووكسة النصارى. جلست "زكية" أمامهنّ تسأل..

- "ياحوستي يا نسوان. مالكن؟ إيه في؟"

- ".."

- "حْد يِرُدْ عليّ يا ناس."

"دميانة" تلطم على خدّيها، وتستمر في الندب..

- "الحقي يا "زكية" يا أختي. السّلطان وشيوخه أمروا رجالة النصارَى يلبسوا عِمَمًا زرقا! طب ليه؟ وعلشان إيه؟ احنا عملنا إيه؟، مش كلّنا برضة من البلد دي؟، ولاّ علشان نصارَى يعني؟ دا إحنا مؤمنين بربنا زيكم، آه والله مؤمنين يا خَلق هُوه. مُكوس، وندفعوا. شتايم، ونبلعوا. يرضيكِ يا "زكية" يا أختي جوزي يأمروه يلبس عمّة زرقة بالغَصْب، ويطلع شغله معيّط زي النساوين؟ ليه يكسروا نِفْس الراجل؟، ليه ما يلبس عِمَّه بيضا

زيه زي بقية الرجالة؟! هو حصل منه حاجة وحشة لا سمح اللـه؟. يا "يسوع" الظلّم زاد على دماغنا، ودماغ اللّي خلفونا."

ابنتها "سارة" تبكي جانبًا.

عادت "زكية"، ولم تحك شكّها أنّ اللطف ضرب في رأس ابنتها، لم تفضفض عن رعبها أنّ تصير "نَجِيَّة" مجنونة رسمي.

امتنعت "نَجِيَّة" عن العمل أيامًا، ثمّ عادت. وكلّ يوم خلال حلقات الحاوي والحُمار، عيناها تمسحان المكان بحثًا عن حصان يأتي عليه الحبيب الأشقر. كلّما مرّ الوقت ترتاح جوانب فيها أنّه لم يأت، وتثور جوانب، وجوانب فيها تشتاق إليه، وتتلهّف أنّ يأتي. حتّى كان اليوم الرابع.. جاء الوسيم الحبيب، لكنّ ليس وحده. بجوار حصانه حصان صغير عليه صبي لم يتعدّ السابعة، أو الثامنة. أشقر مثله عليه سيماء، ليس فقط الغِنَى.. بل الغِنى والسُّلطَة. اضطربت "نَجِيَّة"، وفرح الحاوي ومساعدوه. ضمن كِيسًا آخر من الفضة، أيّ ما يكسبه في شهرٍ كامل سوف يلتقطه في عمل ساعة.

الطفل طفل مهما كان غنيًا، أو من بيت أكابر، إنّ كان على صهوة حصان، أو حمار، أو كان على قدميه الحافيتين. ضحك الأمير الصغير على حركات حمار الحاوي مثله مثل بقية الأطفال. صفّق معهم، تشجيعًا للحمار أكثر من تصفيقهم للحاوي. "نَجِيَّة" التي تقوم بعملها، وقلبها يدقّ بعنف، وعقلها سارح في لطفٍ لتواجد حبيبها. تمعّنت في الطفل.. الطيبة

واضحة عليه. أحبّته رغم أنّ قلبها، وعقلها قالا لها إنّه ابن حبيبها.. تعمل وبالها مشغول..

– "يعني حبيبي ابن الحرام قاني مَرَة؟، ويمكن اللّي تِنْشَك في قلبها بتحبّه أكثر مني. ويكونش ابن المَنيّلة اللّي بحبّه حابب الموكوسة إيَّاها؟ آه.. ما هي بنت الغُزْ المماليك، ولاّ بنت الأكابر المتعنطظين؟، ويمكن بيحبها أكثر من حُبّه ليّ؟ طب، ومين قال إنّه بيحبني؟! يا ابن الحرام يا أشقر. آه.. ماني فقيرة كُحّيتي. إنّ شا الله اللّي بيحبها غيري تِنْضَّرَب في قلبها!"

"نَجِيَّة" وهي تدور بالكوز تجمع قطع النقود البسيطة من الجمهور، مسحت بكمها العرق من جبينها، وعنقها، وعضّت بأسنانها شفتيها، وعلقتهما بلسانها. اقتربت من حصان الصبي، ينظر إليها في دهشة إعجاب. دخل قلبها ببساطة، ولمس حِسّ الأمومة فيها، فلانت، وتهدّل رفضها لأمه. شبّتْ على أطراف أصابع قدميها، وقبلت ساقه النظيفة، لاحظت أنّ بلغة الصبي رقيقة أنيقة! قالت لنفسها..

– "بسم الله ما شاء الله. ربنا يحرسك يا المحروس."

مرّت على الحبيب الأشقر، فمال ووضع كيس الفضة في الكوز. أخرجت "نَجِيَّة" الكيس. فتحته، وأخذت قطعة فضية واحدة. أغلقته، وألقت به في حجر الحبيب الأشقر، واستمرّت في الدوران على الجمهور! الحاوي وجهه هرب منه الدم غيظًا، أما مساعده الشاب الزمّار، والصبي الطبّال فكادا يلطما الخدود. ضاع النبع الفضّي الذي كان سيرويهم، ويغذيهم أيامًا وليالي!

في بيتها مُستلقية بجوار الحائط تراقب السّقف، ولا تبالي بدخول، وخروج أمها، ولا بحديثها لها. لا تبالي بأبيها الذي أتى، وتمدّد على حشيته بجوار الحائط المقابل. ضربات على الباب يفزع الأب، وترتعب الأم، وتنتبه "نَجِيَّة". رجل عليه سمات الأهمية يسأل عن "نَجِيَّة"! طمأن الأب، والأم أنَّ الموضوع خير. "نَجِيَّة" خَمَّنَتْ أنّه من طرف حبيبها، وأنّ الحاوي هو من دَلَّهُ على بيتها. قامت وتصدّت له عابسة. المرسال بكلّ عنطظة مد يده، وناولها كيس نقود. الكيس الذي أعادته لحبيبها الأشقر له في حلقه الحاوي. أخذته "نَجِيَّة"، فابتسم الرجل ابتسامة زهو ورفعة، ثمّ ذُهل و"نَجِيَّة" تضع الكيس في عِبّه، وتصفعه..

- "ارجع يا ابن الشرموطة، وقولّه "نَجِيَّة" مش للبيع."

لم تشرح لوالديها ما الأمر. عادت تستلقي على ظهرها، ناظرة للسقف تلوم نفسها ثانية أنّها أغلظت على من تحبّه، وثانية تفرح لنفسها أنّها ستعلّمه أنّ "نَجِيَّة" لها قيمة، وليست جسدًا يشتريه، كما تُشترى أجساد العاهرات. أخذتها التهويمات، والخيالات، والأمنيات.. ثانية من الثواني تَقْصر تأتي بخيال المعلم "الدوسري"، ليستلقي فوقها. وثواني تطول وهي تحلُم بأنّ يأتيها حبيبها، ولا يتكلّم، لا تريد كلامه الآن.. فقط ينام فوقها، وُيقبّلها، ويمتلك جسدها كله.

صباح اليوم التالي في المقهى الذين يتجمّعون فيه قبل الذهاب إلى العمل، الحاوي يدخن الجوزة، رأى "نَجِيَّة" مقبلة عليه في خُطوات سريعة، ووجهها يَبُك الغل. قام شارحًا..

– "بُصّي بقى يا "نَجِيَّة".. أنا قلت أدِلُه على بيتك علشان مصلحتك يا بِنتي."

أمسكت بكتفيه، ووثبت، وضربته بالروسية، فسقط على الدِكّة، فانقلبت به. قام وبطاقيته يمسح الدم الذي سال من حاجبه. يلعنها، ويلعن أباها وأمها، واليوم الذي أعادها لتعمل معه. بعد سُباب متبادل هجم عليها، وأمسكها من شعرها، وضربها بركبته في بطنها، وتركها تسقط أرضًا تتلوّى. وقبل أنّ يواصل ركلها إذا بكف قوية تُمسك برقبته. يد المعلم "الدّوسري" تسحبه بعيدًا عنها. توقّف الحاوي عن الانفعال المتهجّم، ليمثُل الضحية وهو يشرح للمعلم "الدوسري" كيف أنّ حتّة حُرْمَة مفعوصة ضربته بالروسية، وفتحت له رأسه، وأهانته. لم يحدثه "الدوسري" كثيرًا، قال له بكلمات قليلات إنّ "نَجِيَّة" تحت حمايته، وإن آذاها فهو من سيقف له، ويؤذيه. قامت "نَجِيَّة"، ولم تحاول الهجوم على الحاوي. أمسك "الدوسري" بيدها، وأخذها إلى مظلّته. جلست ناظرة للأرض، وابتعدت عنها زحمه الفلاحين، والعاملين حين نظر إليهم المعلم في غضب. أتى لها عامل بكوب من الشاي. أمسكت به، وهي مستمرة في النظر إلى الأرض. "الدوسري" جلس على مِقعده الخشبي، وهو ينظر لبعيد..

– "شوفي يا "نَجِيَّة". أنا متجوز وعندي بنت وولدين. لكنّ عايز أتجوزك. حنجهز لك بيت لوحده. ومعاش كويس يريّحك، ويبعدك عن الواغش. قلتِ إيه؟"

"نَجِيَّة" تبتسم في أسى.. إنّ كان هذا العرض قد قيل لها قبل عودة شبحها الأشقر، ربّما كانت وافقت يأسًا من حضور الأشقر، واشتياقًا لفحولة المعلم. الآن.. لا. وألف لا!

أولاد الحلال ومنهم الزمّار، كبسوا جرح الحاوي بالبن. وذهبوا بالحاوي إلى مظلّة المعلم "الدوسري". "الدوسري" قام بالصُّلح بين الحاوي، و"نَجِيَّة" بعد أنّ أكّد حمايته لها، الحاوي اعتذر مرّة، واثنتين، وثلاثة، فعقله في كيسِ الفضة المحتمل. ذهبوا سويًا، والمعلم "الدوسري" في حسرة من رفض "نَجِيَّة" له. فقد أشعلته هذه الفتاة القصيرة الجميلة.

جاء الأشقر الوسيم، ومعه ابنه الطفل المعجَب بالحاوي، وبالحمار. رغم رفض جدته السّلطانة "شمس" أنّ يختلط بالعامّة الواغش. "حسام" بكى، وأصرّ على مشاهدة الحاوي! فأرسلت لوالده، ليأتي ويأخذه، عَنّفت "البهاء" كيف يُعوِّد حفيدها، وحفيد السّلطان على الاختلاط بالصعاليك أبناء الفلاحين؟! أصرّت على تواجد حارسين مع حفيدها.

عند نهاية العرض ذهبت "نَجِيَّة" إليهما.. ربّتت على ساق الطفل وهي تنظر إليه في حبٍ أموميّ، وهو ينظر إليها مبتسمًا. ما فاجأها أنّ الطفل هو الذي ناولها كيس الفضة. ضحكت له..

– "اسمك إيه ياد يا سُكر إنت؟"

– "أنا حسام. وأبويا أهو."

أشار إلى والده الذي يتابع الحوار مبتسمًا. سألته "نَجِيَّة" مرة أخرى..

– "أمك مين ياد يا لذيذ إنتَ؟"

– "أمي الأميرة "قمر" بنت السّلطان."

– "يالهو بالي."

ابتعدت "نَجِيَّة" مفزوعة. "البهاء اليوسفي" ضحك، وهو يصيح فيها..

– "ما تخافيش يا نَجِيَّة."

انفضّت حلقة الحاوي سريعًا، وإبتعد الناس بعدما وصل لهم أنّ هذا الطفل حفيد السّلطان. "نَجِيَّة" تشدّ الخطوات عائدة إلى بيتها. خطواتها سريعة بقبقابها الغليظ، ويداها مكوكان متعارضان في لَهْوَجَة للأمام والخلف. مذهولة مغلولة.. أيّ منطلق ينطلق منها تفكيرها؟، أيّ متسع يسيح فيه وجدانها؟، هل ترتعب ممّا هي فيه؟ يحبّها زوج ابنة السّلطان! أم تغتر، وتتباهى أنّ زوج بنت السّلطان كان يحبّها، ثمّ ها هو يأتيها؟، هل الآتي من حكايتها حلو، أم أَمَرّ من المَرار الذي مَرَّر حياة أسرتها؟

وهي تدخل من تحت القبة الهائلة لباب الفتوح، وجدت حبيبها الأشقر يسير على قدميه بجانبها. فزعت، فأمسكها من ذراعها لتسير كما هي، ولا تتبرجل. قصيرة، فرفعت رأسها تنظر إليه.. يبتسم لها! فعبست له..

– "عايز إيه؟"

– "..".

– "عايز إيه في اليوم الأغبر ده؟، غرضك إيه؟"

- "بلاش زعيق. أنا نفهمكِ."

- "تفهمّني إيه بلا نيلة."

- "من سنين، من يوم الترعة، وأنا بدور عليكِ."

- "من يوم ما اتجلد أخويا "عَزّازي"، واتْعَبَط أبويا "إبراهيم" في الفلقة."

- "ما ليش ذنب. أنا ما قلت لهم اعملوا كده."

- "أخويا "عَزّازي" مات، ما اتحمّلش الجلد يا ضنايا. وأبويا "إبراهيم" كلّ صباحية ربنا يموت."

- "والله من يومها مرجعتش هناك، مع إنّ عطوني فيها كام فدان."

- "داهية لا ترجعك."

- "نَجِيَّة.. امشِ على مهلك."

- "وأمّي بتموت كلّ ليلة، وهيَّ بتعيط على ابنها."

- "وإنتِ فاس أخوك خَسَّرت رجلي، مش عارف أمشي بسرعة."

- "ياريت كان قطعهالك قادر يا كريم.!"

- "حرام عليكِ. أنا بحبك يا نَجِيَّة."

- "حَبَّك بُرْص، وتلاتة خُرص.!"

- "هاها. لسانك كرباج."

– "عايز إيه خلّصني قبل ما نوصل حارتنا، الناس يقطّعوك بسنانهم حَتَتَكْ بَتَتَكْ، لو عرفوا إنك بتعاكسني."

– "حيكسروا رجلي التانية؟!"

– "لأ مش رجلك يا خُويا.. رقبتك. وشوووبَشْ."

– "هاها. أنا عايزك."

وقفت "نَجِيَّة" تنظر إليه في غل، لتشتمه. رفعت رأسها لأعلى تنظر إليه وهو الطويل. عيناه الخضراوتان الواسعتان أغرقاها في نظرات حبٍ خضراء طيبة. لانت. نظرت إلى عموم وجهه، إلى عمامته التي تكرهها، فهي تُخفي ذهب شعره الحريري. تتمّعن في شفتيه. تريد أنّ تثب، لا لتضربه بالروسية.. لتقبّله. لتلومه كيف لم يصل إليها طوال تلك السنوات التي انتظرته فيها؟، لتلعنه وتقول له إنّه سبب حرمان جسدها من الرجال، وحرمان نفسها من الاستقرار.. لتقول له كم تُحِبه! أفاقت..

– "عايزني؟! يعني إيه عايزني يا روح أمك؟! تنام عليّ ليلة ليلتين، وبعدين ترميلي كيس فضة، وتقول للأغوات بتوعك يرموني برة؟!"

– "لا."

– "لأة تِلُقّك."

– "لسانك سيف."

– "دا اللِّي ينفع مع الغُزْ."

- "أنا ماني غُزْ يا أم لسان طويل."
- "واللِّي ينفع مع الرجالة الْهَفِيّة أمّات عيون زايغة."
- "اقفلي بقك، واسمعيني يا بت إنتِ."
- "آديني طَرْطَرْتِلَكْ وداناتِي. كلّ وِدْن منهم بَقتْ طول ودان الحمار. اسم الله على مقامك يا ابن اللي إنت ابنها. قول عايز إيه، وخلّصني."
- "عايز أتجوزك."
- "..!"
- "عايز أتجوزك يا بت."
- "وحياة أمّك؟!"
- "أمي ماتت من زمان. وحياة أمّك إنتِ عايز اتجوزك."

سارا طويلاً متّجهان شمالاً، حتّى وجدا أنفسهما على حافة المزارع. جلسا. خجلت من قدمها الحاملة للأتربة، وقبقابها الملوّث بالطين، فسحبت قدميها تحت جلبابها لحظتين، ثمّ تحدت نفسها، ومدت ساقيها بكامل امتدادهما، وقدماها ظاهران بلا خجل. سرحت قليلا، قالت له كم اشتاقت لقريتها بمزارعها، وبيوتها، وبهائمها. لم تعلم أنّها تجلس بالقرب من المكان الذي كان يأتيه والدها، ليشبع عينيه ورئتيه من المزارع الممتدة. مال عليها، واحتضنها، ودفعها للخلف، وألقاها على ظهرها. ارتمى عليها ودفس وجهه في عنقها، فتنسّم عرق أنوثتها الفتيّة، ولفحته

سخونتها، كف يده تمسك بصدرها الثّابت في ليونه، ثمّ تتسلل لبطنها الطرية. تقاوم "نَجِيَّة"، وهي ترتعش. بكت وجسدها قارب أنّ يثور، ليتجاوب مع حبيبها الأشقر. صرخت، ودفعته من فوقها. وقفت تنظر إليه وهو مستلقي حائرًا فائرًا. نظرات حيرة تجمع ما بين الحبّ، والضيق، والانشراح، والرغبة. دموعها تنهمر..

– "دا اللِّي إنتَ عايزة منيّ بس؟!"

– ".."

– "بس كده يا حضرة الغُزْ؟!"

– ".."

– "طب آهو."

رفعت "نَجِيَّة" ذيل جلبابها، وخلعته، وألقته بعيدًا. عارية إلا من لباسها الداخلي. نهداها فهدان شرسان. همّت بإنزال لباسها، فأسرع الأشقر ناهضًا، وأمسك بيديها. هي تنظر عاليًا لوجهه الجميل، ودموعها تهطل. وهو أمال وجهه لتحت متابعًا، وجهها الجميل، وعينيها الباكيتين فبكى.

تركها وأخذ خطوات بعرجته، والتقط جلبابها، وأعطاها إيّاه لترتديه. ارتدته وقد هدأت. أمسك بها من ذراعها، وأجلسها، وجلس بجوارها. فترة ينظران لبعيد، وقد توقّفت دموعهما. نظر إليها..

– "نَجِيَّة". اسمعيني، وحسّي بيّ."

حكى لها عن حالته.. هوانه بين المماليك. شذوذ زوجته "قمر"، وشَكّه في كيفية إنجابها لابنهما "حسام". عن "رجبيّة" عشيقة زوجته، والمسيطرة عليها، تلك الجارية مدمنة الأفيون، وكم يكرهها كره العمَى، السّلطان الذي صار شوالاً ضخمًا من اللحم والشّحم. السّلطانة "شمس" هي المسيطرة، والتي تربي ابنه "حسام"، ولا تسمح له باصطحابه إلا مرتين في الأسبوع فقط، رغم أنّ "حسام" يريد أنّ يكون معه يوميًا. يحكي بما تستغرب منه.. جبروت السّلطانة "شمس"، ولهفتها على تكديس الذهب، والفضة، والجواهر، وامتلاك الأبعديات الزراعية. شئون السّلطنة تحت أمر بطانة السّلطان، وأقواهم الأمير "كمال الدين" العقرب، الذي هو أقوى من نائب السّلطان "حفيظ السلولي"! ثمّ أبوه أمير الجيوش. الدسائس الخفية فيما بينهم. كلّ منهم، وغيرهم أيضًا يجلبون المماليك الصغار، ويدرّبوهم؛ ليكونوا لهم جيشًا خاصة ضد الغير. فكل منهم يتوقع يومًا عليه، ويريد أنّ يستبق، ويجعله يومًا له، وعلى الغير.

يشرح كيف أنّ المتحالفين اليوم سينقلبون أعداء غدًا، وإن لم يكن غدًا فبعد غد. يعترف بأنّ زواجه من "قمر" مجرّد صفقة دبرّها العقرب، لإضعاف عدوه "السّلولي". التكتلات المنافسة لهم، خاصة الأمير "عثمان أغا"، وأمراء الشام وغيرهم. حكى لها هوان شيوخ الأزهر، وتبعيتهم للسّلطان، وخيبان قساوس كنيسة الأقباط، وخوفهم، فقد اشترى كبار التجار سكوت الكثير من رجال الدين بذهبهم، ومن لم يسكت بالذهب سكت خشية من سيوف المماليك. فقط لم يصارحها بأنّ أباه صار عشيقًا

للسّلطانة، ولا بأنّ العقرب، وأباه، والسّلطانة يخمران مقلبًا؛ ليكون هو السّلطان و"حسام" من بعده.

هدأت آلامِها، تسمع، وتتعجب، وتتصَعَّبْ على تهتّك أسرة من تحبّه، ويحبها. تحكي له هو ما لا يحسّ به عميقا.. الناس ضَجَّت من الفقر، وسوء الحال، وانعدام الأمل في إصلاح ما في يومٍ ما. الغلاء في السلع، وكبار القوم يستولون على أفضل مواقع الأراضي على جانبي النيل. طبقة المماليك، وأتباعهم من تجار، وشيوخ، وقوّادين، صاروا في غنىً فاحش، وبقية الناس في فقرٍ داعر. الكلّ صار يكره السّلطان، ويتعجّب من جبروت السّلطانة، خاصة النّسوان الغلابة.. كرههنّ الأشد ليس للسّلطان، بل للسّلطانة الجشعة البشعة، رغم سطوع جمالها. !

تفاهما.. اسم "اليوسفي" اسم العائلة، يحذفه. واسم "البهاء" يكون بهاء. ولن يعرف أحد أنّه ابن الأمير "اليوسفي" أمير الجيوش. سوف يشتري لها ولوالديها بيتًا واسعًا به حوش مزروع، ليرضي والدها، وسوف يبات عندهم ليلتين من كلّ أسبوع، وبين الجيران هو تاجر يسافر كثيرًا.

وبدون أيّ سبب، وبالكثير من العَجَبْ، حَرَنتْ "نَجِيَّة"، ورفضت فكرة الزواج! تستهول أنّ يتزوّجها هذا المملوك الكبير زوج ابنة السّلطان والسّلطانة، وهي الفقيرة العدمانة. قالت اشترِ البيت، وسوف أكون فيه معك، لكنّ لا زواج. أسبوع لا أكثر، وكانت "نَجِيَّة" في بيتٍ واسع هو في الأصل حوش مزروع بالخضروات، وعلى الجوانب عدد من الأشجار. سور طيني يحيطه، وعدد من الأشجار على جوانبه، والباب خشبي قبيح.

"بهاء" أصلح السور، ووضع بابا جديدًا، وحوّل باقي البيت إلى أناقة بسيطة ليست فخيمة، حتّى لا يلفت الأنظار. اختار البيت بالقرب من "بركة الفيل"، حتّى يتسنّى له أنّ يأخذ "نَجِيَّة"، ويتريّضا على شاطئ تلك البحيرة الطيبة، والمشهورة بتجمّع المحبين المغرمين، وطالبي الرواح عن النفس بكلّ ما هو طيب.

ذهبت إلى الحمّام العمومي في اليوم المخصّص للحريم. جسدها غَسلوه، ودلّكوه، وخَلّصوه من الشعر، ونعّموه فصار فتنة على فتنة تَجلب الانبهار، فاستعدّت لما كانت تحلُم به ليل نهار. ارتدت جلبابًا، ولباسًا نظيفين، وفي قدميها خُف!. أمها تتعجّب من سعادة ابنتها المفاجئة. لم تستطع منعها من المبيت خارج حجرتهم، و لم تسأل من أين لها بهذين القميصين الجديدين، حسب البدعة التي برزت عند النساوين؟!.. القمصان الواسعة المزهزهة، والأكمام الأوسع، وأزر حرير ملوّن.

امتطت حمارًا يسرع بها، والمكاري يجري بجوارهما. في البيت المسعود، جاءها الحبيب "بهاء". وفي حجرتهما نال "بهاء" مُتعًا بلا حدود، وأبدعت "نَجِيَّة" من جسدها، ونفسها ما لم تتوقّع أنّه موجود. تخطّت ممانعات السدود، وعبرت علامات الحدود. انطلق جسدها كطوفان فطري ليس منه بد، ولا يحده حد. أعطت نفسها لبهاء نبعًا، منطلقاً سلسلاً في لحظات، وبركانًا يتفجّر بحمم ملتهبة، مُلهلبة في لحظات. تتأوّه، وتصرخ، ويتأوه، ويصرخ. مرة ومرتأن وثلاثة حتّى انهدّ منه الحيل، و لم تنهدّ "نَجِيَّة". ولولا تهدّله لكانت هي مستعدّة له أكثر وأكثر. وفي اللّيلة

التالية تكرر ما كان في الأولى، وفي الليلة الثالثة كان ما كان في الليلتين السابقتين. ولما تمدّدا في استرخاء تعب لذيذ، وراحا في وَنسات وأحاديث. هنا أخذت "نَجِيَّة" موجة من النكد، متذكرة مقتل أخيها فبكت. ألقت كلمات ساخنات، وحمّلت حبيبها "بهاء" أسباب مقتله.

غضب الحبيب وثار، ثمّ هدأ باكيًا، مؤكدًا أنّه ليس مسئولاً عما حدث، و لم يكن يريد لا الضرر بها، ولا بأخيها. أفاقتّ "نَجِيَّة" من حالتها، فمسحت دموعها، وأرادت ترضية الحبيب الباكي. حاولت إشعاله مرة ثالثة، فلم يستجب. فسطّحته، وعَرَّته بدلالها، وراحت تبوس، وتلحس كلّ موضع في جسد حبيبها "بهاء". لم تترك لا فخذه المصابة بفأس أخيها، ولا عضوه الذي كان قد استرخى مغشيًا عليه، فعاد للنهوض، والوثوب فرحًا مرحًا.

قالت "نَجِيَّة" لبهاء، وهي راضية مبتسمة..

- "أنا حبلى يا بهاء!"

هو الذي صمّم على الزواج، فلن يُولد له ولد من التي أحبّها حبًا عميقًا ليكون ابن حرام. وتحت إلحاحه، وضغطه عليها، ثمّ عودته للبكاء الحزين، وافقت "نَجِيَّة"!

أشهر الزواج بتدوينه في سجلّات مأذون حي "الحسينية"، لكنّ لقب "اليوسفي" لم يُدَوَّن، وليلة العُرس حفل بسيط لا يجذب الأنظار. حضرت الأسر الثلاثة اللاتي استقبلتهم حين هربوا من القرية. الرجال وبينهم

"ويصا" بعمامته الزرقاء! فوجئوا بما آلت عليه حالة "إبراهيم"، مشروخ النفس، باكي العينين. "ويصا" يحتضن "إبراهيم"، ويبكيان سويًا، البكاء واحد، وكسرة النفس واحدة، والظالم هو هو، وإن تعددت اسماؤه وألقابه. "سارة" بنت "ويصا" معها زوجها، وابنتهما. "عبد العليم" ابن "سَعْدية"، و"عبد الباسط" مع زوجته وابنه. أما "حسين" و"سلمى"، فقد كبر ابنهما، وصار مراهقًا نحيفًا. عندما تعرّفوا ببهاء، الكلّ أيقنوا أنّه من سلالة الغُزْ، سواء بالحلال أو بغيره. النّساء حول "زكية" يباركن لها، ويحمدن "اللـه" أنّ أتى اليوم التي تلتقط "نَجِيَّة" رجلاً يِهَنّيها!

الرجال يتبادلون تدخين الجوزة. ضحكات مترفات. حالة البلد المتردية دخلت في حوارهم. سعل أحدهم، وتجهّم..

– "مفيش روقان بال."

– "المحروسة بقت كئيبة كده ليه؟!"

– "من اللّي فوق."

– "طب واللي تحت ذنبهم إيه؟"

– "علشان ساكتين على اللّي فوق."

– "صلوا على النبي يا جدعان إحنا في فرح، حنقلبه غم ليه؟"

ضحكوا والنّسوان، والصغار، كنَّ في ضحك بعيدًا عن نكد حوار الرجال، الفرحة عدوى ملأت الجميع.. بإلحاح من "نَجِيَّة" أمسكت "زكية" بطبلة صغيرة، وبدأت الدقّ عليها، وانطلقت "نَجِيَّة" ترقص رقص

الولهان الجعان، وتنفض من داخلها الأحزان. من حولها بما فيهم زوجها يصفّقون، والنسوة يزغردن حتّى سالت دموع "زكية" فرحة بابنتها، ورقصها الفتّان، وتذكرًا لأختها "خضرة"، ورقصها في قريتهم.. أيام زمان.

"نَجِيَّة" في سعادة عميقة. أمها "زكية" فَرِحَة لأنّ ابنتها أخيرًا ستتزوج، وزعلانة على شَرْخَه زوجها "إبراهيم"، وسُعاله المتواصل، وانهياره السريع يومًا بعد يوم. وموجوعة من اشتياقها لقريتها، ولأختها. كلّما انفردت وحدها تنادي أختها "خضرة"، وتعتذر أنّ زواج "نَجِيَّة" يتم بدون حضورها. تقسم لها أنّها سوف تزورها في أقرب فرصة. أمّا ما لا تريد أنّ تقوله لأحد، وقالته بنظراتها لابنتها "نَجِيَّة".. رغم كلّ حسنات من ستتزوجه، فإنّ قلبها لا يستريح له، شكله ودمُه يظهران أنّه من سلالة الغُزْ!

الحوش المزروع الذي تحوّل إلى بيت واسع رحب تغلب عليه الخُضرة المريحة. واسع بنَى فيه "بهاء" مبنيين مُنفصلين كُلّ منهما به ثلاث حجرات وفسحة، مبنَى له ولنَجِيَّة، والآخر لوالديها. وأمامهما ما يقارب نصف فدّان مزروع، ووسط الزراعة بئر ماء صغير. سور طيني جديد بُني حول المبنيين، وحول الزراعة، فصار الكلّ داخل السور. الجيران علموا أنّ هذه الأسرة أسرة متوسطة الغنى، وأنّ صاحب البيت تاجر، دائمًا يرحل إلى مدن الصّعيد، ورشيد. أكثر من هذا لا يعلم أحد شيئًا.

في صباحية الدخلة، وبعد أنّ باركت "زكية" للعروسين بان على وجهها قلق يريد أنّ يُبين. ألحت عليها "نَجِيَّة"، فمسحت أمها دمعة، وتنّهدت..

– "جميزة يا بنتي."

في اليوم التالي تمّ زراعة جمّيزة أمام باب المبنى المخصّص لها، ولزوجها "إبراهيم"..

الأسرة منكفئة على حالها، كما اتفق "بهاء" مع "نَجِيَّة". لا يدخل عليهما إلا سّقاء عجوز يأتي كلّ صباح على جمله المحمّل بعدد من قِرب المياه الجلدية، فيملأ الأزيار الخمسة التي تكفي الأسرة، والبئر الصغيرة كفيلة بري الحوش. السّقاء بعدما يبرك جمله، ويُؤتَى له من خير الحوش؛ ليأكل ويجتْر، يجالس أبا "نَجِيَّة" ساعة زمن يدخّنا الجوزة، ثمّ يأخذ أجرته مضاعفة، مقابل وقته الضائع. وبعد السّقاء تأتي امرأة عجوز بأرغفة العيش، وما تحتاجه الأسرة من طلبات. والمرأة العجوز نفس الشيء. تجالس أم "نَجِيَّة" كثيرًا، ثمّ تنال ما يزيد عن أجرتها، فهكذا اتفقت "نَجِيَّة" معهما، تريد أنّ تسعد أبويها، وتنسيهما الضْيق. وفي كلّ شهر يأتي حمّار بحمارين، ويأخذ أبويها ومعهما حمولة لحم وفاكهة، ويزورا بيت "سَعْدية"، فيبقيان مع الأسر الثلاث حتّى بعد صلاة العشاء.

ولا يمر مرور "قمر" إلا، وذهبت مع "بهاء" إلى بِركة الفيل، ليستمتعا بمساحة المياه، ونسائمها، وتصلهم أصوات المغنين، وضحكات الذين مازالوا رغم كلّ شيء يبتهجون.

هَلَّت أيام السّعادة والبهجة لنَجِيَّة. ضحكاتها تُلعلع، ولعبها مع زوجها لا ينقطع. و"بهاء" وكأنه امتلك الدنيا وما عليها. هذا البيت البسيط صار بالنسبة لهما هو جنة الله في أرضه!

9

تأكّد للناس ما كان ليس مستورًا، بل كان واضحًا وضوح الشمس، متجسدًا كالجبل، لا يفتقده إلا كلّ مجنون أهطل، ولا ينكره إلا كلّ متخلّف أهبل. لكنّ الرعية تريد أنّ تصدّق ما تأمل.. ما ترجو.. ما تتمنّى. ولا تريد أنّ تفكّر، وتحلّل فيما يحصل! لا تريد أنّ تصدّق أنّ حاكمها كارثة عليها. تزاور عن بشاعة وضعها، وعن انحداره يومًا بعد يوم، وكلّ ما تفعله هم وشيوخ الثريد المجيد.. أنّ تدعو للرّاعي أنّ يوفقه "اللـه" بما فيه صالح المسلمين، والرعية تعلم ألاّ صلاح له! هكذا تعوّدت.. تدعو لفرعونها.. لشيخها.. لخليفتها.. لسّلطانها.. لملكها.. لكلّ من يصير رئيسها، حتّى لو كان خسيسها.. تدعو أنّ يكون رشيدًا، ولا تريد أنّ تفعل ما يجبره أنّ يكون كذلك. ففعلها الضدّي يكلّفها لسعات كرابيج السلطة، وعذاب سجونها، وخطورة سيوفها.

تحدّد يوم كامل للتفريح، وبيان قُوَى أتباع السّلطان "بِنْبان"، والترويح عنه. من الصّباح نزل من القلعة في موكبٍ سّلطاني فخيم. هو في كامل أبهته، وحوله فرسانه، وضاربي الطبول، ونافخي الأبواق، وكامل تخته. طابور فرسان كلّ مجموعة بلبسها المعين، وكلّ منهم متأنق تمامًا مُزَيَّن. لا عبد ولا عبدان ينثران الذّهب والفضة كما العادة، فبيت المال في أفقر حال. وإبعاد النصارى عن تنظيم الدفاتر والأرقام، صار كارثة على السّلطان، فكل الحسابات تاهت عن بعضها، وصارت كلشنكان.

دخلوا قصر "كمال الدين" الفخيم. حوّدوا على الباحة. وتقدّموا في منظرة عريضة تطلّ على الساحة. مقاعد طرية مرتاحة. والعبيد خلفهم مُمسكين بالمراوح طويلة العود، وفي نهايتها ريش النعام يهوون على سادة البلاد. سيستعرض "الداودار" دفعة تخريجية من مماليكه الجدد. فرسان سيتكرم السّلطان بإعطائهم أوراق عتقهم من العبودية؛ ليصيروا فرسانًا أحرارًا. يتوسّط السّلطان المجلس. على يمينه نائبه "حفيظ السلولي"، وعلى يساره الأمير "اليوسفي" قائد الجيوش. خلفه تمامًا يجلس "الداودار"، ليشرح له العروض، ونوعية المماليك، وأساليب تدريبهم. شباب جنود مثل الورود. استعرضوا مهاراتهم.

"بِنْبان"، و"حفيظ" تبيّنوا أنّ هؤلاء الفرسان ليسوا على مستوى ما كانا هما عليه من قبل. فقد دخلوا الطباق مجلوبين وهم مراهقين، وليسوا أطفالاً صغارًا يأخذون وقتهم في التدريبات. لذلك يقال عنهم الجلبان. لم يأخذوا وقتهم ليكونوا فرسانًا هائلين. لكن.. أعدادهم غفيرة، ثمّ على

الجانبين مماليك "كمال الدين" السابقين.. كثيرون مثل رمال الصحراء. وهنا فهم السّلطان، وفهمت حاشيته الإشارة.. "كمال الدين" الداودار يقول للجميع.. إنّ مماليكي هم القوة الثانية في بر مصر.. إنّ كانت تحت إمرة السّلطان حرسه السّلطاني، والجيوش وأميرهم "اليوسفي"، ومجموعهم قوة كبيرة، فمماليك "كمال الدين" في القوّة، والتعداد بعدهم مباشرة، هذا بخلاف تسلّلاته داخل الحرس السّلطاني، وجيوش "اليوسفي" وغيرهما.

السّلطان عائد في موكبه السّلطاني في فخامة تليق بسّلطان مصر المحروسة، يتمختر بعد أنّ تابع العمل في جامعه الكبير، وتأكّد من فخامته، وعلو مِئذنته، وأقسم له المشرف على العمل، أنّ الانتهاء سيكون من قبل مرور عامين. العودة هادئة رائقة. والأمان متوفّر، فالأمراء والمماليك على ظهور الخيول، ومعهم السيوف، والحِراب، والبُلط. الموكب يخترق شارعًا من شوارع القاهرة الصّاعدة إلى قلعة "صلاح الدين"، والناس تبتعد عن موكبه تحت نصيحة مثل مصري شهير.. "ابعد عن الشر وغنيله". المبربش على حمار، وعصاته الرفيعة معه، جماعته حوله على الأقدام يتقدّمون هنا وهناك يلوحون بالشّوم الغليظة، لتهيج الناس. انضمّ معهم بعض من الشباب القشلانين، فلا عمل يعملونه، ولا مكسب يكسبونه، ولا فتيات ترضى بهم وهم في هذا الفقر، والذل الذي طال. قادتهم عصابة المبربش الأعمى لطريق مرور موكب السّلطان. الشباب العدمانين قذفوا الموكب ببضع حجارة، ونادوا على السّلطان قائلين..

– "مولانا السّلطان طرطور. مش لاقين شغل، ولا مشغلة."

سريعًا جماعة "المبربش" أنزلت الشوم لأسفل، وهربت وهي تقود الحمار وعليه المبربش الذي يلهث وهو على ظهر الحمار! اختفوا سريعًا.

توقفّ الركب، عندما أوقف السّلطان حصانه وهو يخاطب نفسه..

– "السّلطان طرطور! أنا السّلطان طرطور؟! ومين قال للصّعاليك الحوش بالشتيمة دي اللّي تتقال جوّة القلعة وقصرها؟!"

أمراؤه من قالوا له مرنا كي نكرّ على تلك الحثالة، ونُعمل فيها السيف والحربة والبلطة، ونجعل هؤلاء الركش البهاليل تندم أشد النّدم على هذه الغلطة. لكنّه لم يأمر. ليس شفقة على الفتية الذين شافهوه باللّعنات علنًا، وهو في موكبه السّلطاني فآذوه، بل حسرة على نفسه، فهو فعلاً طرطور تتلاعب به حاشيته، وسّلطانته.

لم تتركه الحاشية ليلاً خاصة الداودار "كمال الدين"، إنّ الإهانة التي لحقت بالسّلطان لحقت بجميعهم، فما هم إلا أتباع السّلطان، والمصرية إنّ تركوهم يلعنون السّلطان اليوم، فغدًا سوف يقومون بكبسة احتدام مشبّعة بالانتقام تأكل الأخضر واليابس، وتطيح بالعريان واللّابس. يجب، ولا بدّ، وحتمًا من تأديبهم كلّ زمن، حتّى يبقوا في الخنوع والخشوع، ودوام الركوع. وافق الأمجد "بِنْبان" على أنّ تقوم حملة الانتقام لإهانته من الرعية السُفلية. أذِنَ لهم لكثرة الضّغط، وكان هذا عين الغلط الذي فيه سقط.

من الصّباح الباكر هبط المماليك من القلعة، ومن ثكنات الجيش خرجوا، وانطلق غيرهم من بعض قصور الأمراء. كبسوا على "القاهرة" من كلّ

جوانبها والناس في شغلهم، وكدّهم، وبؤسهم، فإذا بالخيول تكبس على الأسواق، وتضرب بالسيوف والرماح كلّ ما يُطال، عمّال على بطّال. فلا رحموا امرأة، ولا أشفقوا على عليل، ولا قالوا هذا عجوز، وهذا طفل كَيْده قليل. حطّموا مظلاّت المحلات، وألقوا بالبضائع أرضًا، فلوّثوا ما يتلوث، وكسروا ما يُكسر، ولا يُجْبَرْ. لا صرخات ترقّ لها قلوبهم، ولا ترّحمات وصلت إلى أسماعهم، فرقّقت قلوبهم، وليّنت ضمائرهم. الغُز يقولون باللّسان، ويفعلون بالحُسام.. هذه ساعات الأدب لمن زادوا في قِلَّة الأدب. أسرعت الرعية هاربة إلى البيوت، أيّ بيوت تقابلهم يدخلونها، ليختبؤوا بداخلها. ولم يخرج أحد بعدها طوال اليوم. وفي اللّيل مر المنادون في الشوارع، والأزقة يعلنون ألاّ ينزل الشوارع والحواري أيّ إنسيّ لا كبيرًا ولا صغيرًا، لا رجلاً، ولا امرأة. وعلى الكلّ أنّ يستكن كالدجاج الذي حتّى لا يُكاكي. ومن عمل فيها "ديك"، وأذّن بصوتٍ يحتج، أو حتّى يرجو ويستجدي، فسوف يخرجوه من داخل مَكْمَنه، ليُذبح عند الباب بدون مراجعة.

في النهار التالي بعض العسكر وصغار مماليك الأمير "عثمان أغا"، تهجمّوا على البيوت بحجّة البحث عن المشاغبين، وخطفوا كلّ أنثى جمالها واضح، ليفعلوا فيها كلّ ما هو فاضح. لم يرثوا لبكاء الرضّع، ولم يخشوا من دعاء الركّع، فاضطربت "القاهرة" أيمّا اضطراب، ونشب الصراخ والرعب خلف كلّ باب، وداخل كلّ قلب. "القاهرة" وصار لا بيع ولا شراء، فلم يعد أحد يعمل، لا في معمل، ولا في فرن، ولا في دكان، ولا أيتها شان. ومن أفظع النتائج التي بانت سريعًا احتجاب ثلاثة آلاف حمار

وبغل وجمل مخصّصين لنقل قِرَبْ المياه، وبالطبع السّقايين المشاة مختبئين مع بقية خلق الله. والكثير من الناس صاروا بعيدين عن بقية أهاليهم، وبقوا مختبئين، حيث دخلوا في أقرب دار قابلهم وقت هجوم الغز الداهم. وعليه عطشت الأسبلة الثلاثة آلاف المنتشرة في أنحاء القاهرة، وبالطبع لم تدخل شربة ماء إلى سائر البيوت الغلبانة، ولا إلى العشش العدمانة، ولا حتّى إلى القصور الريانة، لكنّ القصور بها الخزانات التي تكفي لأسبوع آت. فجفّت حلوق الناس الغلابة، والبهائم، وصعب على الأمهات بكاء أطفالهنّ، فزدن من الصويت، وتطاولن على بعولتهنّ، ونعتوهم بأصعب النعوت. ولمّا أتت الليلة الثانية بظلامها، اشتعلت نفوس العامّة المصرية، وتصاعد دخانها مهددة بالويل، والثبور، وعظائم الأمور، وقالوا "اتقوا شر الحليم إذا غضب"، فلا مناص من هوجة سوخة، فكدة ولا كده ميتين ميتين. والغريب أنّ هذا ما يقصده "عثمان أغا" بفعلته، أنّ يهيج الناس على السّلطان، ويحصل خراب يباب ليس منه إياب، فتقترب النهاية، ومنها ربما تنطلق له البداية!

تسلّلوا في الظلام فرادًا صامتين من الأزقة، والحارات، فتجمّعوا جماعات جماعات في الشوارع، ثمّ صاروا حشودًا يزعقون، ويلعنون، ويتوعّدون في الساحات متّجهين إلى الجوامع الجامعة، من أوّل الجامع الأزهر لجامع السّلطان "حسن" وغيرهما. يحملون معهم النبابيت، والسّكاكين والسواطير. من حي "الحسينية" خارج سور القاهرة، خرج المعلم "الدوسري"، ومعه عدد كبير من مساعديه. وخرج "عبد الباسط"،

و"حسين"، وبينهما "ويصا"، وثلاثتهم يحملون العصي، وثلاثتهم على رؤوسهم العمائم البيضاء.

العسس عيون السُلطة وأتباع الغز، أسرعوا، وأوصلوا خبر الخروج الأهلي العفوي، لكنّ المماليك لم يستطيعوا وقف الحِراك الغاضب السريع. والناس تخرج غاضبة بطلت دعوات صالحات، أو طالحات على الغز الفاسدين، صارت تلعنهم بأقبح النعوت، وكلّ منهم يهدد بسكينه، أو بالنبوت.

في التجمّع الصاخب داخل جامع الأزهر.. وُجِدَ بينهم من يفهم كيف يكون رد الصاع بالصاع، والذراع بالذراع. فتسلّلوا إلى شاطئ النيل حيث الساقية الكبيرة التي ترفع المياه لأعلى مجرى سور العيون، لتصل إلى القلعة، فكسروا عامود ترسها فتوقفّت عن رفع المياه. وقالوا فليعطش السّلطان الطرطور وأهله، كما عطشنا وعطشت نسواننا وأولادنا. والسّقايين خفيّة تحت حماية الشباب قاموا بعملهم لري عطش الناس. ونظّموا العمل خفية في الأفران، لسد جوع الأطفال خاصة والعجائز. هذه التربيطات شجعّت القلوب، وقالوا لبعضهم إلى متى السكوت على مظا لم الحرامية؟، إلى متى السّكوت على المماليك المفترية؟، إلى متى الخنوع قصاد الغُز ولاد الوسخة؟!

"الأزهر" فوق أنّه جامع شاسع، هو مدرسة جامعة، لتعليم كلّ ما يخص الإسلام. يأتي الشّباب من "القاهرة"، ومن كلّ أطراف معمورة بر مصر، ليجاوروا تلك المدرسة، فيبقون فيها سنوات دارسين مقيمين

إقامة كاملة، فيقال عنهم "المجاورون". يعيشون في حياة ضنك، أكلهم يكاد يكون عيشًا حافًا، وملحًا، ومعالق عدس. قطعة اللحم يحلُمون بها، كوب الشّاي، أو فنجان القهوة ترف، والتفكير في نعلٍ جيد يكاد أنّ يكون خَرَفْ، فالكثير فيهم حُفاة، وبعضهم من الفقر يكّادوا أنّ يكونوا عراة. في سنّهم هذا المتطلّع، صُدموا صدمات قاسية من شيوخهم الكبار، شيوخ يُدرّسون لهم شرح شروحات الكتب القديمة التي ليس لها واقع، ويأمروهم بأنّ يخشوا الله، ويطيعوا السّلطان طالما هو مسلم، مهما كان ظالمًا باغيًا، ليس له من الدين رادع! يؤكّدون أنّ المؤمن زاهد في الدنيا الفانية، متطلّع إلى الجنّة الآتية، وأنّ الحياة مهما كانت فقيرة يائسة بائسة، فهي دار مرور، والآخرة دار أبدية، وحبور، وسرور. و"المجاورون" في فقرهم، وغُلبهم وما يقرؤونه، ويدخل أسماعهم، يرون أغلب شيوخهم الكبار، وكلّ ما يفعلونه عكس هذا تماما! لا يخْشَون "الله"، بل يخْشَون سطوة المماليك، لا يتذكّرون الدار الباقية، فكلّ تركيزهم على منِحات السّلطان من ذهبٍ، وفضةٍ، وملبس قشيب! ينتقون لهم تفسيرات منحرفة من القرآن، وأحاديث مضروبة مما لم يقله نبيهم العظيم "محمد"، وكلّ هذا الولس المريب، والفلس الخلقي الغريب من كبار الشيوخ، ليرضى عنهم السّلطان، وأمراؤه ومماليكه، أما "الله"، والرسول، فليس في بالهم، ولّما يدخلا قلوبهم، ولذا أطلق عليهم "المجاورون" لقب شيوخ "الثريد المجيد"!

مجموعة مجاورين من القشْلى، والقشف الذين يعيشون فيه، ومن الغيِرة على الدين الذين أتوا ليتفقّهوا فيه. اندفعوا مُشتعلين، مناصرين لشيخٍ

أزهري شاب مشتعل غضبًا من استغلال الدين في التبرير لطغيان الحكّام اللئّام، ومع الشاب عدد ليس بالقليل من الشيوخ الأحرار كبار وصغار الرافضين أنّ تكون بلدهم مُضغة في فم الغُز يَلُوكونها، ويقذفون تفلها للرّعية، تلك القلّة الشيخية التي لم تكن تابعة، لا لبراطيل رشاوي "عز الدين"، ولا يخافون من جبروت، وقسوة أتباع "كمال الدين". نجحوا في إثارة بقية (المجاورون) فهاجوا، وماجوا، وخرجوا من الجامع الأزهر وحوشه الواسع، ودخلوا شوارع القاهرة، ولم يتركوا حواريهم وأزقتّها وعطفاتها، فعلى الكلّ أنّ يشارك مع الكلّ ضد الغز الملاعين الظالمين، الخارجين عن الدين. انضمّ لهم الناس من ذكورٍ وإناث. وكلّ إشي واحد مُشهر في إيده ما يقاتل به.. "سكين، عصا، خنجر، حتة حديدة، أو جريدة!" طوفان جماهير تهتف، وتنادي لله والرسول، تنادي الأولياء الصالحين من "زينب ونفيسة والحسين". تلعن السّلطان، وتتوصّى بلعن السّلطانة الجشعة جشعان غول. نائب سلطنة بهدلوه، ولعنوا من خلّفوه. أمير جيوش شتموه، محتسب لعنوا أمّه وأبوه. العجائز على أبواب البيوت، وعلى الأسطح تُكبّر، وتصلّي على النبي. نساوين تزغرد فرحانة، ونفسها تخلص من العيشة البؤس العدمانة. العيون غير مصدقة أنّها مازالت قادرة على قولة لأة مرة، واثنتين، ومَرّات. نفوس نفسها تكسر الغز، وتخلص من الفقر الدّكر، وتشبع تمام التمام كلّ يوم بثلاث طَقّات!

في جامع "الأزهر" لما عادت الجماهير، ليتجمعوا للصّلاة مئات مئات داخل الحرم، ففاضوا حتّى افترشوا كامل الساحة الخارجية، حيث وقفت النساء صفوفًا؛ لتصلّي خلف الرجال، انضمّت مجموعة في ركن من الجامع

وهي مطمئنة تشعّ وجوهها بالانتعاش، وليس في خلاياهم أية ارتعاش، هم من كان مفروضًا عليهم لبس العمائم الزرقاء، لكنّهم لبسوا العمائم البيضاء مثلهم مثل بقية الرّعية المسلمين، فلن يرضخوا لسفاهة مملوك سّلطان، أو لفقيه خربان. تجمّعوا في ركنٍ يرفعون الأكفّ للخالق مُردّدين.. المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة. كيرياليسون ياربّ ارحم. بعد الصلاة أقبل عليهم الباقون راضيين، محتضنين، صائحين.. الدين لله، ولنا العدل في الأرض. لكم ما لنا، وعليكم ما علينا.

وبعد صلاة الفجر صاروا جمعًا واحدًا يصخبون، ويلعنون، ويُقسّمون أنهّم لن يسكتوا على كلّ هذا الهوان، وأنّهم من هذا الأوان سوف يردّون على الغز اللّئام العنف بالعنف، والدم بالدم. اعتلى المنبر الشيخ الشابّ الثائر، كما السّباع. يخطب في التجمّع الغاضب يُنادي بالشورى، كما قررها الإسلام. يرفض أنّ يسرق المماليك أرض الرّعية. يسائل.. لماذا يمنعوننا، ونحن أصحاب البلد من حمل السلاح؟!، ولماذا لا نحكم أنفسنا بأنفسنا؟، ثمّ يؤكد للمتجمهرين المستمعين له في تشجيع مشتعل، يؤكّد لهم.. لا دين لمن لا يجرؤ على قولة حق عند سّلطان جائر. وأنّه لا طاعة لمن لا يطع الله ورسوله. ومن يسجد لله لا يهاب سّلطانًا، ولا أميرًا، ولا مملوكًا حقيرًا. وإنّ شيوخ الأمة خانوها، فتركوا عبادة "الله" رب الكون، وصاروا عبيدًا للسّلطان، فحُقَّ عليهم نعت شيوخ "الثريد المجيد". والسّلطان "بِنْبان" لم يأت منه خيرٌ يُبان، ولا سيرة تُصان. فطول عهده لم ننل منه إلا الخراب، والهباب، والسُخام.

وفي جامع السّلطان "حسن"، لم يعدم المعتصمون شيوخًا كما هذا الشيخ الشجاع، وزعق أحدهم موجهًا حديثه للمماليك الغائبين..

- "متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!"

فهاج الجمع، وهم يصيحون..

- "صحيح، والله."

- "والله صحيح!"

- "إحنا أحرار، ليه الغُزْ ولاد الحرام يستعبدونا؟!"

في جامع شعبي صعد المنبر أزهري يعاير السّلطان، ومماليكه قائلاً..

- "أين أنتم من مماليك قهروا المغول؟، أين أنتم من مماليك قهروا الفرنجة؟، أين سّلطاننا من سّلطانٍ شيّد الأساطيل، فضم "قبرص"، و"مالطة" للمسلمين؟ ألا تخجلون؟!"

أغلقوا الأبواب العظيمة عليهم، وصعدوا على سطح الجامع القريب من قلعة "صلاح الدين"، وبهتافات منظّمة في نفس واحد، ليصل صوتهم إلى السّلطان وبطانته.. يلعنون السّلطان بأقذع ما لديهم من نعوت، ويدعون عليه بالموت. لم يهابوا حضور المماليك على خيولهم مُحاصرين للجامع الكبير كما معابد الفراعين، بل صاروا يقذفونهم بالحجارة، ويمطرونهم بأقذع الشتائم، فهربت الخيل بما عليها من فرسان غير شجعان. الكلّ اتفق أنّ الرعية قد فاض بها الكيل، وأنّها من بعد صلاة الظهر سوف تخرج من الجوامع، لتنزل إلى الشوارع، وتصعد إلى القلعة، وليكن ما يكون!

المماليك رغم خيولهم، وسيوفهم، ودروعهم، صاروا في خوفٍ عميق. فلن يُجديهم سلاحهم ضدّ جماهير ألوفية غفيرة، صاخبة غاضبة، خاصة أنّ عددًا من شباب ورجال ساحة الشيخ "معروف" أوقعوا ثلاثة مماليك في كمين، وهات عليهم بالطّوب، حتّى هاجت خيولهم، وأسقطتهم أرضًا، وهنا لم تنفعهم سيوفهم، ولا حِرابهم، ولا فؤوسهم. الطوب نزل عليهم أقسى من ضربات النبّوت، وكأنّهم بغايا تُقام عليهم الحدود. أُثخنوا بالجراح. و لم يتركوهم حتّى أُصيب أحدهم بكسورٍ فظيعة، والثاني فوق الكسور فقد عينًا. أما ثالثهم فقد نفق كما ينفق الحمار. وأربعة مماليك آخرين سقطوا تحت هجوم مُباغت من عصابة "المبربش"، و لم ينج منهم أحد! كلّهم انكسرت جماجمهم، وعظامهم، وساحت دماؤهم نتيجة ضرب الشّوم الغليظة.

الشيخ "مكنسة" قام، ويقوم بدورٍ كبير في محاولات تسكين غضب الناس، يؤكّد أنّ الخراب الذي يعيش في الناس، سببه الحريم، وسَيَبان الحريم، وعُري الحريم، والمجون الذي تسبّب فيه الحريم. والحريم هن أهم وسيلة من وسائل الوسواس الخنّاس. وأيضًا حلق الذّقون، وتخفيفها لزوم العِياقة، ورسم الشوارب بقصد الزِواقة، وعدم المداومة على ارتياد المساجد، وتواجد النّصارى، واليهود في بلادنا بلاد المسلمين! فالسّلطان ليس عليه أيّ بُهتان. وعليه.. فإنّ عصيان العباد، والخروج على الخليفة اعتراض على اختيار "اللـه" –سبحانه وتعالى–، وأنَّ الشيوخ الصّبيان غير الفاهمين، والذين يلومون السّلطان، ويلومون بِطانة السّلطانة على أنّهم قسّموا أراضي مصر أربعًا وعشرين قيراطًا، ونالوها كلها، هؤلاء الصّبيان

الصغار لا يفهمون، فإن كنّا رعية السّلطان الخليفة خسرنا أربعًا وعشرين قيراطًا حقّنا في بر مصر، فإنّ لنا القيراط الخامس والعشرين، والقيراط الخامس والعشرين في جنّة الخلد وهو أبرك، وذو ديمومة للأبد بعكس الأربعة والعشرين الدنيوية الزائلة بعرض الدنيا لو تعلمون. ثمّ إنّ السّلطان مهما كانت عيوبه وذنوبه، فهو لا يُسأل عمّا يفعل!

لم يوافقه أحد سِوى بعض أتباعه، بل ناله الكثير من السّخريات، وأنه مُنَعَّم بأموالٍ صارت تأتيه من أين لا أحد يعلم. وحين سبّ الساخرين منه، سَبّوه، ولعنوه، وقالوا حقًا إنّك الشيخ "مكنسة". لكنّ لم يستطع الأطفال السّخرية منه في الطرقات -كما كانوا يفعلون- سابقًا، فقد انضمّ للشيخ بعض الشّباب الطالع يتحلّقون حوله يدافعون عنه.

كبير البصّاصين كان في الجمعية التي اجتمعت في القاعة السّلطانية. أكدّ أنّ الهوجة صارت خطيرة، وان استمرت ستكون شرورها مستطيرة. السّلطان على سرير العرش قنطار شحم، ولحم، ودرهم عقل. الكلّ يستمع إلى الداودار "كمال الدين"، فهو من نصح من قبل بالضّرب على أيادي الرعية، وهو الذي يتكلّم الآن عن كيفية مُداداة الرعية! السّلطان وحاشيته مذهولين من كلّ تلك الغضبة من مجّرد رعاع هم عبيد إحسانات السّلطان، وتحت هيبته، وقدرته، إنّ رضي منَّ عليهم، وإن غضب أسْخَم عليهم، فلا يملكون في كلتا الحالتين إلاّ السجود له، ورفع الدعوات، أو طلب الترحمات! فكيف لهم أنّ يكسروا ساقية رفع المياه إلى القلعة، ويلعنون السّلطان نهارًا جِهارا؟! ليس في يد السّلطان الآن أيّ عقاب،

أو أيّ تخويفٍ للناس، فقد فقدوا الرّشد، وهاجوا، وماجوا، فعليه وعلى حاشيته أنّ يعملوا على تهدئة البال، وبعد ذلك يكون التصرّف حسب الحال.

تشاجر الأمراء في القاعة، والسّلطان لا له احترام، ولا طاعة. نائب السلطنة "حفيظ السلولي" يصبّ جم غضبه على "الداودار" الذي نصح بتأديب الرعية بكلّ هذا الجبروت، و"الداودار" يردّ بأنّ الكل طلب ترك الوعيد، والوثوب مباشرة بالضرب بيدٍ من حديد. ثمّ دخلوا في شجارٍ فيما بينهم، فإن كان "الداودار" قد نصحٍ بالغلط، و لم يدرك أنّ عزف طُنبور العذاب إنّ زاد عن حدّه انقلب إلى ضده، فغيره فعل عين الغلط. "حفيظ السلولي" يتهم عسكر "اليوسفي" بأنّهم من دخلوا حيّ "الصاغة"، وأغلب العاملين فيه، وأصحاب الدكاكين من المسيحيين. كسروا الدكاكين، ومن الذّهب والمصاغ نهبوها. و"اليوسفي" يتّهم "السلولي"؛ لأنّ مماليكه هم من زوّدوا رنّات طنبور العقاب، وهم من هجموا، وأسالوا الدماء، و لم يرحموا لا عجوزًا مهدودة، ولا مريضة مكدودة، ولا أطفالاً حيلتهم محدودة. و"حفيظ"، و"اليوسفي" يتهمان "عثمان أغا".. فمماليكه هم من ارتكبوا أفحش الفواحش.. خطفوا البنات والنّسوان، وفعلوا فيهنّ العيب الذي لا بعده عيب، وهذا هو الأساس في غليان الناس، واشتعال الهوجة. فيعاود "عثمان أغا"، ويتهم من حرّض، وتسبّب في كلّ هذا البلاء.. الداودار "كمال الدين" الذين يظنّ السّلطان أنّه عاقل، وثبت أنّه تامّ الغباء.!

بعد شتائم متبادلة، وحَيْرات متسائلة.. "الداودار" العقرب. قال يجب أولًا أنّ نُهدّئ الناس؛ لنبرد نار الهوجة، وبعدها يكون التصريف. لكنّ كيف والهوجة هاجت وزاطت، وباضت؟!

العسكر المماليك بكل هيلمانهم، وكثرة فرسانهم، لم يجرؤ واحد منهم أن يقول ننزل نأدب ناس حَوَشْ، ونربي ناس قلالات أدب! فعلا.. "الظا لم المتجبّر المتكبرّ، يخر تافهًا مسكينًا لمّا يقرب من رقبته نصل السّكين".!

الليل.. القلعة أرسلت تجريدة خفيفة سريعة تسرّبت بين الشوارع والأزقة، فأتوا بشيوخ المذاهب السنية الأربعة، أوقفوهم في حضرة السّلطان، والكبار الجالسة المتربعة. الأربعة اتبهدلوا واتمسخروا.. كيف تقوم هُوجة، وهم لا حسّ ولا خبر؟ كيف يلهفوا الذّهب، والفضة، والكساء الفاخر، ووقت اللزوم يكون ولا ليهم لزوم؟. اتفقوا على نزول الفقهاء الأربعة لجامع الأزهر، ثمّ جامع السّلطان "حسن"، حيث أهمّ كبار الشيوخ والمجاورين الثائرين، ويعلنوا لهم ما تّم الاتفاق عليه. يدور المنادون في كلّ أنحاء القاهرة، ينادوا بأنّ أوّل هام.. أنّ أيّ مملوك، أو تابع للسّلطان، ممنوع يدخل أيّ باب سواء كان مغلقًا أو مفتوحًا. ثاني هام.. الأمان للسّقاة سواء كانوا على الأقدام، أو ممّن يستخدمون الحمير والجمال. فالعطش للأطفال، والمرضى حرام! ثالث هام.. السّماح لفقهاء المذاهب الأربعة بأنّ يصعدوا مرة ثانية إلى حضرة سّلطان "مصر" المحروسة، وهو ولي أمر المسلمين، ليستسمحوه في العفو عن كلّ من تصرّف بحموريّة، وكلّ من فعل فعلاً بدونيّة. والسّلطان الأمجد "بِنْبان" طيب، وإن شاء الله يكون خيرًا.

الشيوخ الكبار الذين انضمّوا إلى الشيخ الشاب، قبلوا ما اتفق عليه فقهاء المذاهب الأربعة المنافقين! قالوا هذه خطوة أولى، وستعقُبها الثانية، وما يليها حتّى نصل إلى القاضية. الغريب أنّ الشيخ الشاب الثائر الفائر، والمجاورين الشباب رفضوا! رفضوا، وجادلوا، وأتعبوا كبار الشيوخ اللّي وافقوا. أقسموا الن يرضوا إلا بحُكم آيات القرآن، وليس لجبروت السّلطان. نهار كامل حِوارات، ومجادلات، ومشاجنات، وتوتر، وغضب، ثمّ العودة للحوارات، والمجادلات، والمشاحنات! ثمّ اتفقوا اتفاقًا وإن كان متوافقًا على أساسات قديمة، إلا أنّه يجب وضع ما هو جديده. وبند من أهم بنود الجديد الذي كان في البال من سابع المحال.. كان مِنْ لوُم عَيْنٍ من عيون "كمال"! هذا ليردّ كيد "عثمان أغا" على نحره، ويجعل خباثته مردوده طعنة في ظهره. قالوا على السّلطان بعد عزل المحتسب الظالم، ومساعديه الجشعين، عليه مباشرة معاقبة كلّ من خطف فتاة، أو وِليَّة، وفعل فيهنّ فعلة زِنا دَنيّة، وأنّ يجبر المسئول عنهم لدفع الديَّة. وبعدها لا يتكرّر هذا الأمر، وإلاّ فلا طاعة لظالم، وبيننا وبينكم إمّا العدل، وإما بحور الدم! هكذا! نعم هكذا، وأضافوا كذا.. عزل الشيوخ الأربعة المنافقين. وبدلاً منهم يتم تعيين من يتبعون شرع اللـه، لا شرع الشيطان. وتذكّروا النصارى، واشتراكهم في الهوجة، فقالوا لن يلفّ النصارى عمائم زرقاء. وكيف وكنّا مسلمين نحمي حُجاج النصارَى من شتى الأمصار والأقطار؟، كيف نفعل ما يشين الإسلام بظلم الأنام؟! كُنّا على خُلُقٍ كريم، وخلْقُ وسيم، فلمَ ننقلب هكذا غليظين مغيظين متكالبين على من يختلف؟ اعترض أَتباع جماعة الصّحراويين، وأعلاهم صوتًا الشيخ "حرنكش المكنسة"،

و"المبربش" هدّد، وتوعّد وهو يلوّح بعصاته، لكنّ الجموع المؤيدة كانت أكثر، وأقوى، وأعلى صوتًا.

يا سلام من هذا الكلام. هذا نادرًا ما يحدث في تاريخ المماليك، أنّ يخاطبهم أحد بمثل هذه الغِلظة، فهمُ لهم العنجهية على الرعية، وليس العكس! لكنّهم بدون فصالٍ رضخوا ووافقوا، على أنّ يمرّ الوقت، وينسى الحرافيش وقفتهم الأبية، فمعروف عنهم أنّهم يصعدوا يصعدوا، ثمّ ينزلوا على ما فيش. انتهت الهُوجة، وقد انتصر فيها العوام على المماليك اللّئام.

في الليل أُعلن عزل شيوخ المذاهب الأربعة، وعُيِّن غيرهم. وعزل شيخ الأزهر، لتراخيه، وجُبنه، واختبائه وقت الشدائد، وعُيِّن غيره. وبالمرة تّم عزل المفتي، يعني هيّ جت عليه؟!، وأخذها السّلطان فرصة لإعادة الحسّابين، والكتبة النصارى إلى أعمالهم، ليضبطوا الدَّفاتر التي باظت. في الصّباح الباكر المملوك "ألباني" قائد الحرس السّلطاني، ركب ومعه ثلاثة حُجّاب، وعدد من الحرس، وساروا، وأمامهم المنادون ينادون الناس بالأمان، والاطمئنان والبيع، والشِّرى، ومن يتعرّض لأحد من الناس، أو نطّ على دار، أو تَهَجَمَ على مملوك، شُنق من غير معاودة، ويكون حِلّ ماله، ودمه للسّلطان.

في الظهيرة تمّ توزيع الذّهب والفضّة على قوّاد، وعسكر الجيش حتّى يرضوا، ويستمّروا في تنفيذ أوامر "اليوسفي"، والسّلطان، والذهب والفضة أتيا عن طريق "الداودار" الذي استلمه من نقيب التجار "عز الدين". من ثكنات الجيش خرجت كتيبة مماليك كبار وصغار، وألقوا

القبض على خمسة من مماليك "عثمان أغا" الذين هجموا على البيوت، وخرّبوها، وخطفوا أحلى نسائها، وخبصوا فيهنّ. وعند باب زويلة علّقوهم، وبالسّيوف الطويلة العريضة. وسّطوهم، فسقطت أنصافهم السّفلية على الأرض، وبقيت أنصافهم العُلوية مُعلّقة، الدماء تخرّ منها، والمصارين مندلقة. وبقوا هكذا أيامًا عِبرة لمن يعتبر، ودليلاً أنّ السّلطان ليس طرطورًا بل هو سّلطان قوي مقتدِر، لا يهاب من عقاب المماليك، وإن كانوا حتّى تابعين لأمير مفتخر. وبهذا يسترضي للعامّة الثائرة، فقد أخذ ولي الأمر حقّهم، ووصلتهم الديّة المدفوعة من الأمير "عثمان أغا"، فعليهم العودة لأمور الحياة الفاترة، والمعاملات اليومية السائرة. بعد أيام ثلاثة فكّوا الأنصاف العُلوية كلّ نصف علوي مع نصف ملقي أرضا، ولا يهمّ أنّ يكون النّصف الملقَى تابع للعلوي. فكلّهم موتى تعفّنوا.

هذا العقاب على مماليك الأمير "عثمان أغا" لم يمرّ في باله مرور سُحب الصيف، أو دخّان جوزة كيف. صار "عثمان أغا" حريصًا على نفسه، وعلى أتباعه، فقد أحسّ أنّ يومه قد قرب، وعليه إنّ أراد النجاة أنّ يتغدّى بأعدائه، ومنافسيه قبل أنّ يتعشّوا به. عسس السّلطان، أو –على وجه أصح– عسس "كمال الدين" اشتمّوا أنّ الريَبَ، والحركات التحتية، والتربيطات التخامرية الضدية قد زادت، فزكمت الأنوف. "عثمان أغا" وأمير من أمراء الشام، مع مماليك متوسطية يطبخون طبخة دموية. ولما نصح نائب السلطنة "حفيظ السلولي" بالمبادرة، والهجوم على "عثمان أغا"، وأيده قائد الجيوش "اليوسفي"، عارض الداودار! برّ مصر كلّه في حالة غليان، والكل تعبان، التجارة متردّية، والمحصودات ليست مستوية

عالية. الكلّ ناقم على الحاكم، سواء من المماليك، أو من علية القوم والتجار، أو حتّى الحرافيش الجعيدية. مخاطرة غير عقلانية أنّ نزيد النار نفطًا، والفاقة قحطًا. ومن هذا اليوم أيقن كلّ مملوك أنّ الكل ضده، وأنه ضد الكل. أيقن الكلّ ألاّ أمان بعد الآن، فصار كلّ واحد من الكل لا يسير وحده، ولا يشارك في جمعية سّلطانية إلاّ وخلفه حرسه القوي، ليحميه من اغتيالٍ متوقّع في أية لحظة.

القلق واضح على السّلطان، هذه أخبار لا تُقلق فقط، بل تتسّبب في إسهال المصارين، وتدفع لحالة من حالات المجانين. السّلطان "بِنْبان" الذي كان متهورًا ارتدّ ليكون شجاعًا فقط، ثمّ انتكس ليكون هيابًا، وفروسيته التي كانت ذبُلت، وصارت يبابا. يسمع كلّ مخيف من داوداره، ولا يعرف ماذا يفعل؟ يتوقّع فقط.. يتوقع إنّ نجح "عثمان أغا"، وعصابته الخفية، أنّه سوف يُعلق مشنوقًا على باب من أبواب القاهرة، أو تتم قطع رقبته في ساحة شعبية، أو ربّما في قاعته السّلطانية نفسها. وماذا سيحلّ بزوجته "شمس"؟ لا يهم. سيكون مصيرها السّجن. لا يهمّ. حتّى لو قتلوها.. لا يهمّ. المهمّ ماذا سيحلّ بابنته "قمر" التي أُشيع أنّها السّلطانة القادمة؟ آآآه. ما ذنب تلك الفتاة المسكينة، لتدار عليها كلّ هذه المخامير والتدابير، لتكون سّلطانة؟!

وفي نفس ليلة انتصار هوجة الصّعاليك، والحناكيش، والدراويش، وتحت نصيحة داوداره "كمال الدين" العقرب، أنّ يعود للحركة، وشغلات القتال، والنّزال، فيذيب الدّهن، ويجلو الذهن. ارتدى ملابس حربية.

ملابس تم تفصيلها لتناسب حجمه الذي ورم، وهَرم. نزل إلى أوسع ساحة في مساحة القلعة. على فرسه يكرّ هنا وهناك، وبسيفه يضرب بعض ثمرات القرع العسلي المثبتة على عصي طويلة. تواجد أمامه عدد من الفرسان، ليصطدم بهم، ويضرب فيهم وهم فقط يصدّون ضرباته، وينكسون قصاد هجماته. دقائق وأحس "بِنْبان" أنّ صدره حشرج، ويكاد يتمزّق تمزيقًا، وأنّ قلبه سوف ينفجر من سرعة ضرباته. انسحب، وذهب إلى الحمّام. الخصيان يُحمّمونه، ويدلكونه وهو مستسلم بشحمه، ولحمه، ودموعه تسيل حسرة على نفسه. ولما زاد البكاء، وعلا النشيج أشاح للخصيان أنّ يتركوه وحده في عذابه، وحسراته. ومن وقتها تدهورت صحّته أكثر، وتغضنت نفسه أكثر. لم يفده كثرة المطببين، ولا مجاميع الصوفيين التي تقف أمام قصره، لينشدوا المديح والتسبيح، ويقرؤون صفحات، وصفحات من أحاديث الصحيحين "مسلم"، و"البخاري".

جموع الرعية في نشوة انبهار بانتصارٍ واضح على الغُزْ كفلق النهار. الثقة في كثرتهم، وشيوخ الأزهر الجُدد شيوخ بحق، فلا هيبة لسّلطان عليهم، فهيبة "اللـه" وطاعته هي الأحق. والمجاورين الشّباب غرتهم عن قوة فرسان المماليك، وعسسهم، وتربيطاتهم، فاستمرّوا في اللّماضة، وتمليح الرقاب بدون أخذ الحيطة، وتتريس الأسباب. فجأة قرر رُيَس المراكب الشراعية التوقّف عن الإبحار! لماذا؟ المكّوس عليهم باهظة، وانضمّ إليهم من لا يعملون على مراكب "عز الدين"، فهم يلطمون من قلّة مردودهم، وكثرة مكاسب "عز الدين" وأتباعه. ثمّ حمالين الموانى النهرية والبحرية، ثمّ حمّالين الأسواق، ثمّ صنايعية دبغ الجلود، ثمّ ثم ثم.. وبلغ

الأمر أنّ تجّار الخضار، واللحوم تجمّعوا، واتجهوا إلى القلعة، ووقفوا عند بابها الرئيسي يطلبون من السّلطان أنّ ينزل لهم، ويستمع لشكواهم من المحتسب! فأنزل لهم السّلطان من يستمع لهم ويعدهم بأنّه سيتصرف تصرفًا حميدًا، وسيكون خيرًا -إنّ شاء الله-. فإذا بجماعات غفيرة من أتباع المبربش، والمكنسة تتظاهر بعد صلاة الجمعة، وتطلب تحجيم، وتكميم ضامنات المغاني والغازيات والقحبات. وردع النّساء عن ارتداء ما يخالف الشرع، وإلاّ فلا طاعة لهم للسّلطان "بِنْبان"! يا لهول ما يجري، ويا لهول ما سيكون إنّ استمر الأمر هكذا.

عقد السّلطان جمعية للتشاور والتحاور، فالأمور صارت سبهللاً، والنظام يسير حنجلاً، عليهم الشّد والجذب والضرب، وإلاّ فلا. اجتمع الأمراء الكبار فيما عدا "عثمان أغا"، فقد خشي أنّ يجري عليه ما جرى على نائب السلطنة السابق الأمير "شَنْدَرْ". اجتمع الكبار، ليقرّروا ما العمل ضد الصغار. فكان كلام الداودار مثلما قال سابقًا.. اللّين، والحكمة حتّى تمر الغمّة. رفعوا القليل من العناء عن الشّاكين، فَرَضُوا، وصمتوا، أمّا ما طالبت به جموع "حرنكش"، والمبربشة، فقد نادى منادو السّلطان في القاهرة، وبقية الأمصار بإغلاق بيوت الضّامنات الفاجرات، وبإبطال ما استحدثته النسوان من لبس القمصان الواسعة، والأكمام الكبار، وأيضًا إبطال ما تشخلعوا به من الأزر الحرير الملوّن، وإبطال جميع البدع النّسوانية المعجبانية. وعلى كلّ راع في بيته أنّ يصون رعيته، وإلا فالعقاب عليها وعليه.

وتمرّ الأيام والشّهور في توقّع كلّ ما هو رضاء وسرور، فإذا السّرور (لاغي) ويعود كلّ ظلم باغي. جاءت أيام الحساب، وشهور العقاب. عُيّن محتسب جديد، ليجبي الأموال من الناس، مملوك لا يعرف أباه وقت الجباية، ولا يعرف أمّه وقت انتزاع الخِراج، والجزية، وكبسات الظلم التي ليس لها نهاية. فعمل في الناس بالباع والذراع. و لم يتحرّك الناس، و لم يهيجوا، و لم يهتاجوا، فقط عادوا للدعاء أنّ يهدي "اللـه" السّلطان، وفي السرّ يدعون عليه. في كلّ فُجر يأتي العسس، ومعهم عسكر السّلطان، ليقبضوا على رؤساء المراكب التي شمخت بأنفها، ومحرّضي الشيالين، والكيالين، وعمّال الدباغة. وفي ليلة أمسك عسكر بالمبربش، وأغلب عصابته. في السّجن لم يناموا. العقاب عذاب لم يكن يتخيّلوه، و لم يكن يتصوّروه، ففي محابيس السّلطان كلّ ما يشتهيه الشيطان، ويحلُم به من أنواع التعذيب، والتخريب. التجويع، والتعطيش، واللوّاط، وانتزاع الأظافر، وانتزاع أعضاء الذكورة، وتوسيع الإست، وتغويطه. "المبربش"، وعصابته، والمحابيس يصرخون حتّى تبحّ أصواتهم، ثمّ لا صوت ولا حس، من يموت فطيسًا يُدفن بدون غُسْل، ولا صلاة عليه. ومن يُغمى عليه ينسكب الماء القذر عليه، ليفيق، وينهال على قفاه التصفيق. ثمّ راق عذاب جديد فوق راقات عذابات بتنويعات. المبربش، وعصابته ندموا على ما فعلوا، تَرَكَهُمِ الغُزْ يلعنون الرّعية، وكلّ رجل لا يتبعهم، وكلّ وِليّة، لكنّ أنّ يقتلوا مملوكًا، ويتطاولون على السّلطان، فهذا يُوجب المساءلة والمقاتلة. نالوا من نغمات العذاب أكثر ممّا ناله غيرهم، و لم يكن أحدهم يظن أنّ "العسس" سوف تتعرّف عليهم، وتضع الذنب على أكتافهم من

بعد الشيخ الشّاب الذي اختفى.. أين؟، وكيف؟. الله أعلم. لكنّ الكلّ يعلم.. الشيّخ الشاب هو الخطر الحقيقي على الغُز، وعلى أتباعهم، خاصة نقيب التجار "عز الدين". فهو يدعو لانتزاع الإقطاعيات منهم، وتوزيعها على الفلّاحين العدمانين، وهذا ما يجلب على الغز، و"عز" البلاء والبلية.

جماعة "الصحراويين" في أمان. الشيخ "حرنكش المكنسة" أحواله زادت رغدًا، ورِفعة من بعد احتياج وَضِعَة. انتقل من حيّه الفقير إلى حي بالغِنى يفوح، ولا يحلُم به فقير سنكوح، فالسّلطان عنه راض، وكبار التجار عنه في رضا، مهما لعن النّسوان، وسخف من ذواتهنّ، فهو مع جماعته لاعن أكثر لمن يقف ضدّ السّلطان الذي لا يُسأل عن أفعاله، ولا يُردّ على أقواله. وأيضًا تزوج الرابعة، وامتنع عن فِراش القديمتين، وركّز على فراش الشابتين الجديدتين بَسْ. لم يعد يتذكّر جسد "نَجِيَّة"، ولم يعد يحتاج إلى تخيّل ما لها من تموّجات جسد، وتلوينات حِسْ.

"الداودار" كان يتابع السّلطان وقت تدريباته في السّاحة. يبتسم على خيبة الفارس الذي كان. ثمّ وصله انهياره في الحمّام، فزادت ابتسامته اتساعًا وعينيه لمعانًا. السّلطان في انهيارٍ مستمر. زوجته سّلطانته بعيده عنه بُعد المشرق عن المغرب. بطانته المملوكيّة تُدير كلّ شَيْ، وليس له في الأمر أيْ. كره سَرِيَتُه الحبشية، فلم تعد تتفاعل معه، فأصلا خابت شُعْلَتُه هو ببرود همَّته، فلم يعد يملك ما يكويها كَيْ. يشتاق لابنته "هناء"، يحلُم بأنّ يزورها، ويشاهد البحر المالح، ويسترخي على شاطئه، لكنّ "الداودار" يحذّره.. لا تترك عرشك، لا تترك القلعة، ولو إلى "مكة"؛ لتؤدي فريضة

الحج، فإن تركت القاهرة نهارًا واحدًا، فربّما لن تعود إليها جزءًا واحدًا.

فعلاً صدق من قال.. "من أراد البقاء في الدنيا، فليطمّن نفسه على المصائب"، فإن مرّت السنوات الطويلة الماضية على قِلّة من الناس شربات وحلاوة، وعلى العوام كانت سنواتٍ عجاف سخاف، فإنّ الممرور الأوّل هو السّلطان الأمجد "بِنْبان" الذي تحَتَ أمره كلّ حلاوات البلاد من مأكل، ومشرب، ومتنزهات، وحريمات! لم يعد سّلطان البلاد يستطعِم أيّ شيء، لا من فوق، ولا من تحت. رغم كلّ ما حوله من ترف، فقد أُصيب بحالة قرف. مَلّ من الطعام والشراب، وكره النزهات، ولعب الكرة، والكرّ على الرهوان. يُصاب بالتعبِ من أقلّ مجهود، يعتريه الزّهق، ويحتله الملل من أيّ أمرٍ مطلوب. صار الذّهب عنده وليس له قيمة، وعِمامة السّلطنة ليس لها شِيمة. والقلعة، والقصر، والعرش ضياعات فارِغات، والأعز منها حرية بدوي يملك جملاً، وماعز، ويقيم في خيمة.!!

السّلطانة في حمّامها الخاص. رخام وردي، وأعمدة، ومصاطب بلون الكاكاو. جواري وخصيان نصفهم العالي عارٍ، والسفلي يلتفّ حوله منشفة قصيرة. الكلّ ينحني لها خنوعًا ورعبًا. رفعت جارية عباءة السّلطانة، فوضعت أخرى منشفة شاسعة على كتفي "شمس"، لتلتف حول جسدها. تعبر ممرًا لحجرة "قيشاني أزرق" بنفس الفخامة. حوض ماء ساخن، ويدفع بخارًا كثيفًا مُعطّرًا. يرفعن عنها المنشفة، ليستقبل جسدها البخار الحار، فيتخلّل كلّ مسامها، ويُبك منها أنهارًا من العرق. مصطبة ناعمة تتمدّد السّلطانة عليها، وتتقلّب ببطء، وكسل على بطنها، وظهرها، وجانبيها.

جارية فارعة الجسد، قوية الذراعين تُدلّك لها جسدها بالدهونات والزبد.، ثمّ جارية تدعكها تُعبّئ كوزًا فضيًا بالمياه من الحوض، وتسكبه بهدوء قليلاً قليلاً على جسد مولاتها. باللّيف الطّري كالحرير، والصابون المعطّر، تحمّي مولاتها. فترة، وتهبط السّلطانة في المغطس، والماء فقد الكثير من سخونته، ليصير دافئًا. تجلس على مصطبة ناعمة، فتصل المياه حتّى رقبتها. جارية صبية تجسُو برُكبتيها على حافة الحوض، وبليفة أرقّ، وأشف تمسح جسد مولاتها، وترفع المياه؛ لتسكبه على شعر مولاتها الأصفر. المدّلكاتية، وجاريتان، وثلاثة من الخصيان يقفون في ثبات، لتلبية أيّ طلب من السّلطانة. توتّر في يد الجارية التي تُحمّيها، ورعشة في صوتها وهي تحادث السّلطانة..

- "مولاتـ...ي."
- ".."
- "مولاتـ.ي."
- "مش عايزة كلام. شوفي شغلك."
- "رسالة يا مولاتي."
- "رسالة إيه يا نيلة؟"
- "الداودار "كمال الدين" مولاتي."

التفّت السّلطانة في غضب، وهي تنظر نظرات غيظ كاسح لوجه الجارية المرتعبة.

- "قلتِ مين؟ داودار! فين شفتي داودار؟ قابلتِ فين داودار؟"

- "رسالة وصلتني من عبد."

- "عبد مين يا نيلة؟"

- "أوّل مرة أشوفه."

- "فين رسالة؟"

- "قال.. قال.."

- "انطقي عبدة غبية."

- "آن الأوان تردّي جميل "الداودار" يا مولاتي."

- "جميل إيه؟"

- "معرفش مولاتي."

- "هاااا! عبدة سودة ما ليها لزوم تقول لي رسالة، وأنا السّلطانة؟"

قامت السّلطانة على قدميها. المياه تسيل من شعرها الأشقر المبلّل، ووجهها، وصدرها. مياه الحوض الشفّافة المُعَطَّرة تصل لوسطها. الجارية مرتعبة على حافة الحوض تبكي، وتنهنه..

- "ماليش ذنب سّلطانة، ماليش ذنب والله."

أمسكت السّلطانة بالقماشة التي تستر وسط الجارية، وجذبتها فأوقعتها في الحوض. نظرت السّلطانة للمدّلكة، وأمرتها..

- "جارية مدّلكاتي.. جواري.. خصيان.. غرّقوا جارية وسخة دي."

الجارية الباكية أمسكت بوسط السّلطانة الغضبانة، وتشبثت بها وهي تستعطفها. المدلّكاتية وخصي هبطوا في الحوض، وانتزعا يديَّ الجارية من وسط "شمس" التي خرجت من الحوض، ووقفت عارية تراقب المدّلكاتية والخصي، وهما يغرقان الجارية التي تصرخ، وتسترحم، حاولت المقاومة حتّى دفعتها الأذرع بإصرارٍ أسفل المياه؛ لتتجرع منه. توقّفت عن المقاومة والفلفصة، وماتت غريقة، شهيدة رسالة الداودار "كمال الدين"!

أيام ثلاثة بلياليها، والسّلطانة في حيرة.. هل كلّ الجواري والعبيد من حولها عيون عسس عليها من قِبَل الداودار؟، وكان الرّد صباح اليوم التالي.. خصي اقترب، ووضع أمامها ملفوفًا ورقيًا، واختفى سريعًا! من هو هذا الخصي لا أحد يعلم!، وأين عمله في القصر، ومن هو سيّده؟ فكت الدوبارة، وسطحت الورقة، وقرأت.. السّلطانة "شمس". سأقابلك اللّيلة في الركن الخاص من بيت المملوك المختص بالدّفاع عن الباب الكبير! وكانت المقابلة، وعلى بعد قليل البيت النائي الذي كثيرًا ما قابلت فيه "حفيظ السلولي"، والآن تقابل اليوسفي!

- "مولاتي.. ما ذنب الجارية؟! هاها. مولاتي.. الوقت حان تردّي الجميل."

- "جميل إيه داودار؟"

- "نسيتي؟"

– "فكرني داودار."

– "ليلة اتفقنا جواز "قمر" من البهاء اليوسفي."

– "إيش كان؟"

– "كان لي خدمة عندك مولاتي."

– "آه. تريد خدمة؟"

– "الآن."

– "الآن! تُشْرُط كمان؟! إيش تكون خدمة؟"

– "نائب سّلطان؟!"

– "نائب سلـ... طان؟!!"

– "أيّ نعم."

– "نائب سّلطان داودار؟!"

– "نائب سّلطان مولاتي."

– "و"حفيظ السّلولي"، يروح فين داودار طمّاع؟!"

– "يروح في داهية."

– "دا كلام كبير داودار. كلام خطير "داودار". "حفيظ" أمير جامد. "حفيظ" عنده مماليك كتير، كتير، كتير. "حفيظ" مكانة كبيرة عند السّلطان."

– "كان زمان ستي سّلطانة، كان زماان هاها.. "

– "يعني إيه داودار هاها؟"

– "يعني سّلطان "بِنْبان" غاضب كتير من نائب سلطنة، وكمان قلب سّلطانة زعلان من نائب سلطنة!"

– "كلام فارغ."

– "حفيظ أيامه راحت، وأيام "اليوسفي" جَتْ."

– "داودار مخك في إيه داودار؟!"

– "سّلطانة شوفي قدّامك تمام. مستخبّي حركات خلاص راح. هنا جمب منّنا مكان عشقتوا بعض فيه، وغيره مكانات كتير. خلاص عَلني يكون كلام."

– "قليل أدب داودار."

– "أدب كتير عندي سّلطانة، غير كده ممكن نقلب سّلطان على سّلطانة، نغَيِّر خاطر سّلطان على نائب سّلطان. يصير دا خسران، ودا خسران. اسمعي "شمس".. داودار مش طير تاكلي لحمة بارد كده، كده."

– "تهديد سافل."

– "إيش سَوّى مملوك صغيرْ تُرك؟، إيش عمل مع أميرة "قمر". وبعدين كمان مدفون فين مملوك ترك؟"

– ".."

– "لكنّ مولاتي ما في قلق. مولاتي ما في زعل. كلّ اللّي أنا أعرفه، في بير غوبييط."

– "تهديد سّلطانة داودار؟!!"

– "تمام سّلطانة تمام. تهديد سّلطانة."

– "كمال الدين عقرب.. إنت داودار مستحفظان، ولاّ إنت كبير العسس؟"

– "هاها. كبير العسس شغّال عندي مولاتي سّلطانة "شمس"."

– "طلبك داودار سافل."

– "حفيظ خلاص. دوره خلاص بح. في تخمير ترتيب قوي قوي.. سّلطانة و"اليوسفي" و.. "كمال الدين". سّلطانة تكون بنتها سّلطانة، ويوسفي ابنه سّلطان، وكمال الدين نائب سّلطان. وبعدين "حسام" حفيدك، وحفيد "اليوسفي" يكون سّلطان. لكنّ شمس.."

– "لكنّ داودار!"

– "أنا مفيش نائب سلطنة، كلّ تدابير تروح في بلاش. سّلطانة تروح بلاش.!"

– "آهاااا! أنا أسَوِي إيه؟"

– "كلام حلو للسّلطان "بِنْبان". حفيظ يروح.. "كمال الدين" ييجي نائب سلطنة."

10

وضعت حَملها. قالت إنّ اسمه "عَزّازي". لكنّ "بهاء" اعترض، فهو لا يريد ذكرى "عَزّازي". واقترح اسم "عَزيز". "عَزيز" لم يأخذ شكل أبيه شبيه الغُزْ، بل طلع لون الفلاحين، وخِلقَتَهم.. قمحي اللّون، أسود العينين مثله مثل خاله، وأمه "نَجِيَّة"، ففرحت جدّته "زكية". فرحت متخطّية أنّ ابنتها وضعت حملها في شهرها الثامن! ليكن، تزوّجت بالحلال، وإن كان حملها قبل الحلال. فرح قلبها، وقالت لنفسها..

- "عاد ابني "عَزّازي" في خِلقة حفيدي "عَزّازي"!"

تصر "زكية" على اسم "عَزّازي"، وإن تراجعت بعد أيام، ووافقت على اسم "عَزيز" مراضاة لابنتها، وزوج ابنتها.

"بهاء" خشى من جماعة ظهرت حول "بركة الفيل"، جماعة شباب عدمانين العمل، خربانين الأمل، بالصياعة، والوضاعة أخذت تفرض

إتاوات على كلّ صاحب دكّان، أو فرشة خضار، أو صاحب مركب للفسحة على البحيرة، لم يتركوا حتّى أحبابًا وعشّاقًا أتوا للبركة، ليمضوا وقتًا وجدانيًا، اضطر "بهاء" ليرضيهم، ويتجنّب شرهم، وخطرهم، اضطرّ أنّ يعكمَهُم بدنانير قليلة، ليبتعدوا عن بيته، فلا يقلق على عائلته خلال غيبته وحتى خلال تواجده. انبهروا بدنانيره، وأعلنوا أنّ "بهاء" وأهله تحت حمايتهم بأفضلية مِيَّة في المِيّة!

"بهاء" يقضي ثلاث ليالي مع عائلته. لم يعد قادرًا على فِراق ابنه الصغير "عَزيز". "زكية" أزاحت قلقها من شقرة "بهاء"، وأحبّته، كلّ أيام الهوجة وخطورتها بقى معهم، كان قلقًا على زوجته "نَجِيَّة" الحامل في أواخر أيامها، وقلقًا أيضًا على "زكية"، و"إبراهيم". تعلم "زكية" أنّه متزوج من أخرى، لكنّه فضّل البقاء معهم. وأوّل مرة تحتضنه كابنٍ لها تحبّه وتقدره، كان يوم انتهت الهوجة واطمأنت، واطمأنّوا جميعًا. وقبل أنّ يناموا هي التي أصرت على إمساك الطبلة، والدقّ عليها، لترقص ابنتها "نَجِيَّة"، ويصفق زوجها "إبراهيم" هو و"بهاء"، لينبسطوا كلّهم، ويضحكوا فرحين مفرفشين. و لم تخجل "نَجِيَّة" وهي ترقص أنّ تتذكر أغنية سبق أنّ غنّتها ليلة أنّ عملت راقصة، فانطلقت تغنّي..

"تحت الشفَّة الرقيقة

يِحلى مضغ اللّبان"

ومالت على "بهاء" وجذبته من ساعده، ليقف ويرقص معها، فرقص فقبّلته من شفتيه، ثمّ أكملت غناءها..

"اتمايل وأنا أبوسك
يا عُوِيْد الخيرزان
يجرالك ما جرالي
ياللِّي تلوم عليْ"

"إبراهيم" قضى سنتين رائعتين من بعد غربته عن قريته. عاد لشغلانته الأصلية..الفلاحة. هو و"زكية" يفلحان مساحة الحوش البسيطة بالخضروات التي لا تأخذ مجهودًا. يراعيان أشجار الفاكهة، وتعلما زراعة الورد. يراعيا شُجيرة الجمّيز التي تنمو سريعًا. تشاغله أحيانًا حكايات "ألف ليلة وليلة" التي كان يسمعها في المقهى. يحكي في بعض الأمسيات "لزكية" وابنته "نَجِيَّة" فتستمعان وهما منبهرتان. في النهارات دائمًا يلاعب حفيده داخل الحوش، وبين الزراعات. ولمّا ينعس الحفيد، يبقى "إبراهيم" مع ذكرياته في القرية، مستحضرًا أصدقاء العمر، والمواقف الطريفة، والصعبة التي كانت، وأيام الصبّا، وبدايات عشقه "لزكية"، ثمّ يُقَفّي الذكريات بمأساة مقتل ابنه "عَزّازي"، فيبكي قليلاً وينام هو أيضًا. وفي بداية السّنة الثالثة مات، ودُفن بجوار السّور على حافة الزراعة، مثلما أوصى زوجته وابنته. ومن لحظة دفن "إبراهيم"، و"زكية" تنتظر يومها لتُدفن بجانبه، تَعْبر على سحنتها لحظات فرح، وهي ترى ابنتها مُبتهجة، ولحظات مرح وهي ترى حفيدها يلعب، وهو يحاول العَدْو إليها، لتحتضنه، ويحتضنها، لكنّ فرحها ومرحها سُحُبُ صيف سريعة، سرعان ما تُسْحَبْ بعيدًا، فتنقشع كسُحُب صيف القاهرة.

حسام البهاء لم يعد الطفل الصغير الغرير. مَلّ من تدليل جدته السّلطانة، مَلَّ من المبالغة في الحرص عليه، والتدقيق في طعامه، وشرابه، ولعبه، وجارية وعبد يراعيان سلامته على مدار اليوم، حتّى في نومه، جارية تبقى ساهرة بجانبه تراقبه، وتراقب ما حوله وتنتظر إنّ استيقظ فجأة، وأمر بإحضار شيء، وجد من هي تحت أمره! مَلَّ وقد وجد أنّ كلّ طلباته، ورغباته أوامر يجب أنّ تُنَفَّذَ فورًا. لا يأبه ولا يتأثر، ولا يأخذ انتباهه كلّ الذّهب والمذهبات حوله، ولا الفضّة والفضيات التي تحت يديه وقدميه. حديقة القصر الشاسعة، والخضرة، والزهور المنعشة. والسّلطانة "شمس" لا يهمها أمر كما يهمها أمر حفيدها لا يهمها مُراعاة، ومراضاة جدّ الصبي زوجها السّلطان "الأمجد"، ولا لجدّ الصبي الآخر الأمير "اليوسفي" أمير الجيوش الذي يُطفئ اشتياق جسدها، ويعمل على استقرار مُلكها، وأملاكها أما ابنتها قمر أم حفيدها الذي حجز لنفسه قلبها وعقلها، فهي بعد الحفيد!.

أوّل من في الكون هو حفيدها "حسام"، ورغبات "حسام" أوامره حتمًا تُنَفَّذ! لم تهتم "شمس" بتواجد حفيدها من "هناء". وحين أتت "هناء" مرة واحدة، ومعها ابنها الصّبي، استقبلتهما استقبالاً باردًا، فالحفيد مثل أمه، لا يزدان بالجمال المطلوب. "هناء" حكت لأمها عن تشجيعها لزوجها حتّى صار غنيًا يمتلك الديار العمرانة، والحقول الريّانة. تحكي، وتتمنّى أنّ تنال إعجاب أمّها، واعتراف بأنّها تستحقّ أنّ تكون ابنتها، لكنّ لم تهتز "شمس"، و لم تَمُنّ عليها بنظرة رضا، أو طبطبة تقدير، فقط أهدت حفيدها غير الوسيم خاتمًا ذهبيًا وحُضنًا غير حار، وابنتها "هناء" سلسلة ذهبية تنتهي بياقوتة مُتوهّجة بالحَمار. "بِنْبان" هو من احتضن ابنته،

وحفيده، وبقي معهما وقتًا طويلاً، وأعطى حفيده نخلة ذهبية في طول وعرض إصبع، فكانت هذه الهدية مع حُبّ جده أغلى ما ناله الحفيد. "هناء" لاحظت أنّ أباها في خسسان بدن، وبَهَتان نفس. وكلّ صباح يجب أنّ يأتيان إليه، ويتناولان القهوة، والفطور وهو لا يأكل إلا أقلّ القليل بتشجيع، وتوسّلات من "هناء". كلمّا توقف الكلام عن موضوع، يقول "بِنْبان" كلمتين متلاحقتين..

– "أنا تعبان. أنا زهقان."

لم تطلب "هناء" أيّ طلب يخصّ زوجها المملوك، فزوجها يئس بعد مرور سنوات، يئس أنّ ينال أية إكرامات، فصار مطلبه أنّ تمضي أيامه هادئة، بدون نزالات، وحروبات، فلم يندفع، وينضمّ لأي تكتّلات، و لم يشارك في أية مخامرات. همّة أنّ يربّي ابنه في هدوء. قبل عودتها، وأبوها يودعها قال وهو يتشنج ويمسح دموعه..

– "سامحيني يا "هناء". أمك ظلمتك وأنا شايف وساكت!"

عادت "هناء" أكثر سخطًا على أمها، وعاد الابن يحمل ذكريات طيبة لجده، وشحنات غضب، وكراهية، واحتقار لجدّته.

"حسام بن البهاء اليوسفي"، أسعد وقت عنده هو ما يقضيه مع أبيه. مرتين في الأسبوع يذهب إلى قصر أبيه وأمّه. يأتي أبوه ليأخذه، ويُصِّر ألاّ يصحبه أيّ حرس، أو حتّى أيّ عبد أو جارية. حازمًا باترًا؛ لأنه يعلم أنّ ابنه يؤيده، ويحميه من غضب جدّته. يصر ألا تصاحبهما السّلطانة

"شمس"، لها أنّ تأتي لقصره، وتبقى مع ابنتها يومًا أو يومين في الأسبوع، لكنّ لا تأتي في الوقت الذي يكون فيه ابنه معه. يريد الانفراد بابنه بعيدًا عن سطوة الجدّة. والجدة يوم من أيام زيارتها لابنتها نصفه تمضيه بعيدًا مع عشيقها "اليوسفي"، والمكان يتجدّد كلّ فترة، حرصًا من العيون المراقبة.

الشتاء برده لطيف. ملابسهما ما بين الثّقيل والخفيف. الأب، والابن كلّ على حصانه. يذهبان رأسًا لقصر "البهاء"، بدون التسكّع هنا، وهناك، فالمراقب خلفهما على بُعد. في قصر والده يبقى قليلاً مع أمّه الأميرة "قمر" التي تفرح بابنها "حسام"، وتذرف دموع الحسرة على البرود الذي يفصل بينها وبينه. لم يعد يندهش عميقًا بعزفها على العود الذي كان يُبهره. لم يعد صغيرًا. سأل والده كثيرًا، فاضطر "البهاء" أنّ يحكي له عن أمّه بكلّ صراحة، مبتعدًا عن أيّ كلمة تحمل وقاحة. "حسام" كان يحس بأنّ في أمه أمرًا غريبًا، وسمع طراطيش كلام.

دخل جناح أمه. احتضنته، وأحسّت به متغيرًا. جلس بجوارها. يريد أنّ يلومها، ويتشاجر معها، كيف تعذّب أباه، وترفضه وتفضّل عليه تلك الرجبيّة الحقيرة؟ ينظر إليها غاضبًا، ثمّ يُبعد عينيه حين تنظر إليه أمه. وأمه تحسّ بما هو فيه، وتعلم أنّ ابنها كبر، ويعرف عنها، وغاضب منها. وقت يمرّ لا هو قادر على العتاب، ولا هي قادرة على الشرح. نظر إليها مُنكسرًا، معاتبًا، ومحبًا. لم يستطع النطق إلا بكلمة..

– "ليه؟!"

لم تُجبه بكلمات. بل بدموع تسيل من عينيها، ورعشة في يديها، واهتزاز متشنّج من وجهها. قام الابن، وابتعد.

في اللّيل مع أبيه يجلسان سويًا في حديقة القصر. البرد لم يشتدّ بعد. صامتين. الولد حزين، والأب حُزنه أعمق. دقائق، وإذا برنّات عود بطيئة تتصاعد في حزنٍ شفيف. هذا عود "قمر". الرنّات تترنّح. تأسى. تبكي. تتصاعد عويلاً، ثمّ تعود للتأسّي واليأس الكاوي؛ لتعود مُصورة حزن الأنثى المطعونة، حُزن الأمّ الثكلى. بكى ابنها في حضن والده. الصّباح التالي صعد إليها "حسام". جالسة على حشيات لينة بألوان هادئة متناسقة. والمشربيات تسمح بالهواء المنعش، وأشعة الشمس الدافئة، وتبين أعالي الأشجار الباسقة، أمامها منضدة، عليها صينية معدنية واسعة، تحوي حبّات البرتقال. وقفت له مُشتاقة إليه، فأسرع يرتمي في حضنها باكيًا، وهي تربت على رأسه، وظهره باسمة باكية. حضن مُترع بالحبّ والحنان، وبأرَقْ ما في حشا الإنسان.. حبّ ما بين الأم وابنها. تناولا معًا حبّات البرتقال. قال لأمّه "أنا أحب البرتقال؛ لأنك تحبّين البرتقال"!

في قلب الليل، "رجبيّة" في بيت الجواري والعبيد، كما طلبت منها سيدتها "قمر". "قمر" حبيبتها وقد صار إرضاء ابنها وزوجها الآن أهمّ من علاقتها برجبيّة. رنّات عود "قمر" تصل "لرجبيّة" حيث هي. عزف أسى على حالها، وكأنّها تتمنّى أنّ تكون امرأة عادية لترضي ابنها، أيّ بترك "رجبيّة". صرخت "رجبيّة" صرخة فجيعة، وضربت رأسها في الجدار، فانفتح الرأس وسال الدم. آلام الخبطة، ودمها السائل أبسط بكثير من هول فجيعتها من فقد عشيقتها "قمر"!

يبقى الأمير الصغير منتظرًا الزيارة التالية لوالديه. تحزن جدّته السّلطانة، فبقدر ما تحبّه حبًا هي نفسها لا تصدّقه، بقدر ما يبتعد عنها الحفيد، وكأن

لا شيء بجدته يربطه! صار مندفعًا إلى أبيه، ثمّ أمه، ثمّ جده "بِنْبان"، ثمّ أخذ يتقرب من جده "اليوسفي"، أما هي من ربّتُه، فمرتبتها بعدهم، أو هكذا تظن! بعد كلّ ما قدمته لحفيدها من حبٍ وتدليل، وتشجيع، ووعد بأنّ يكون هو السّلطان على بر "مصر" المحروسة كلّها! رغم كلّ هذا.. يبقيها في ذيل قائمة الذين يحبّهم! بعد كلّ هذا ينتظر مرور الأيام؛ ليسرع لوالديه!.

يأتي وقت المتعة التي ينتظرها "حسام". ينطلق مع أبيه. "البهاء" وقد وثق أنّ "حسام" كبر وصار يعي ويزن المسائل.. اتفق معه رجلاً لرجل على كتمان السّر. فهو لم يعد طفلًا، ويجب أنّ يعلم. من وسط القاهرة، بعيدًا عن القصر مثل كلّ مرّة، استأجرا حمارين. ارتديا ملابس أنيقة؛ لكنّ لا تُظهر غناهما، ومركزهما الخطير. "حسام" سعيد بركوب الحمار، وبزحام الطرق والحارات. وهما على ظهر الحمارين شرب كلّ منهم سطلاً من الخروب. يستمرّا في السير، مبتهجين بحماريهما. وفي الأحياء الشعبية والتي يسكنها غالب الرعية، بدأ "حسام" يرى ما لم يكن يراه، و لم يكن يعرفه.

إنّ الناس في غالبها غلابة. بيوت مُتناثرة وسط الحقول. بيت أبيه المتواضع الواسع. دخلا، ترجلا عن الحمارين. "حسام" تذكّر "نَجِيَّة". أخذته، وأخذها بالأحضان. "حسام" يتشبث بحضن "نَجِيَّة"، كم يشتاق لحضن أموميّ لم يشبع منه بعد. "نَجِيَّة" تبكي فرحًا، و"بهاء" ينظر باسمًا. بقيت "زكية" بعيدًا. أخبرتها ابنتها بأنّ ابن زوجها سوف يأتي. من شباك

بعيد تراقب الصّبي "حسام" الأشقر كما أبيه! لا يمكن أنّ يكون هذا مصريًا، كما لا يمكن لأبيه زوج ابنتها أنّ يكون مصريًا! تراقبه.. ولد وسيم طَيب مثل أبيه، لكنّ يا خسارة، مثل أبيه يحمل سحنة المماليك.. قتلة ابنها "عَزّازي" بالجلد، وقتلة زوجها "إبراهيم" بالعَنْطْ، وكسر نَفْسَه. يحمل "حسام" أخاه "عَزيز". يُلاعبه، ويسير به هنا وهناك، وهو يستكشف البيتين، والمزرعة الواسعة. كان ولا بدّ أنّ تقابله وجهًا لوجه. سلّمت على الصّبي الأشقر بكفّ يدها في برودٍ أحرج "حسام". لكنّه احتفظ بجانب من السر.. ألاّ يخبر تلك الفلّاحة العجوز بأنّه حفيد السّلطان، والسّلطانة.

تفرش "نَجِيَّة" ملاءة قديمة، وتضع أطباق الطعام، ولا طبق قيشاني فاخر، ولا جواري يخدمن، ولا عبيدًا، ولا حرسًا يراقب من قريب أو بعيد. ولا مملوكًا عجوزًا جاشنكيرًا كلّ عمله تذوّق الطعام، فلا يكون مدسوسًا فيه سُمّ. وقبل أنّ يمدّ "حسام" يده ليتناول الرغيف الذي أمامه، أمرته "نَجِيَّة".

– "حسام. قوم هات لنا كوز ميّة من على الزير."

برهات و"حسام" ينظر لها في عدم فهم. أبوه تَوتر. لكنّ "نَجِيَّة"، وأمها لم ينتبها. "نَجِيَّة" انتبهت حينما بقي "حسام" فترة ينظر إليها بنظرة تحمل العجب، والابتسام. انحسرت سريعًا نظرة الدهشة، واتسعت الابتسامة، حتّى كادت تصل إلى الضّحك. قام نشطًا، وأتى بكوز المياه، ومدّ به يده "لنَجِيَّة" التي قالت له..

– "خلّيه جنب منك يا حبيبي."

جلس يأكل مبتهجًا سعيدًا، بأنّه فعل فعلاً مُرضيًا، إنّه فعل أمرًا خدم به أحبابه. يأكل كما لم يأكل طِوال حياته! تجشّأ، وتجرّع من الكوز، ونسي أنّه يشرب في قصره من أكواب الزّجاج المصقول الثقيل. بيومه هذا، وحبّه لعائلة أبيه الخفية، أسعد بسعادته أباه "بهاء" و"نَجِيَّة"، والطفل الصغير "عَزيز"، أمّا "زكية" فلم تعد تستطيع الفرح الخالص من المنغصّات.. كلّ فرحة عندها منْعاصة بثَكل ابنها، وفَقدْ زوجها، وبفراق قريتها، وأختها "خضرة". صارت تشتاق إلى الرّحيل.

يوم جميل انقضى سَعد به "حسام"، وعاد لقصر والديه، ليبقى مع أُمّه "قمر"، ويطلب منها أنّ تعزف له. تعزف له أمّه عزفًا رقيقًا، حانيًا. "البهاء" يبقى بعيدًا يستمع، وبدأ يحنّ، ويغفر لـ"قمر". وفي مرّة تالية جلس في نفس الحجرة معهما، فابتسمت له "قمر" ابتسامة حبٍ وغفران.

زيارة رابعة من "حسام" مع أبيه إلى بيت "نَجِيَّة". لم يخبره والده. وجد حزنًا مخيّمًا على الكلّ، وأخاه الطفل خاملاً يحس بالفقد الذي حل. ماتت "زكية"، ودُفنت بجوار زوجها. أخذه أبوه من كتفه، وذهبا إلى القبر، وقرآ الفاتحة. "حسام" يلاعب أخاه "عَزيز"، ليطلق ضحكاته، فيبعد حالة الكآبة. تجرأ "حسام" وطلب من "نَجِيَّة" أنّ تزرع عددًا من أشجار البرتقال، فابتسمت له.

– "من عنية يا ابني، ويا أخو ابني."

يعود لقصر القلعة مُنتعشًا. تعجّبت السّلطانة "شمس".. ما كلّ هذه السعادة التي تشعّ من وجه حفيدها؟، ولِمَ يسعد كلّ هذه السعادة وهو

بعيد عنها؟! تسعد قليلاً بسعادة حفيدها. تحتضنه؛ لتخفف توتراتها، وقلقها وهي تحس بأنّ الأرض تميد من تحتها، وأنّ آمالها من بين أصابعها تتسرب، وتُباد.

تُدبّر فرصة، لتنفرد بزوجها، وتشجّعه، وتدفعه، ليعاشرها فتُمتعه. بعدها تداعبه وتَهَشِّكه وتُبَشِّكه؛ ثمّ برفقٍ تُغريه بأنّ يُبعد "حفيظ السلولي" منه، أنّ يُقلشَه من منصب نائب سلطنة، ويضع بدلاً منه "كمال الدين"! "بِنْبان" على ظهره ناظرًا إلى السقف المُلَوّن. لم يفهم. ولما فهم أنّ "شمس" تطلب إزاحة "حفيظ" لم يفهم! الشّكوك التي تُشَوِّكه بعلاقة ما بين "شمس"، و"حفيظ" مازالت متواجدة، بل تكاثرت. فكيف تطلب منه "شمس" فعل الضرر على من تلوكها الألسنة معه؟ ربّما تشاجرا، ربّما. ربّما.. لكنّ لا. لكنّ ربّما.. اتخذت رجلا آخر! آه من النسوان عامّة، ومن "شمس" خاصة. يسألها عن السّبب، فلا يجد جوابًا شافيًا، و لم تُظهر له أمرًا سيئًا خافيًا. فرفض طلبها رغم إلحاحها. لم ينم سريعًا من الفرحة. فرحة أنّه قال لها "لا"! وأصرّ على "لا" رغم ما أعطته من جسدٍ، ومن ريق حلو، ورغم توسّلاتها. تقلّب، وقال للحائط..

– "حلوة قوي "لأ" دي!"

أرسلت "لكمال الدين" الداودار تُبلّغه بفشلها. لم يقتنع، وأرسل لها..

– "ما في وفاء عهد عندك، ما في تنفيذ وعد من عندي. "قمر والبهاء" مفيش عرش."

"شمس" لا تملك أذية للداودار. أحسّت بالعجز في السّلطة، والعَجَز في العمر، وبوادر ضياع أحلام ليس لها حدّ. حزنت، وحزنها أهاج أحزانًا رفضت المُضِي، وبقيت حاضرة.

إذن.. البَوَظان ينتشر، والفلتان يصير الأساس، والنّظام ما في، وصاحب العقل محتاس، وصاحب الشّهامة نادر تلاقيه. ومين يجرؤ يقول الحق يِنداس، ولا يِلقي مَن يسانده ويخاويه. يقوم تَكْبِسْ الفوضي على البلاد، وعدم البركة تَحسَّسْ بالفقر، ولو على صاحبَ السّتر. الناس تَلَقَّطْ رزقها بالفهلوة، وبالبَكش، فالنّصب زاد، والناس الجَدْ غلبهم الناس اَلرَكَشْ. الصدور مخنوقة، والنفوس مشنوقة. الضّيق من هذا الحال في ازديادٍ واستمرار هذا المنوال حقًا مُحال.

"حسام" في قصر والده ووالدته. سيجلس معهما، ويتناولون الإفطار معًا، قبل أنّ يأخذ أباه، ويذهبا إلى بيت "نَجِيَّة". بتواجد "حسام".. يجلس "البهاء" مع "قمر". يجلسان كأصدقاء فرحين بابنهما. "قمر" تطلب من "رجبيّة" الذهاب إلى بيت الجواري، والعبيد. "قمر" تخاف أنّ تفعل "رجبيّة" مثلما فعلت من قبل، أنّ تضرب رأسها في الجدار. تحبّها، وتخشى عليها من الأذية، لكن.. إرضاء ابنها "حسام" صار الأهم. تدمع عينا "رجبيّة". جوفها يشتعل غِيرة، وصدرها ينكوي بتكرار الإهانة. لكنّ "قمر" تصرّ، وهي ترجو "رجبيّة" أنّ تقدّر حالها، وواجبها نحو ابنها. تخرج "رجبيّة" من مبنَى القصر الرئيسي، وهي في غم أليم، وقلب سَقيم، وغيرة مُحرقة. كلّ يوم تتبين انتصار "حسام" عليها. "قمرً" يبرد جسدهًا

السّاخن، وتسخن أمومتها فتتقرب من ابنها، وتَسلى حبيبتها، وما زاد المصيبة مصيبة.. أنّها صارت تقبل اقتراب زوجها "البهاء" منها! لم تعد تنفر من مجّرد رؤياه، كما كانت تنفر من قبل! إنّها تحادثه.. تُلاطفه.. تبتسم له! غفرت له فَضِّها بالعنف، فالفض المؤ لم أنجب منها وحيدها وقرة عينها حسام".

في المبنى الملحق للعبيد والجواري، هذا المبنى الذي تكرهه، فهو يكسر إحساسها بالرفعة، وينسف بنيان مقامها مع الأميرة، ويسفحها سفحًا؛ لتقيم مع العبيد والجواري في السّفح. تنفرد بنفسها، وتشرب قهوتها الثقيلة. تحشر فصوص أفيون متضخّمة في جانبي فمها، وتستلقي لينساب رحيقه المخدّر في جسدها المتوتر، ينساب بكثافة، لينتشي الجسد ويتبلّد، والروح تفارقه!

في الصّباح ارتجّ العبيد والجواري رجًا، كيف يبلّغون الأميرة "قمر" انتحار رجبيّة؟. ساعة زمن ووصلت جارية من قِبل "قمر" تسأل عن سبب تأخير "رجبيّة" عليها؟ "قمر" لطمت خدّيها، وشدت شعرها حتّى انتزعت منه الكثير. مزّقت ملابسها، فصارت عارية أكثر منها كاسية. ضربت بقبضتيها على وجهها، وتوصّت بأنفها وفمها، حتّى تورمت عينها، وسالت الدّماء من أنفها، وفمها وتخلخلت سِّنة من أسنانها. تنادي باسم "رجبيّة"، وتعلن أنّها السبب في انتحارها. تنادي بصوتٍ عالٍ كامل الوضوح على حبيبتها، ونور عينيها. ابنها "حسام" يراقبها من بعيد في ذهول، هل أمّه تحبّ الجارية "رجبيّة" كلّ هذا الحب؟، هل ما كان بينهما له كلّ هذا العمق الذي يجلب كلّ هذا البكاء، والانهيار؟!

الجواري أمسكن بها، حتّى لا تضرّ نفسها أكثر من ذلك. لم تهدأ حتّى أمر "البهاء" بأنّ يعطوها فص أفيون صغير. نامت لتقوم بعد ساعتين، لتعيد الكرّة، فيمسكون بها، ويجبروها على تناول لُقيمات قبل أنّ يعطوها فص الأفيون. بقي "حسام" مع أمه أيامًا ثلاثة. يحتضنها، وتحتضنه وهي تبكي "رجبيّة"، وهو يبكي معها على حالها وليس على "رجبيّة". عاد إلى جدته. "قمر" أسبوعين ترتدي السّواد، ولا تتوقّف عن البكاء، ثمّ بدأت تتقبّل أنّ عشيقتها "رجبيّة" راحت، ولن تعود. لم تغد "قمر" تعزف على العود. لم تعد تهتم لا بملبسها، ولا بالطيب، ولا ترضى أنّ يعودها طبيب. لم تعد تهتمّ بشُجيرات الورد، وأشجار الفاكهة، حتّى شجرات برتقالها، لا تريد حتّى أنّ تراها. لم تعد تأكل كما كانت تأكل، ولا تشرب كما كانت تشرب. عادتها أمّها "شمس" كثيرًا. وفي جلسة هادئة بينهما وضعت "شمس" كفّها على شعر "قمر"، وهي تسألها بلطف..

– "ليه ما في عزف على العود؟"

– "مش قادرة أمسك العود. مش قادرة أبص على العود. جُوَّايا نِشف.!"

– "حاولي."

– "وإنت يا أمي. ليه بطلّتي ترقصي رقص بلادك، وتغنّي غُنى بلادك؟!"

عصرة ألم سريعة كالبرق، حادّة كشفرة خِنجر مزّقت أحشاء "شمس"، ووثبت خارجة، فأخطأت ثوب خروجها، فكانت على هيئة ضحك تشنّجي..

- "هاها. آاااخ على الدنيا يا بنتي. وأنا كمان مش قادرة. جُوًّايا نِشف."

- "لما نِفْسِي اكسرت يا أمّي. عودي انكسر. وكِيف أعزف على عود مكسور ميَت حِتَّة؟!"

النهارات والليالي تتسارع، وفيها البشر تتصارع، فتُحدِث ما لا تتخيّله أقوى المُخيلات، أو تتوقّعه أعبط التوقّعات."

مـاعلينــــا.

11

لم يُرسل "الداودار" رسولاً لخوند "غُزلان"، و لم يأمر عينًا له أنّ تنط عليها من حيط، لا و لم يدسّ في مخدتها، أو حمّامها رسالة منه تطلب كذا، أو تحذر من كِيت، بل أرسلت له "غُزلان" التي يأكلّها المرض، ويجففّها الحسد، ويحرقها الحقد. بعد أنّ زوّجا ابنتهما لتاجر غني، زوجها "السلولي" تفرّغ تمامًا لغيرها، وصار عنها في غِنى. هي تظنّ وقد كَوَتْها براكين الغيظ، أنّه أساسًا في حضن غريمتها "شمس"، ومهما أكدّ لها "حفيظ"، ومهما أقسم بكلّ قسم غليظ، أنّه لم يعد عشيقًا "لشمس" لا تصدّقه، أخيرًا واجهت نفسها، وقررت ما كان يعصف بداخلها.. لم يعد لديّ ما أخاف منه، ولا ما أحافظ عليه، ولا في عقلِي، ولا في نفسي طلب أبغيه، و لم تعد لديّ أيّ متعة في الحياة. جَمال وخِلصْ، وجاه وقد مَلَصْ، صِحّة وضاعت، عافية وخارت. وابنة وتزّوجت، و لم تعد تحبّ مُجالستي، حَجتها أنّني نِكدية. وزوج وِسَلاني، وأهانني بحُجّة أنّني غيور غبية.

لم تعد عندي من شهوة سِوى أنّ أفشّ غِلّي من القَدَرْ الذي خصّني بالمرض من بعد صحّة، ورماني بُقبح من بعد جمال. شهوتي أنّ أنتقم من "حفيظ"، و"شمس"، فبسببهما مرضت، وفقدت جمالي وجهًا وجسدًا. الآن أبحث عن الذي بينه وبين "حفيظ" سوء خاطر وجفوة، ومُصران حار.. الداودار. فلا كره وعداوة مشتعلة بين "حفيظ" وإنسي، مثل كمّ النار المشتعلة بينه وبين الداودار، فلتكن شعلة ناري التي أحرق بها "حفيظ" وعشيقته عدوتي "شمس" هي "الداودار" العقرب!

أرسلت مع جارية كلامًا شفاهيًا لجارية من جاريات الداودار. فحّدد "الداودار" موعدًا على ضفّة النيل، حيث تقف مركب عريضة بها دروة أنيقة. استمع لها وهو يبتسم.. هو على علم بالكثير مما قالته، لكنّها أفشت كيف كان "حفيظ السلولي" يلعن السّلطان، ويَتَمألس عليه ويسخر منه وهو سكران. لا يأتي بسيرته إلا تحت لقب "الطرطور". يقسم أنّه الأوّلى بعرش "مصر"، وليس هذا الغبي السّمين كما الجاموسة، والأتفه من ناموسة! "كمال" يبتسم.. جميل جميل جميل. ها هي خِنجره الذي سيطعن به "السّلولي" في مَقْتل قد أتى. فمرحبا بهدية الظروف. فقط عليه أنّ يكون بعيدًا، ويرسل جارية تقول فتسمعها جارية وتقول، والثالثة تقول في أذن "غُزلان".. "حفيظ السلولي" هو من أنجب "قَمر" و"صُبيح".

تلجلج "الداودار" أمام السّلطان، ومعه لفافة حُرر فيها مُلخّص قال إنّه بالِغ السرية! يطلب منه السّلطان أنّ يفضّها ويبلّغه ما بها، لكنّ "الداودار" يزيد من حركاته وخباثاته وينظر إلى الأرض، ويحرّك رأسه للجانبين في

وجل ويديه هنا وهناك، فإنّ الأمر أمرٌ جَلَل. اصطكّت ركبتا السّلطان "بِنْبان". حدس مُشَوِكُ في تلافيفه يزوم، ويكاد يصرخ..

- "إنّها "شمس". إنّه حفيظ السلولي. لكن.. ياريت يكون الأمر أنّ "حفيظ" هو اللّي دسّ السّم لي يوم طهور "صُبيح". ياريت. بس يارب بلاش "شمس" و"حفيظ" في سرير واحد سوا سوا. آه لو أنت خائني بالفعل يا "سلولي"، آه يا ويلك، ويا ويل ويلك. آه لو أنت عشيق "شمس" ياكلب. ويلك يا "حفيظ" يا "سلولي" منّي."

اقترب الداودار، وقدْم له اللّفافة. لم يمد السّلطان يده، ليستلمها..

- "قول باللّسان. لازم في خيبة ويبة. "

تململ "الداودار"، وأجاب في تشخيص متقن..

- "لكن.. لكن.."

- "لكنّ إيه يا داودار. خَلّصْني."

- "غُزلان تقول."

- "غزلان! غُزلان مِرات حفيظ. تقول إيش، وليش داودار؟!"

لم يكن الأمر هو الأمر البسيط.. مؤامرة السّم. بل الأمر هو الأدهي والأمَرّ. حكى له أولاً عن مألسات، وسخافات "حفيظ" عليه، وأنّه الأوّلى بعرش "مصر". ثمّ دخل في الغويط، وحكى عن علاقة "قمر" بحفيظ، "بِنْبان" يتشنّج، وتتقوض ضلوعه، ثمّ تنهمر دموعه. لم يحكِ له "الداودار" بقية المصائب، تركها "لغُزلان" حين تأتي بنفسها، فلا يكونَ هو المفشي بما سيقضي على "بِنْبان".!

في نفس المساء أتت "غُزلان" على جملٍ، ومرت من باب جانبي. في مبنى متطرّف. كان السّلطان يقف في فسحة مُضاءة بالفوانيس إضاءة خفيفة. يقف بملابس عادية ليس فيها من البهرج السّلطاني، وإن كانت غالية أنيقة رقيقة. دخلت "غُزلان".. ليست "غُزلان" التي يعرفها، و لم يرها من سنوات. نحيفة ضعيفة. وهي رأته أيضًا، وقد خفّ شحمه وانحنى ظهره، وتهدّلت ملامحه. اقتربت وركعت عند ساقيه..

– "مولاي بِنْبان. "

– "قومي خاتون غُزلان. "غزلان" احكي لي كلّ أسرار بدون لف ولا دوران، وإلاّ الويل ليكِ وليهم؟"

في كلماتٍ باترات حكيت له "غُزلان" أعاصيرًا كانت مكتومة في مصارينه، فانطلقت تعصف، وتقصف. بدأت بالكلام الفارغ والمألسة، ولقب "الطرطور"، ثمّ أوّلوية "حفيظ" في العرش. لا يسمعها "بِنْبان"، يتعجّل ما سيحرق كبده، ما بعد هذا. ثمّ دخلت "غُزلان" في نار جهنم. تحكي ما بين "حفيظ"، و"شمس". الويل الويل الويل. الويل من زلازل وأعاصير. ليس فقط كما كان يخشى أنّ زميله، وصديق عمره "السلولي" عشيق زوجته، بل الأنكى أنّ "حفيظ السلولي" هو أبو "قمر"، و"صُبيح"! "قمر وصُبيح" ليسا من ظهره هو، بل من ظهر "حفيظ السّلولي"! امتقع وجه "بِنْبان"، وصار قاتمًا. يرتعش.. ينتفض يضرب كفًا بكف، ثمّ بكفيه على صدره، ثمّ بكفيه على صِدغيه. سحنته تضطرب تغضنًا وهو يجزّ على أسنانه، ثمّ يرفع رأسه ويشهق، ويمسك نفسه من الصراخ. يرفع يديه

لأعلى وغضبًا عنه يصرخ صرخة وجع بعمق بئر..

- "آآآآآه."

يلتفّ مُعطيًا ظهره لغُزلان، ويحني رأسه، ويخفيها بين راحتيه ويركع ويتشنْج وجسده يرتج بزلازل تضربه في قلبه وكبده، وتطيح بمصارينه وأعاصير ترجّه يمنة ويسرة، وبراكين من أسفله تُجبره أنّ يشبّ على ركبتيه، ليهبط ليشب ليهبط. لم يشعر بيدي "الداودار" وهي تربت على كتفه. وقف والتفت، وكفيه تضغطان على صدغيه. أمامه "الداودار"؛ لكنّه لا يبحث عن "الداودار". شاهد "غُزلانَ"وهي تتسرّب وقد قاربت على الخروج، فزعق فيها..

- "استنّي قحبة."

توقفت "غُزلان"، والتفت وهي تنتظر الموت. تخاف آلام طعنه سيف، أو خنجر، أو حتّى ضربه فأس، لكنّها مستعدة، فكلّه يهون مادام نفس الطعنَة، أو الضّربة سوف تنال من "السّلولي"، وتُنهي حياته، أو فلتنته حياته مُعلّقًا من رقبته في بابٍ من أبواب القاهرة. أو يموت مُتعفنًا في سجنٍ كالزرائب. لا يهم أنّ يقتلها الآن "بِنْبان" الخائب!

بيديه أبعد "بِنْبان" الداودار من أمامه في خشونة، وتقدّم من "غُزلان". ينظر إليها في قرف، وغضبٍ دموي. ترتد هي فاندفع عليها "بِنْبان" بجسده الضخم فدفعها للخلف؛ لترتطم بظهرها على الجدار، وتنحشر بين ثِقل مِرْزَبَّة لحم وعظم "بِنْبان"، والجدار الحجري خلفها هو السّنديان.

تشهق محصورة و"بِنْبان" مازال يضغط عليها، ويلكمها بقبضتيه في وجهها، وبركبتيه يضربها في أماكن محسوسة، وهو يخور خوار جاموسة. ثمّ لم يشعر بشيءٍ، ولم تشعر هي بشيء. أُغمي عليهما معًا. نقل السّلطان إلى قصره، وأتى من يطببه. وبقيت "غُزلان" ملقاة في مكانها تحت الحراسة لحين ما يفيق السّلطان، ويقرّر ما يكون. ولما أفاق كان بجواره "الداودار". دموع الذل تنهمر من "بِنْبان"، و"كمال الدين" العقرب يواسيه، ويردّد كلمات جوفاء ليقويه. سأل عن السّلطانة "شمس". قال العقرب..

– "في جناحها قلقانة عدمانة. انتقام منها يريحك، ويريح مماليك سلطان."

– "وإيش دخل المماليك كمان؟"

– "ياما خدت من حصّتهم يا مولاي."

– "صحيح. صحيح."

– "وغُزلان؟"

– "منتظر أوامر مولانا السّلطان الأمجد "بِنْبان"."

– "آآآه."

– "العمل يا سلطان البلاد. "حفيظ" زوجها، وقبل ما يعرف ما جرى، ويعمل شغلانة، لازم احنا بسرعة نتصرّف."

– "احبس سلطانة."

- "وغُزلان؟"

- ".."

- "عندي فكرة سّلطان."

- "قول داودار."

- "واحبس غُزلان مع سّلطانة في بيت واحد. يتصرفوا مع بعض هاها."

- "كلام معقول داودار. احبس "شمس" مع "غُزلان"، وبعدين اقتل الاتنين. نفذ أمر داودار. نفذ أمر حالاً داودار."

- "وحفيظ السّلولي بسرعة البرق نقبض عليه."

- "بسرعة البرق داودار."

- "أمر مولانا فوق راس الجميع. "

- "داودار."

- "تحت أمر مولانا "بِنْبان"."

- "حفيظ السلولي يشوف عذاب ما شافوش بني آدم."

- "ولا بني آدم يا مولاي."

- "داودار.. كِيف نقتل حفيظ؟. توسيط.. خنق.. شنق.. حرق؟"

- "اللّي تشوفه مولانا."

– "وإقطاعاته.. وقصوره.. كلّ، كلّ، كلّ ما عنده يتحرّم منه داودار."

– "أمرك يُنفّذ."

– "مماليكه قبل البيات يكونوا في شتات. من يتلامض اقطع رقاب فورًا داودار."

– "أمر مولانا يُنفذ فورًا."

– "داودار كمال الدين."

– "نعم مولانا! أؤمر تُطاع يا سّلطان بِنْبان."

– "إنت من اللحظة دي نائب سّلطان داودار."

ابتسم "الداودار" العقرب! فرح فرحة طاغية. في لحظة لا تُقاس أحبّ السّلطان "بِنْبان"! لماذا؟ لا يعرف، ولم يفهم. لم يحبّ من قبل لا سّلطانًا، ولا أميرًا، ولا مملوكًا، غير أسرته لم يحبّ. حتّى "عز الدين" نقيب التجار وزميله في المؤامرات.. لم يحبّه، ولن يحبّه. لكنّه فجأة أحب "بِنْبان"! لقد أناله مطلبه.. نائب السلطنة.

– "تشكرات كثيرات سّلطان البلاد وحاميها وسيدها، وتاج راسها."

– "نائب سّلطان كمال الدين."

– "أمر مولاي."

دموع مِدرارة تسيل، وتُغرق شاربه وذقنه.

- "أنا مش خايف على نفسي. أنا خايف كتير على "قمر"، و"هناء"، و"حسام"."

- "ليه الخوف يا مولاي؟ كعبنا عالي على الأعداء."

- "قمر بنتي أنا، مهما قالت غُزلان. عايز وعد منك."

- "تؤمرني يا مولاي. فضلك عليّ لن أنساه."

- "مهما يكون. تكون إنت تخاف كمان على أوّلادي نائب سلطنة."

- "اطّمن يا مولاي. أوّلادك أوّلادي يا مولاي بِنْبان."

- "طيب وشي تاني.. إنت بنفسك تبلّغ أوّلادي بحكاية وِسخة عن شمس وحفيظ."

- "يحصل يا مولاي."

- "ويكون قبري في الجامع بتاعي."

- "حيكون إنّ شاء الله يا مولاي."

- "فيه اطمئنان على بناتي، وحفيدي.. خلاص. نفسي تطلب من ربنا شيء واحد.. الموت. "

"حفيظ السلولي" احتار في اختفاء زوجته "غُزلان"، من بعد أيام من غرابة أحوالها، لا يعلم إلى أين ذهبت، وما الذي في بالها. لم تصطحب أيًا من جواريها، ولا من عبيدها. لقد هدّدته كثيرًا، فهل اختفاؤها فيه تنفيذ لتهديدٍ سابق ووعيد؟ أسرع على حصانه إلى القصر الذي تزوّجت

فيه ابنتهما. لسرعته، ولهوجته لم يصحبه سوى مملوكين من مماليكه. وعند ابنته علم القصد.. ابنته لا تعلم يقينًا، لكنّها ألمحت بأنّ أمها خلال مرّة من مرات شكواها من أبيها، أنّها تفكّر في زيارة "الداودار"، لإفشاء أسرار. صرخ "السّلولي" غيظًا، وأطلق لعنته على "غُزلان"، وعلى جميع النسوان بما فيهنّ ابنته. أسرع عائدًا وخلفه المملوكين الحارسين.

قبل تحرك "السّلولي"، كان "الداودار" على حصانه وسط عددٍ من فرسانه، متّجهين إلى معسكرات الجيش على تخوم صحراء "الريدانية" حيث الأمير "اليوسفي". لا وقت لاستدعائه. لا شرب قهوة، ولا جنزبيل، ولا أهلنات، ولا سهلنات، فالأمر خطير وبيل، وربّما الدائرة تدور علينا إنّ لم ننفّذ ما نرتئيه الآن. "اليوسفي" وافق بدون لفّ ولا دوران. "حفيظ السلولي" يتم القبض عليه، ونبحتر مماليكه فورًا. توّا تخرج العسكر للتنفيذ، وتعلمهم أنّ أكياس الذّهب تنتظرهم، ونسبة من التحفّظ على ممتلكات "حفيظ".

"شمس" في رعُب، وتسرّبت منها العافية. لا تعرف من أين سوف تأتيها الكافية. العبيد والجواري من حولها عيونهم زائغة، وألسنتهم مُتلجلجة، وحركاتهم، وسكناتهم مُتدربكة! لكنّ لا أحد منهم يقول ما يسمعه من همسات خبيثات ستنتهي بنكبات. "شمس" صفعت جارية خائبة، وهدّدتها بالقتل، صرخت الجارية رعبًا..

– "خاتون "غُزلان"، والداودار مع السّلطان في مكان كان خلوة بينك وبين نائب سّلطان "سلولي" وأمير الجيوش "اليوسفي". وفي كلام كتير، مش كويس يا سّلطانة.!"

بعد المغربية أتى ثلاثة خصيان، وبدون استئذان دخلوا جناح السّلطانة. أمسكوا بها في قسوة، وخلعوا ملابسها، وحتّى لباسها، نزعوا عنها ذهبها ومجوهراتها، وتحسّسوا كلّ منحنيات، ومستخبيّات جسدها، حتّى لا تكون قد دسّت لا جوهرة، ولا قطعة ذهبية ولا حشوة سمية. وضعوا عليها جلبابًا من جلابيب الجواري، وهي ترتعش رُعبًا ومهانة! كلّ هذا وهي فيَ حالة استكانة، وعدم تصديق لما يجري، ورعب لما سوف يجري. اثنان أمسكوا بذراعيها، واقتادوها حافية وكبيرهم الثالث خلفهم يسير بعنطزة قائد خطير.

الجواري والعبيد في الطرقات ينظرون للموكب الغريب في دهشة. والبعض شامت فيمن كانت تحتقرهم، وتهينهم، والبعض مشفق. "شمس" عيناها ذاهلتان وخطواتها مضطربة. مفجوعة مشدوهة. تنظر للقابضين عليها، ولمن حولها غير مُصدّقة. وحين تعجز عن السير يحملانها من الجانبين حملاً، فلا توقّفًا ولا كلامًا. خرجوا بها من القصر. الظلام خيمة لا تُظهر سوى بعض الفوانيس المتناثرة على الجدران، وشعلات بعيدة تتراقص كألسنة الشيطان. قدماها الحافيتان لا تصلان إلى الأرض. من ذراعيها العبدان يحملانها حملاً، فلم يعد بها قوة على السير. تجهش بالبكاء وإن ارتاحت قليلاً، حين توجّهوا بها إلى الركن المخصّص لسجن الأمراء، وكبار الشأن.

رُكن له امتيازات مثل قِلّة الفئران، وشعاع ضوء، والطعام أقلّ سوءًا. في الداخل ممر مظلم إلاّ من شعلاتٍ متناثرة. باب خشبي ثقيل يفتحه حارس ضخم. يدفعانها للداخل، ويُغلق الباب خلفها بصوتٍ صريخ

كالزئير. فسحة متوسطة بها مِصباح واحد نوره ضعيف، كُوة عالية تدخل الهواء بقدر خفيف. علىَ الجانبين سريران قبيحان، وعلى اليمين باب صغير عرفت بعدها أنّه بابِ الكنيف. في الأمام قُلّةَ مياه. تقدّمت لتلقي بنفسها على سرير اليمين، فتبيّنت أنّ عليه امرأة نحيفة مُستلقية على بطنها. توقّفت، فاعتدلت المستلقية لترى من التي حُبست معها. تبيّنا أنفسهما.. "غُزلان" و"شمس"!

"غُزلان" رغم آلام جسدها من ضربات السّلطان، وثبت صارخة، وأمسكت بشعر "شمس". فصرخت "شمس" وهي تتشبّث بشعر "غُزلان". وابتدأت معركة النّسوان. صراخ يتعالى وسُباب يتوالى. وقوع على السّرير، ثمّ على الأرض. وأحد الحارس يتنصت على الباب، ويبتسم، فهو المتكفّل بإبلاغ السّلطان بما يحدث بين الغريمتين الحاقدتين، ليشفي حقد السّلطان عليهما معًا.

"حفيظ" حصانه يسرع به، وخلفه الحارسان. القلق يُهريه، والرّعب مما سوف يحصل له يكويه. على ضفة بِركة يسرعون، ولا يبالون بالناس التي تفزع، وتقفز هاربة على الجانبين، حتّى لا تدهسهم الخيول. إذا بفرقة فرسان تعترض طريقهم! على يمين "حفيظ"، والفارسين سور عالٍ لقصر من قصور الأمراء. وعلى يسارهم البحيرة وأمامهم الفرسان. توقفوا. وقع حوافر خيل خلفهم. نظروا خلفهم.. فرسان آخرين مقبلون. سقطوا في كمين، ومستحيل أنّ يكون الكمين إلا تابع "لكمال الدين".

زقاق ضيق بين سورين لقصرين. نغز "حفيظ" حصانه، واندفع ليهرب من هذا المنفذ الضيق، وخلفه حارساه. مطاردة من خلفه، والتفاف من

أمامه. كلّ هم "حفيظ" أنّ ينفذ من هذا الكمين ويصل لقصره؛ ليحتمي بمماليكه وعدد من الأمراء الكبار الذين يميلون له ضد "كمال الدين". أدرك أنّ الكمين لا يقصد قتله، بل أسره، فهم لا يهجمون عليه، وعلى حارسيه. اندفع سريعًا، لينفذ من بين ما لا يقل عن عشرة فرسان يسدّون على مخرج الزقاق. بسيفه يضرب في دروع عددٍ منهم، واخترقهم، وصار قاب قوسين أو أدنى من الإفلات. وثب عليه فارس من الجانب، وأمسك بيمينه، وأمسك من على شماله بلجام الفرس. صهل الفرس، وارتجّ لا يدري ما يفعل. تكالبوا عليه، ونزعوا منه سيفه وأمسكوا به، وقيّدوا يديه خلف ظهره. حارساه تم قتلهما بسهولة.

قصر "حفيظ السلولي" دهمته في نفس الليلة مائة من جيش "اليوسفي". أمرٌ يُنفّذ فورًا فهو أمر سّلطان البلاد. مماليك "حفيظ" تمّ توزيعهم على كبار الأمراء فورًا. التنفيذ حالاً بالاً، ومن يُكثر الكلام تُقطع رأسه توًّا.

في ممرات القلعة "حفيظ" في حالة يُرثى لها. يسير عاري الرأس، يديه مربوطين خلف ظهره. لا سيف ولا خنجر ولا عمامة على الرأس. حوله على خيولهم مماليك من الحرس السّلطاني يقودانه. تأكّد ما يجول بظنّه، وهم يقودونه في ممرٍ يصل إلى بيت المملوك المنزوي الذي كان يضاجع فيه "شمس"! يدخل البيت وقد أضيء جيدًا. في نفس الحجرة التي خُصّصت سابقًا له و"لشمس" وجد السّلطان جالسًا على جانب نفس السّرير! دفعوه ليسقط راكعًا تحت قدمي السّلطان. مال بجذعه، وأحنى عنقه حتّى لامس وجهه خُفّ "بِنْبان". باس زوجًا الخُف بوسات متواليات، ثمّ رفع جذعه

وبقي في وضعه جالسًا على ركبتيه. رفع رأسه ينظر إلى "بِنْبان" الذي ينظر بعيدًا عنه..

– "مولاي السّلطان بِنْبان. جرَى إيه؟ أنا عملت إيه علشان تبهدلني كلّ البهدلة دي؟!"

نظر إليه السّلطان "بِنْبان" بوجه جامد، وعينين محايدتين..

– "حفيظ السلولي. صديق قديم، وزميل قديـ يـ يـم."

– "طبعًا يا بِنْبان."

انقلب وجه السّلطان إلى الغضب الجامح..

– "بِنْبان؟! أنا سيّدك السّلطان "بِنْبان" يا كلب."

– "أعتذر. أعتذر يا سّلطان بِنْبان. أعتذر يا سيدي."

– "حفيظ.."

– "أيّ نعم يا مولاي. يرضيك سّلطان تهزأ صديق قديم، ويخلوه عِفش كلّ هذه العَفاشة سّلطان؟!"

بِنْبان يلكم السرير بقبضتيه..

– "تنام مع "شمس"! هنا. وفي كتير سراير تاني!"

– "مولاي!"

– "من زمااان. من أيام هيّ بنت يا حفيظ؟!"

– "لا. لا."

– "وبعد جوازي من "شمس". لك أنت أيام الولادة، وأنا أيام التحاريق حفيظ سلولي؟!"

– "لا. كلام إيه دا مولاي بِنْبان؟!"

– "كمان قمر بنتك؟! آآآخ."

– ".."

يقف "بِنْبان"، ويركل "حفيظ" في صدره، فيزوم "حفيظ" من الركلة وهو يقع على ظهره. يقوم بصعوبة تعبًا من الرّكلة ومن يديه المربوطتين. "بِنْبان" يسير هنا وهناك، و"حفيظ" يتابعه خافض الرأس محني الظّهر ذليلاً.

– "صُبيح ابنك أنت حفيـ يـ ظ! مش ابني أنا سلولي. آآآخ. ويوم موته تبكي معي، وتلطم معي! كنت أنا حمارًا. فاكر نفسي أبكي على ابني. لكنّ إنت بكيت بحسرة بجدّ "حفيظ"، "صُبيح" كان ابنك إنت، ومات!"

– "الشيطان شاطر يا مولاي."

– "إنت الشيطان. "شمس" عشيقتك الشيطانة."

– "العفو يامولاي."

– "إنتَ اللّي حشيت طعامي بالسّم؟"

– "أبدًا. أبدًا أقُسم بالله يا بلبـ .. ياسّلطان."

– "أنت والشيطانة "شمس". تدبّروا مملوك خاصتك. يركب "قمر" علشان تخلّف حسام!!"

– "آآآآه. آآآآآه."

– "آآآخ. آآآآآآخ ياربّي. أعمل فيك إيه يا حفيظ؟"

– "العفو يا مولانا."

– "وسُم يوم طهور "صُبيح". إنت اللّي وَزّيت؟!"

– "أقسم باللـه أبدًا. دا أكيد الداودار."

– "إيـ يـ يه. انتقامي منك يكون إيه يا حفيظ؟"

– "العفو؟"

– "عفو! عفو يا حفيظ؟! لا. لا "حفيظ سلولي". شيطان له جهنم. على كلّ حال.. داودار، آه داودار سابق، ونائب سلطنة الآن. "كمال الدين" حَيْسَوي لك عذاب ما شافه بني آدم."

– "العفو يا مولاي. العفو يا بِنْبان. سنين سوا سوا. أكلنا سوا، شربنا سوا اتعلّمنا اللعب بالسيف سوا، ودخلنا معارك سوا. نسيت سّلطان؟. العفو يا سيدي."

– "مفيش عندي غير "هناء". هناء بنتي. شكلي. "شمس" عشيقتك. "شمس" شيطانة حرمتني حتّى من "هناء"."

– "العفو يا مولاي، العفو يا سيدي."

– "خدوه حرس. خدوه، وعذّبوه عذاب يكويه ويريح كبدي. عذبوه شهرين طوال، لا تلاتة شهور طوال طوال قبل ما ينقتل. خدوه حرس."

يسحبون "حفيظ السلولي"، وهو يحاول التملص، والتخلّص منهم. يقعد أرضًا فيسحلونه من قدميه بكلّ قسوة، ويديه على الأرض ينجرحا، ولا يحسّ بآلامهما. عقله، وقلبه في العذاب الآتي. مستمر في الصّياح، طالبًا العفو من السّلطان "بِنْبان". يعودون به في طرقات القلعة. يرجوهم أنّ يتركوه ليقف. يسير بينهم، وهم ممسكون به من الجانبين إلى السّجن. وعلى الباب كان نائب السّلطنة الجديد "كمال الدين" ينتظر فرحًا مرحًا. أوقفوا "حفيظ" أمام "كمال الدين". "حفيظ" ينظر في غلّ إلى "كمال الدين". يعلم "حفيظ" أنّه لن يرحمه، فلم يستجديه.."

– "داودار كمال الدين."

– "لا. أنا نائب سلطنة "كمال الدين"."

– "ولو يا نائب سلطنة. الأيام دواليك، وزي ما لَفّتْ بيَّ حَتْلِفّ بيك."

– "هاها. عاقل "حفيظ سلولي" عاقل تمام، لكنّ لو إنت عاقل تمام، كان يكون دا حالك يا حفيظ؟"

سحبوا "حفيظ" يمرّون به على كلّ جوانب السجن. لا هو حجرات، ولا هو ساحات. بل من سوئها وفظاعتها، وكأنّها كهوف بشعة في جبل أبشع. طافوا به على كلّ هذه الكهوف ليرى أنواع التعذيب، فهنا جلد، وهنا فك عظام، وهنا تفتيت عظام. وهنا سلخ وهنا نفخ وهنا مغطس رخامي للتغريق. وهنا كلابات متدلّية من السقف، والضحايا كأنّهم

ذبائح مُعلّقة من أياديهم، وأرجلهم، والسياط والعصي تنهمر عليهم. وهنا الكلاب تهاجم بعض المربوطين بالحبال ساقطين أرضًا، وتنهش لحومهم، وتقرقش عظامهم. وهنا تسخين الطاسات، فتحمّر من النار، ويلبسونها على أدمغة المساكين، لتشعل شعورهم، وتسلخ جلد فروة رؤوسهم.

وبعد السياحة، ومشاهدة كلّ ما لذّ وطاب من إبداعات التعذيب، وامتلاء جوفه، ومصارينه بكلّ هذه التأوهات الباكية المتسوّلة للرحمة، والتوّسلات، والصرخات غير المجدية، وأنهار الدموع وبحور الدماء. أوقفوه رغم تخلخل ركبتيه، وزوغان عينيه. قالوا له بكلّ بساطة وصراحة.. "السّلطان بِنْبان، ونائب السلطنة "كمال الدين" تركا لك أنّ تقرّر ما تختاره من أنواع العذاب".! فلم ينطق "حفيظ".. سقط أرضًا مشغيًا عليه. جرّوه على الأرض من ساقيه مرة أخرى، حتّى باب سجن الأمراء، وذوي الشأن، فما فعلوه كان لزيادة الإرعاب، لكنّ "حفيظ" يبحث له نوعًا جديدًا من أنواع الحساب. رشّوا على وجهه كبشة مياه، وأحدهم صفعة صفعات قوية، فأفاق.

وهم يمرون به على أبواب المحابس، وقفوا به أمام بابٍ مُعين. وقال أحد الحراس..

- "سجين حفيظ سلولي. هنا محبوس زوجتك مصون "غُزلان"، ومعاها عشيقتك مصون "شمس"."

بُهت حفيظ. صاح الحارس..

- "يا شمس. يا غُزلان. اسمعوا يا نسوان. معانا "حفيظ السلولي". حياخد محبس جاركم الحيط في الحيط."

أتاهم صريخ "غُزلان"..

– "حفيظ يا كلب. انتقمت منك، ومن "شمس" يا خسيس!"

"حفيظ" بصوت مرتعش..

– "طول عُمرِك عبيطة يا "غُزلان". العقرب هو اللِّي انتقم مننا كلنا."

انقطع سباب "غُزلان"، فقد شبت جولة ثالثة في العِراك بين الغريمتين. وعلا صُراخهما وسُبابهما. وأُدخل "حفيظ" في المحبس المجاور.

وحتّى يقرر السّلطان، أو نائب السّلطنة "كمال الدين"، نوع العذاب الذي يليق بحفيظ السلولي، بعث إليه السّلطان بأكل من مطبخ الحراس، فرده "حفيظ"، و لم يأكل منه شيئًا، وأظهر الحنق، فقال "كمال الدين"..

– "مولاي.. حفيظ بيّن لينا كِيف نعاقبه عقاب ما شافوش بني آدم من قبله!"

– "كِيف نائب سلطنة؟ آه.. تجويع، وتعطيش لحدّ الموت."

– "حَاجة زي كده."

– "يا سلام على دا كلام. صح. صح نائب سلطنة. غلّ في قلبي. غلّ في كبدي. نفّذ عقاب نائب سلطنة."

الصباح قلاقل في البلاد، وتوجّس من العباد. "كمال الدين"، و"اليوسفي" أسكنا مائة مملوك من أتباعهما في مسجد السّلطان "حسن"، ومائة آخرين في مدرسة "الأشرف شعبان" القريبان من القلعة. وتوزّع جيش "اليوسفي" في تجمّعات على أبواب القاهرة. و"الألباني" صار مُستعدًا تمامًا بالحرس السّلطاني. ففي خلال أيام سيكون القدر قد قرّر من هو السّلطان القادم.

تقلقلت الرعية من عِظَمْ البليّة. الناس رايحين جايين، لاعنين الغُز وأتباع الغز من المصرية المَنافقين، الكثير منهم عَوَّل على الفرار، والهجاج حين اصطدام عسكر المماليك المفترية، فالبلاء سيكون أيضًا عليهم، وهم غلابة لا ليهم لا في الطور ولا في الطحين. الشيوخ الطيبين تمّ عزلهم، وأعادوا التابعين الخانعين. الفلاّحين زرافات زرافات، نازلين القاهرة هربانين من قراهم، وغُلب قراهم الأغلب من المدن. !

من قصر "البهاء اليوسفي" حصانان عليهما "قمر"، وابنها اليافع "حسام" يتجهان إلى القلعة. "قمر" تريد الإسراع، و"حسام" يشفق عليها من الوقوع، فهي لم تتعوّد على ركوب الخيل. يدخلان القلعة ويتجّهان إلى القصر. يصعدان سريعًا حيث جناح السّلطان. الباب مفتوح، والسّلطان "بِنْبان" جالس أرضًا، وظهره على الحائط، وخلفه مشربية عالية يتسرّب منها الضوء، فيلقي ببقع منه على أعلى ظهره ورأسه العارية. دخلا عليه، فوضع وجهه بين كفّيه، وأجهش باكيًا. كهل ضعيف لم يعد سمينًا كما كان. شعره وكأنّ نثرات من الملح، والفلفل نُثرَت عليه. على ركبتيهما أحاطاه، واحتضناه يبكيان معه. "قمر" تناديه أبي "بِنْبان"، و"حسام" يناديه جدي "بِنْبان". يبكون معًا، و"قمر"، و"حسام" يؤكّدان "لبِنْبان" أنّه أبوهما، وجدهما مهما قِيل، وقال، فيزداد بكاء "بِنْبان" وهو يحيطهما بيديه، ويقبّلهما، ثمّ يجعر باسم "هناء". يهدأ قليلاً، فيسأل..

- "فين البهاء اليوسفي؟"

- "كمال الدين قال أفضل لا يأتي معنا."

- "كمال الدين حمار. "البهاء" "اليوسفي" يأتي فورًا."

الأربعة ووسطهم أطباق طعام لا يأكل منها أحد. السّلطان "بِنْبان" يسأل..

- "البهاء. إنت زعلان من قمر؟"
- "أنا مش زعلان، كنت زعلان."
- "قمر.. زعلانة من البهاء."
- "اللِّي راح راح. هو جوزي، وأبو ابني."
- "ياسلام على عقلك يا قمر. ياريت أمك كانت طيبة زيك. "البهاء".. علشان خاطر ربنا. خللِّي بالك من قمر."
- "في عِنيِّة يا مولاي."
- "أبوكَ أمير مخلص. اقف معاه، علشان يكون لك حاجات كتيرة في بر مصر."
- "أبويا من أخلص أمرائك يا مولاي. لكن.. لكن.."
- "إيه يا البهاء؟"
- "هو حاول إنِّي أكون معاه في المشاكل والمعارك الدايرة، لكن.. لكن.."
- "لكنّ إيه؟، قلت له إيه؟"
- "أنا مليش في الحاجات دي."
- "مفيش تفكير في عرش مصر يا البهاء؟"
- "أبدًا يا مولاي. أنا عايز أكون بعيد. وكمان.. وكمان "قمر" عايزة تكون بعيد. عايزين نربي "حسام" في هدوء لا نقتل حَدْ، ولا حَد يِقتلنا. وكمان.. كمان عندنا دنانير كفاية."

تقلقلت الرعية من عِظَمْ البليّة. الناس رايحين جايين، لاعنين الغُز وأتباع الغز من المصرية المَنافقين، الكثير منهم عَوَّل على الفرار، والهجاج حين اصطدام عسكر المماليك المفترية، فالبلاء سيكون أيضًا عليهم، وهم غلابة لا ليهم لا في الطور ولا في الطحين. الشيوخ الطيبين تمّ عزلهم، وأعادوا التابعين الخانعين. الفلاّحين زرافات زرافات، نازلين القاهرة هربانين من قراهم، وغُلب قراهم الأغلب من المدن.!

من قصر "البهاء اليوسفي" حصانان عليهما "قمر"، وابنها اليافع "حسام" يتجهان إلى القلعة. "قمر" تريد الإسراع، و"حسام" يشفق عليها من الوقوع، فهي لم تتعوّد على ركوب الخيل. يدخلان القلعة ويتجّهان إلى القصر. يصعدان سريعًا حيث جناح السّلطان. الباب مفتوح، والسّلطان "بِنْبان" جالس أرضًا، وظهره على الحائط، وخلفه مشربية عالية يتسرّب منها الضوء، فيلقي ببقع منه على أعلى ظهره ورأسه العارية. دخلا عليه، فوضع وجهه بين كفّيه، وأجهش باكيًا. كهل ضعيف لم يعد سمينًا كما كان. شعره وكأنّ نثرات من الملح، والفلفل نُثِرَت عليه. على ركبتيهما أحاطاه، واحتضناه يبكيان معه. "قمر" تناديه أبي "بِنْبان"، و"حسام" يناديه جدي "بِنْبان". يبكون معًا، و"قمر"، و"حسام" يؤكّدان "لبِنْبان" أنّه أبوهما، وجدهما مهما قِيل، وقال، فيزداد بكاء "بِنْبان" وهو يحيطهما بيديه، ويقبّلهما، ثمّ يجعر باسم "هناء". يهدأ قليلاً، فيسأل..

– "فين البهاء اليوسفي؟"

– "كمال الدين قال أفضل لا يأتي معنا."

– "كمال الدين حمار. "البهاء" "اليوسفي" يأتي فورًا."

الأربعة ووسطهم أطباق طعام لا يأكل منها أحد. السّلطان "بِنْبان" يسأل..

– "البهاء. إنت زعلان من قمر؟"

– "أنا مش زعلان، كنت زعلان."

– "قمر.. زعلانة من البهاء."

– "اللِّي راح راح. هو جوزي، وأبو ابني."

– "ياسلام على عقلك يا قمر. ياريت أمك كانت طيبة زيك. "البهاء".. علشان خاطر ربنا. خللّي بالك من قمر."

– "في عِنَيّة يا مولاي."

– "أبوكَ أمير مخلص. اقف معاه، علشان يكون لك حاجات كتيرة في بر مصر."

– "أبويا من أخلص أمرائك يا مولاي. لكن.. لكن.."

– "إيه يا البهاء؟"

– "هو حاول إنّي أكون معاه في المشاكل والمعارك الدايرة، لكن.. لكن.."

– "لكنّ إيه؟، قلت له إيه؟"

– "أنا مليش في الحاجات دي."

– "مفيش تفكير في عرش مصر يا البهاء؟"

– "أبدًا يا مولاي. أنا عايز أكون بعيد. وكمان.. وكمان "قمر" عايزة تكون بعيد. عايزين نربي "حسام" في هدوء لا نقتل حَدْ، ولا حَد يِقتلنا. وكمان.. كمان عندنا دنانير كفاية."

– "عين العقل. ياريت كنت اخترت البعد عن الدّم أنا كمان."

"البهاء"، و"قمر"، و"حسام" نظروا لبعضهم. ثمّ تكلمت "قمر" برقة لأبيها..

– "حتعمل إيه مع شمس. أمي؟"

– "انتقامي منها فظيع هي وعشيقها حفيظ."

– "شمس أمِي. وجدة "حسام". السّماح يا مولاي. وحتى أختي "هناء"، بنتك اللّي ظلمتها أمها، مش حيهون عليها قتل أمها. مولاي. أبويا الطيب. خفف شوية من قرار قتلها. علشان خاطرنا كلّنا. "بِنْبان" إنت أبونا وجدنا.

عاد للبكاء، فبكت "قمر"، وبكى "حسام". وبعد ترجّي كثير وتوسلات أكثر، وافق السّلطان على نفي "شمس" إلى بلاد أتت منها.. بلاد "السّهول الثلجية" والبحيرة البحر، تُنفى ولا تحمل معها إلا كيس ذهبٍ واحد. لتعود فقيرة كما جاءت، ولا تستفيد من جشعها، وتجميعها للذهب والأراضي الزراعية والقصور. تُنفى لتموت هناك، ولا تُدفن في القبر الذي شيّدته في جامعها بجوار مدفن ابنها "صُبيح".!

"ليلاً.. السّلطان "بِنْبان" متنكرًا مع حارسين فقط يزور جامعه. يلحق بصلاة العشاء، ويقف في الصّف الأخير. يبتعد المصلون، فيتوجه "بِنْبان" إلى حجرة جانبية. مدفنه. قبره الرّخامي الذي ينتظره. يقف أمامه حائرًا.

يلفّ دورتين حوله. يجلس أمامه. دموعه مِدرارة، وظنونه محتارة. ما هذا الذي جرى له؟ وما هذا الذي سيجري عليه؟

رغم أنّ كبار التجار من شِلّة نقيب التجار "عز الدين"، رغم أنهم ميسورو الحال بالجامد، وقصورهم ملعلعة بكلّ ما يسر ويغُرّ، فإنّ الأمان منهم يومًا بعد يوم يَفر!، لم؟، حتّى التجار من حولهم في ضيق، وقرف حقيق. مراكب التجارة اَلتي كانت سائرة تبطئ يومًا بعد يوم. الكلّ يشكو.. من يملك عملاً، ويكاري صنايعية. من يملك دكانًا، ومن يعمل حمّالا، أو وزّانا، أو دقّاقًا، أو حتّى سقّاءً. الفلّاحون يهربون جماعات جماعات إلى "القاهرة" وإلى "الإسكندرية". المماليك يقبضون على بعضهم ويجلدونهم، فيهربون من جديد ولا يجدونهم، وإن وجدوهم وجلدوهم وأرهبوهم، فما العمل مع الهاربين غيرهم وغيرهم؟، فالعيشة في الرّيف أصبحت قرف يقرف الخنزير. يأتون زرافات إلى المدن، ليشتغلون في أيّ شيء والشغّل أصلا ندر، والرّزق شح وفتر.

الحرامية تزايدت، والنسوان البطالة زادت، وتنافست مع بعضها فتراشقن بالقباقيب على زبون كحيان. وأصحاب الكيف لا يجدون الكيف، ولو حشيش من النّوع الجربان. القوي يخطف من الفقير، والفقير ليس له غير الدّعاء على المفتري والصّياح بكلمة "آمين"، وهذا كلّ ما يستطيعه المستضعفون المساكين، والرّعية أغلبها مساكين، صارت تأكل ورق اللِّفت، واللّوبيا، وياويله من سار في الطريق، ومعه حمل دقيق، أو أيّ شَيْ يَشِي بأنّه طعام. دهماء مظلومون تقوّوا على بعضهم، لتعويض

جُبنهم على ظالميهم الأقوياء. فظهرت عصابات من العاطلين، ولكلٍ منها زعيم يُقال عنه "منسر". عصابات تبثّ الرعب في الناس، وتفرضُ عليهم الإتاوات، والغرامات. فكان الاحتياجُ إلى من يقف قصادهم القوة بالقوة، والعنف بالعنف، فلا مملوكًا مسئولاً يهمّه أمر الرعية، ولا أميرًا من الغُزْ المفترية يهمه غُلْب الغلابة في هذا البلد الذي صار غابة، عسكر المحتسب والمستحفظان، ونائب السلطنة لا يهمّهم أمان الناس، همّهم أمن السّلطان إلى أنّ يقرّر كبارهم شَلْحَه بسجنه، أو ذبحه. من الآخر.. عمَّت الفوضى وسيبان الحال، فاخترع النّاس نظام "الفتوة". فتوة في كلّ حي، وحوله بعض الألاضيش ليس لهم في الغشومية خَيْ، وقلَّة المفهومية زيّ. شغلتهم حِماية الناس من شرّ عصابات "المناسر". وينعم النّاس بقليل من الضمان إنّ كان الفتوة خَيِّرا، ويتحمّلوا القليل من شرّه إنّ كان شريرًا، فشر الفتوّات جَنّة بجوار نار المناسر!!

فكان في كلّ حي فتوّة، والأحياء المتجاورة يتفاهم فتواتها، لتنصيب فتوة على الكل. الفتوات نادرًا أصحاب مروءة، وكثيرًا أصحاب خطيئة، وغالبًا بين بين. وفي حي "الحسينية" الذي اتسّع، واشتهر أهله بالقوّة والجدعنة اختاروا المعلم "الدوسري" فتوة عليهم.

"عز الدين"، ومعه ثلاثة من كبار كبار المستحوذين على التجارة، و"كمال الدين" مع أميرين كبيرين، عملوا جمعية سرية غاية في الأهمية. قرْروا.. خلاص عصر "بِنْبان" لازم يِرُوح في خَبر كان. الكثير من التجار وأرباب المشغولات، والتوصيلات صار ساخطًا، والكثير من المماليك

بات في عقله خابطًا، وكلّ بني آدم من الرعية الجعيدية الصعاليك يصطبح، ويُمسي زائطا. التجار تتهّم، وتتحفّز ضد "عز الدين"، وأتباعه من التجار الكبار، وكبار الأمراء الأشراف يتهمون، ويتحفّزون ضد "كمال الدين"، وأتباعه من المماليك ورجال الدين. والأمير "عثمان أغا" أثبت أنّه من الطير الذي لا يُؤكل لحمه بسهولة. معه الكثير من المماليك، والمصيبة أنّ مماليك "حفيظ" هربوا من أماكنهم التي توزّعوا عليها، وانضمّوا إلى هذا اللّئيم "عثمان أغا". وبقايا السّلطان المعدول، والسّلطان المهدور أيضًا انفلتوا من استكانتهم سنينًا، وأعلنوا طاعتهم لعثمان أغا، وإن دخل بهم في معارك الوغَى. وعدد من أمراء الشّام، والصعيد أصابها الملل، وصاروا من طول البطالة في كلل. تهامسوا.. ما عليهم من سوء إنّ شاركوا في كعبلات لخبطة، وربّما نالوا إضافة، وقربًا من "القاهرة"، أو على أقله مكافآت، وتشكّرات وطبطبة.

والعامّة في المدن من صعاليك، وحرافيش تتململ، وفي حَقّ المماليك والسّلطان تبرطم وتقول، والفلّاحين في الغيطان زاد هروبهم، وتركوا الحقول. إذن الموازين مالت، وسربعة الأحداث قالت.. المصلحة نستبق الهوجة، والانفلاتات بإزاحة "بِنْبان"، وتجديد السّلطان. وعليه.. نستبق الأحداث، والحوادث المفلوتة بأحداثنا وحوادثنا المربوطة. نستغني عن كام كبش فداء خسران، وأوّلهم السّلطان "بِنْبان". الوقت ضيق ويومين تلاتة أمور "مصر" يا تكون معانا، وإحنا في القلعة والقصور، و"عثمان أغا" وأتباعه في السّجون والقبور، يا تكون علينا، وإحنا اللّي في القبور،

و"عثمان أغا" في سعادة وحبور. ولغاية اليوم إحنا نكسب، علشان معانا جيوش أكتر ومماليك أكتر وفلوس أكتر، وتنظيمات أحكم. لكن.. مين سّلطان جديد؟ "اليوسفي"؟ رفض "كمال الدين". "اليوسفي" يبقى قائد جيوش. "الألباني" أفضل. فهو أطوع لنا، ونخلّيه يكون زي "بِنْبان".. طرطور. ونغير المثل اللّي بيقول: "إنّ اللّي ما سرقش في عهد بِنْبان، مش حيقدر يسرق تاني". ويقولوا.. "اللّي مقدرش يسرق في عهد بِنْبان، يقدر يسرق في عهد الألباني". وافقت الجمعية السرية وقالوا..

– "المهم "كمال الدين" يفضل نائب سلطنة، و"عز الدين" نقيب تجار."

"شمس" أخذوها بقسوة، ورحّلوها إلى الإسكندرية، ومنها سوف يتم نفيها. خرجت باكية، و"غُزلان" تشمت فيها وتسبّها. "شمس" متأكّدة أنّ عقوبتها أصعب بكثير من عقوبة "غُزلان"، وبالقطع أصعب من العقوبة التي ستُقرر على "حفيظ السلولي"، فلن ترى بعد الآن حفيدها "حسام"، ولا ابنتها "قمر". سيُسمح لها بكيس ذهبي واحد، ولن ترى من أحبابها أيّ واحد. ستترك البلاد، لتعود إلى الفقر في بلاد "السّهول الثلجية"، و"البحيرة البحر". ليس معها لا ذهبها الذي يملأ صندوقين، ولا مجوهراتها التي لا تُعدّ، خاصة قلادة "الزمردة الخضراء"، ولن تحمل معها قيراطًا من ضِياعها الشّاسعة. تعود كما جاءت ضائعة فقيرة، فقط على كتف أحمال سنوات الكهولة والكسْرَة، وعلى الكتف الآخر أحمال الحسرة!

في محبسه لا طعامًا يصل لحفيظ. صبر يومين طويلين. قُلَّة الماء الفخارية لا تُملأ أبدًا، وكأنّ القُلّة زينة، أو تحنيسه. كلّ صباح يأتي حارس، وينادي "السلولي" ليأتي، ويشرب. يتقرّب "حفيظ" فيلقي الحارس من كوة الباب بكوز مياه فاترة عَكِرة في وجهه. يفتح "السلولي" فمه، ليشرب أكبر قدر ممكن. ثمّ يمص في صدر جلبابه ما بقي من بلل. ينادي ليملؤوا له القلّة، لكن لا استجابة.

الحر شديد في محبسه، والعرق غزير، فيبقى عطشانًا جوعانًا. في اليوم الثالث بعد لطشة المياه التي لا ترويه، سبَّ الحراس وكلّ الناس، وطالب بالمياه وبالطعام، يصيح أنّ منع الطعام عنه حرام! "غُزلان" في المحبس المجاور ضحكت ضحك مجانين. مبسوطة أنّ "السلولي" عطشان جوعان. حين يأتيها طعامها البائس. تأكل بشهية، وهي تنادي "السلولي" بأنّ يتفضل معها. ترفع القُلّة الماء وتشرب، وتُسمعه صوت كركرة المياه وهي تنسكب في فمها، ثمّ تتكرّع وتحمد بصوتٍ عالٍ؛ لتفقع مرارة زوجها. في اليوم الرابع "حفيظ السلولي" في منتهى الضّنك، وكاد يهلك من الجوع. خلع خُفّه وحاول أكل قطع رقيقة منه، ففشل. بكى في صمت، وفي قلب اللّيل بكى بصوتٍ عالٍ. "غُزلان" يصلها بكاؤه، فتناديه بصوتٍ عالٍ شامتةً فيه وتسّبه، وتضحك رغم الهّم الذي هي فيه!

في اليوم الخامس قرار نائب السلطنة بكسر قرار السّلطان، لا تعذيبًا يطول بحفيظ السلولي. التخلّص منه سريعًا حتّى يَقطع أمل مماليكه، وينكسر جانب من جوانب "عثمان أغا". "حفيظ" ضاعت وسامته، وانمحت

حلاوته. عيناه باكيتان، خداه غائران. شعره منكوش، وشاربه ساقط على شفتيه، وذقنه وكأنّها نبات شيطاني مُنطلق في فوضى هنا وهناك. تعبان، هلكان، عدمان، ولا يستطيع السير، وإنّ قام ليسير ناحية الباب، ليسترق السّمع، ثمّ ييأس من سماع خُطواتٍ تأتيه، لتخلّصه، وتبلّغه أنّ السّلطان عفى عنه، يعود كما ذهب وهو ينهنه باكيًا، مستندًا على الجدران محنيَّ الظهر، مرتعش السّاقين. ملقي أرضًا على جانبه، مستسلمًا لموتٍ يأتيه.

فُتح باب الزنزانة، ودخل عليه قائد الحرس، وخلفه حارس يحمل صينية شاسعة مكشوفة، محمّلة بأرز مرشوش عليه دِمعة، وفوق عرش الأرز دجاجة سمينة ثمينة ذهبية اللّون والبخار يتصاعد من الصينية يبثّ عطرًا أخاذًا. وقف مندهشًا منبسطًا. وصاح..

– "الحمد لله الحمد لله. لك الشكر يا بِنْبان.!"

وثب على قائد الحرس الذي فُوجئ، وظن هو وتابعوه الاثنين أنّ "حفيظ" يريد الهرب، لكنّ "حفيظ" أغرقه بالقبلات. قعد "السلولي" بجوار الصينية، وبيديه الاثنتين يتناول قبضات من الأرز السّاخن. يوحوح من السخونة، ويأكل ويأكل. يمّزق الدجاجة حَتتَك بَتَتك، ويزلط لا يكاد يتنفس من انشغاله في الالتهام. توقّف وهو يضغط على بلعومة؛ لينزل الحشر المحشور في زوره. تبيّن أنّ الطعام غارق في الملح والبهارات. نظر ناحية القُلّة، وتذكّر أنّ الحارس لم يضع فيها أيّ قطرة من المياه. صاح..

– "مَيّة. مَيّة اللـه لا يسيئكم."

واستمرّ يأكل، ولا يأبه لتشجيع غريب يأتيه باهتًا من الزنزانة المجاورة حيث "غُزلان". تضحك وتطالبه بالتهام الطعام. لكنّ لماذا تضحك تلك المرأة المعتوهة؟! مستمرّ في كبش حفنات الأرز بكامل كفّه؛ ليحشرها في فمه الممتلئ. توقف..

– "مَيّة. مَيّة الله لا يسيئكم."

ردّ الحارس مبتسمًا وهو يترك الزنزانة مع زميليه، ويغلق خلفه الباب..

– "الميّة جاية حالاً يا حفيظ."

"حفيظ السلولي" من كان نائب السلطنة من أيام معدودة متربّع أرضًا، كالشحاذ يمضغ ما في فمه، وينتظر الماء. يعود لتناول بقايا الدجاجة، لكنّ ببطئ، وكثافة الملح والفلفل تؤلمان حُلقومه وزوره، ومعدته، وبعد بضعة مضغات يطالب بالماء، ولا يأتيه الماء. العطش يحرقه، وقد امتلأت بطنه بالطعام المملح، والمعبّأ بالتوابل. يصيح..

– "مَيّة. مَيّة ياناس. مَيّة يا حرس. بسرعة يا أوّلاد الكلب."

استمرّ في الصياح، واستمرت "غُزلان" في الضحك. فهم أخيرًا ما خُمِّر له.. أنّ يموت عطشًا. أنّ يموت بحُرقة معدته، ومصارينه! أسرع ناحية القُلّة، وحملها، ورفعها ربّما فيها قطرة. لا شيء. القُلّة أجفّ من لوح خشب ملقي في الصحراء. وقف يصرخ ويصرخ، وأخذ خُطوات

لباب الزنزانة، وأخذ يضرب على الباب الخشبي الثقيل وهو يترجى ويتألم. حاول أنّ يلفظ ما أكله لم يستطع. عاد للصراخ والترجّي، والسّباب، ولا شيء منها مُجاب. أخذ خطوتين وركل القُلّة، فانطلقت لترتطم بالجدار وتنفجر، وتسقط شظايا. أقعى باكيًا. وقبل ما الليل يِرُوح أسلم الرّوح.

نبتت في قلب "قمر" عزيمة استجمعت بها بقية عافية وعزيمة. نظرت إلى "البهاء"..

– "يا البهاء. أنت رجل شهم. ظلموك بجوازك منّي. لكنّ عارف أنا مالي ذنب في ولادة "حسام" من رجل غيرك. كنت محتارة زي ما كنت إنت محتار. وإنت يا ابني يا "حسام". اسمعني، وغلاوتك عندي وأنا أمّك، مالي ذنب في ولادتك من غير زوجي، ولا في عشقي لرجبيّة. ربنا يرحمها. أنا مقهورة، ومجبورة يا "حسام". مسامحني يا ابني؟"

– "طبعًا يا أمي. أنا كمان قسيت عليكِ.. إنتِ مسامحاني يا أمّي؟"

– "أكيد يا حسام. إنت ابني."

نظرت إلى "البهاء" الجالس في حزنٍ يتابعهما. قالت..

– "بر مصر رايح في داهية. الأمرا حيحاربوا بعض. أبوي "بِنْبان" في خطر. وأبوك يا "البهاء" حيكون في خطر، ومحدّش حيعرف مين حيفضل، ومين حيتقتل. "حسام".. لازم أنت، وأبوك "البهاء" تبعدوا لغاية ما يبان مين يفضل، ومين ينحبس، ومين ينقتل. إنّ كان "بِنْبان" أو "اليوسفي" حد

منهم فضل، ترجعوا. اتقتلوا.. تفضلوا بعيد، علشان في الحالة دي إنتم كمان يا حتتقتلوا، يا حتنحبسوا وتتعذّبوا."

– "كلام حقيقي قمر. وإنتِ ترحلي معانا."

– "لا يا "البهاء". أنا حكون زيادة شبهة عليكم. أنا يهمّني أنت وابني تكونوا في سلام. أنا حفضل في القصر. مفيش خطر من وليّة زيي، علشان يعملوا فيها شر. والأمور تتحسّن ترجعوا، يا أنا أروح ليكم أزوركم."

قام "حسام"، واقترب من أمه. قبّل رأسها..

– "أمي قمر."

– "حسام ابني."

– "أبويا متجوز من فلاّحة، وخلّف منها ولد!"

– "كنت حاسة. وأنا مش زعلانة. أبوك مبسوط، خلاص."

– "حناخد مرات أبويا، وابنها معانا. ابنها أخويا. أخويا علشان أنا أبويا هو "البهاء" مش المملوك الجبان!"

– "بهاء.. حتهربوا على فين؟ الشام في أعداء كتير، حيمسكوكوا ويعتوكوا للّي حيقعد على العرش. والصّحرا في الغرب خطر كبير يا البهاء."

- "لا الشام ولا الصّحرا. حنروح "النّوبة" بعد الشلال. عند حصن "أبريم". في مماليك هربوا من زمان، فيهم أصحاب أبويا اليوسفي."

الليل يكبس. القافلة ثلاثة حمير. "نَجِيَّة"، وأمامها ابنها "عَزيز" على ظهر حمار. والحماران الثانيان على ظهر كلّ منهما "بهاء" و"حسام"، وأمام كلاهما زكيبة محشوّة بأغراضهم. كلّ زكيبة بها سكين كبيرة مقبضها من السّهل الإمساك به، لسرعة إشهار السكين في حال الاحتياج. أغلقوا باب بيتهم جيدًا، وتركوه وهم غير واثقين من بقائه سليمًا لو كُتبت لهم العودة. الحمير الثلاثة تُسرع ناحية الميناء. الشوارع في هذه اللّيلة الباردة ليست ساكنة تمامًا. تحرّكات متوتّرة من أناس أغلبهم فلاحين بأُسرهم، يبحثون في لهوجة عن مكانٍ يبيتون فيه. ثمّ مجموعة من رجال، وشباب معهم شُعلتين مقبلين ناحيتهم في توتّر. يمرون بجوارهم، وأغلبهم في غضب واضح، وبؤس فاضح. أحد شباب المجموعة يتمعّن في وجه "بهاء". اقترب بالشعلة التي يحملها. صاح..

- "ياناس. أهو دا واحد من الغز ولاد الشرموطة."

- "متنكر في لِبس ولاد البلد! على مين الحركات دي يا أهبل."

التف شباب المجموعة حول الحمير الثلاثة. أيادي "بهاء"، و"حسام" أمسكنا بمقبضي السكينين في توتر. "نَجِيَّة" صاحت تلعن في الشاب الذي ظلم زوجها بأنّه غز. تردح وتلعن، ولا تأبه ببكاء "عَزيز". لكنّ الزحام يضيق عليهم، وبعض المحاصرين رفعوا العصي والنبابيت عليهم، وبدأت

الأيادي تحاول انتزاع زكائب المحتاجات من ظهر الحمارين. وقبل أنّ يُشهر "بهاء" و"حسام" سكينتيهما كان صوت قوي يصيح في الناس أنّه يعرف تلك المرأة، وأنها وعائلتها ولاد بلد، وليسوا من الغز. اقترب صاحب الصوت العريض، والجسم القوي من الحمير الثلاثة وركاّبها. وضع يده على رأس "عَزيز" الباكي، وهو ينظر لنَجِيَّة التي صاحت..

– "المعلم دوسري!"

– "ست نَجِيَّة، بسرعة تروحوا مطرح ما ناوين تروحى. بكره مفيش أمان، لا في شارع، ولا في بيت، ولا في غيط. باين في هوجة تانية حتقوم."

تنظر إلى عينيه. مازالت بهما أشواق قديمة لها. جسدها انتابته قشعريرة سريعة استجابة للبثّ الجنسي الصّادر من جسد "الدّوسري". مدت يدها، وجذبت كفه لتقبّلها، فسحب يده سريعًا، وصاح فيها..

– "يالاّ يا "نَجِيَّة"، بالسلامة اتكلوا على الله بسرعة."

استكملوا سيرهم سريعا، فوصلوا الميناء والمركب الشراعي الكبير في انتظارهم.

السّلطان "بِنْبان"، وقد أبلغوه بموتة "السلولي" البشعة، وبترحيل "شمس" إلى الإسكندرية. رفع كفيه يضغط بهما على وجهه. أحسّ بالإصبع الناقص. كآبة تحويه، وتكويه. يسأل كلّ من يقترب منه من العبيد

والجواري، وهو ينظر إلى الإصبع الناقص..

– "كان ليه كلّ ده؟!"

أقنعه نائب السّلطنة أنّ يفرّج عن نفسه قليلاً، ويذهبوا معًا إلى ملعب الكرة حيث الصحراء النقية، ومنظر بنايات الأهرامات. "بِنْبان" هضيم الوجه. ملامحه زادت قبحًا. عيناه باكيتان لا تلتقط أيّ لون، فالدنيا صارت لونها رماديًا. يهتز على فرسه بجسده الذي فقد الكثير من اللّحم والشّحم. مملوكان من حرسه السّلطاني يحملان مظلّة السّلطنة، يحميانه من سطوة ال"شمس". خلفه المملوك حامل رنك السّلطنة.. الصقر الشرس. على يمينه نائب السلطنة "كمال الدين"، وعلى يساره قائد حرسه "الألباني". خلفهم الحرس السّلطاني بجلالته وفخامته. "اليوسفي" غائب، يحضّر للقضاء على "عثمان أغا". طوال الطريق السّلطان "بِنْبان" ينظر للأمام، لكنّه لا يرى أيّ شيء معلوم، ولا يفهم مما حوله جانبًا مفهومًا، ما عاد تفكيره البسيط يستطيع ترتيب خيوط اللّعبكة، وكلّ هذه الدربكة. وصلوا إلى ساحة الكرة. لم يلتفت إلى الإهمال السائد، فالأرض ليست مستوية، والنجيل ذابل مُصفَر. ولا الجِمال حاملات قرب المياه متواجدة، والأزيار جافّة، ولا تغطيّها خيمة ظليلة. الفارسان حاملا المظلّة ضمّاها، وانسحبا جانبًا وقد سبقهما حامل الرنك. نظر السّلطان بغرابة إلى كلّ هذه الفرسان التي تحيط بالملعب. لابسين حربي! نظر جانبًا إلى نائبه "كمال الدين" مندهشًا، فقال له "كمال الدين"..

– "بِنْبان."

– "آه. خلاص."

– "خلاص بِنْبان. اليوم وبكرة حرب مهولة ضد "عثمان أغا". مين عارف مين يكسب."

– "إنت حتكسب "كمال الدين" عقرب. إنت حتكسب. كمال الدين. وعدتني "كمال الدين" ذريتي أمان؟"

– "في أمان."

– "وأنا.. مسجون ولاّ مذبوح ولاّ.."

– "لا بِنْبان. إنت كمان في أمان. دا إنّ إحنا غلبنا "عثمان أغا". لكنّ لو هو غلبنا، مين يعرف مصيري أنا إيه، ومصيرك إنت إيه. إنت ما عملت فيّ شيء وحش. العكس.. إنت عطيتني أمنية عمري.. نائب سّلطان. نائب سلطنة "بِنْبان". أنت لا مسجون ولا مذبوح، ولا موسوط. لكن.. لكن، من هنا طوّالي تروح تعيش في بيت معذول تاكل، تشرب، تنام، لغاية ما تموت موتة ربنا.!"

– "ادفني في قبري. جوه الجامع اللّي بنيته."

– "يكون إنّ شاء اللـه."

– "مين سّلطان بعدي. إنت؟ اليوسفي؟"

– "لا. أنا زي ما أنا نائب سلطنة. وسّلطان يكون هذا."

أشار إلى من يقف، وخلفه الحرس السّلطاني..

– "الألباني."

ميناء "الإسكندرية"، والأفق المفتوح، ورائحة البحر تفوح. في السّماء سحب خفيفة، وطيور نورس تسبح في العلالي وتصيح. تهبط بسرعة؛ لتلتقط أسماكًا سيئة الحظ من البحر الهادئ. على الرصيف الحجري أجولة حبوب متنوعة الرّوائح، وصناديق خشبية مُغلقة بإحكام، وعدد من المراكب المتنوعة الأحجام راسية، ومركب مقبلة من بعيد. تحرّكات وصياحات الحمّالين والبحارة تتعالى من هنا وهناك.

مركب كبيرة بأشرعة شاسعة. ركابها يصعدون على سقالة خشبية، عريضة طويلة. تقترب امرأتان مُنتقبتان من المركب، ملابسهما توضح أنّهما من عَليّة القوم. إحداهما قوية البنية، زرقاء العينين الضيقتين خطواتها راسخة، والثانية عادية الجسد، زرقاء العينين الواسعتين خُطواتها مضطربة. خلفهما ثلاثة من عسكر المماليك، وحمّال يحمل صندوقًا متوسط الحجم. اقتربوا من سقّالة المركب الكبيرة. خطوات "شمس" ترنّحت، فأمسكتها ابنتها من تحت باطها تساندها. قالت "شمس"..

– "ياريت أبوكِ كان قتلتني. ياريته كان شنقني، ولاّ قطع راسي. لكنّ ينفيني، علشان بقية عمري أكون موجوعة على ابنتي، وحفيدي "حسام"! يرجّعني فقيرة كما جيت يا "هناء"؟"

"هناء" تمسك نفسها من الغضب، حتّى وهي تساند أمها، أمها تتذكّر أختها "قمر"، وحفيدها من "قمر"، ولا تقول كلمة عن ابنتها "هناء"، ولا عن حفيدها من ابنتها "هناء"! "هناء" ابنها لم يأت ليودعّها، يكره جدته. و لم يحضر زوجها أيضًا. عند الوداع احتضنت ابنتها العفية "هناء". بكت، و"هناء" لم تبك. حضن "شمس" لهناء ليس لفراق "هناء"، بل لفراق من تحبّهم، و"هناءً" مجرّد جسد وجدته بجانبها، فاحتضنته.!

مسحت "شمس" دمعتين، واستدارت متّجهة إلى السقّالة وخلفها الحمّال، والصندوق الضخم مستقر على ظهره. عاد الحمّال هابطًا، وبقيت "شمس" متصلّبة على سور المركب، وإرهاق سفرها المتعب من "القاهرة" أنهك جسدها، وغلالة كآبة الفشل وهي راحلة من "مصر" لبلدها أزاحت التطلّعات، والآمال الجبلية التي كانت تشعّ منهما وهي مُقبلة على "مصر". تتحرك المركب. "هناء" تلوح لها، "شمس" تنظر لابنتها، وتنظر النظرات الأخيرة للبلد الذي تتركه، ولن تراه مرة أخرى. حُرقة الفشل المرير، والاتجاة إلى مستقبلٍ غرير. تفكّر في حفيدها "حسام" الذي حُرمت منه، "صُبيح" طفلها المدفون وحده، وحرموها من الرقود بجانبه. تبكي ثروتها التي تركتها، والجاه الذي نفاها منه "بِنْبان".. ذهبها، جواهرها أرضها.. كلّ شيء. كلّ شيء، و لم يتبقّ لها سِوى الآلام.

المركب تتجه شرقًا قاصدة بلد "البحيرة البحر المثلجة" التي أتت منها، وهي صغيرة مُعدمة، مشبّعة بالإصرار أنّ تكون شيئًا كبيرًا خطيرًا. بصوت خفيض أخذ يعلو.. تلعن "بِنْبان"، وتنعته بالطرطور. صرخت صراخًا متكررًا، وهي تمد يديها ناحية الميناء حيث ابنتها "هناء". تصرخ، وتصرخ،

ثمّ أمسكت بجدار المركب، ورفعت ساقًا تهمّ بإلقاء نفسها. أمسكوها، وأرقدوها وقد أغمي عليها.

النيل النجّاشي عريض مُترع يتدفّق شمالاً، وعلى ضفتيه مساحات من الخضرة والأشجار، ومتناثرات من النّخيل الطويل والمتوسّط. نسائم الشمال نديّة تترقق صاعدة للجنوب. قوارب عدّة على مسافات من بعضها، هابطة وهي طاوية الشّراع، ومراكب صاعدة جنوبًا، وأشرعتها البيضاء تُهفهف كأجنحة طيور عملاقة تبثّ الأملِ. قوارب تحمل الأجولة، وقوارب تحمل الفخاريات، ومنها ما تحمل تلالاً من الحبوب. وقارب صاعد على ظهره ملاّح وصبي يساعده، الحمولة عائلة، وجوههم مبتسمة رغم دوّامات القلق التي تدور بداخلهم. للقارب جناح شِراعي هائل منتصب إلى عُلُو، والهواء يملؤه بالعافية، لينبعج ناحية الجنوب، ويسحب القارب بمن فيه صاعدًا في النهر. المغربية الحمراء، ثمّ خيمة الليّلِ السوداء تنسدل والمركب تتصاعد في إصرار. "عَزيز" يتوسّد حجر أمه "نَجِيَّة"، وذراع "بهاء" يربت على ظهر "نَجِيَّة"؛ ليزيدها اطمئناناً، و"حسام" ينظر إلى الجميع راضيًا متفائلاً بحياة جديدة.

أذان فجر خافت، ثمّ ينير الأفق لونًا شفقيًا باهتًا. الهواء لذيذ، والنهار ينجلي بإنعاشة صُبح مُبلل، وألوان في الأفق مبهجة. أُمواج النيل تتعاقب مُتدحرجة ناحية الشمال، وهي تتحوّل من الداكن للّون البني. النيل عريض، والخضرة على الجانبين، والأشجار باسقة، وصوصوات العصافير تتشابك، وتتضافر، ثمّ أسراب منها تنطلق من أغصان الأشجار

إلى الأجواء الرحبة الرطبة. طيور بيضاء تطير في وثباتٍ لأعلى، وتهبط ثانيًا على الخضرة، لتلتقط الديدان. بعض الطيور تسبح فوق النهر، وتهبط عليه لتبقى متراقصة مع موجة. هسيسِ الموج اللّين، وخفقات الشراع، وأصوات متقطعة لحمار ينهق، وجاموسة تخور، وصياح بعض الفلاحين. سِنّ، القارب يشقّ الأمواج راسخًا مُصرًا على الصعود.

"عَزيز" يتقلّب في حجر أمه. تنظر إليه "نَجِيَّة" في حب وشفقة. "البهاء" يتحرك، ليجلس بجوار "حسام"، وينظران إلى بعضهما في ودٍ وصداقة. ينطلق من فم الأربعة ومعهم الملاحان..

- "صباح الخير."

"نَجِيَّة" تسحب حبات برتقال متألقّة من زكيبة، "حسام" أكثر المبتسمين، وأعمقهم أسى، وهو يتأمّل لمعة البرتقال الطازجة. يقشرون، ويأكلون. ساعة زمن.. قرية على اليمين يقاربها القارب. أصوات تصل أولاً لسمع "نَجِيَّة"، فتضطرب سحنتها. عيونها تتشبّع بالدموع. يسأل "بهاء" قلقًا..

- "نَجِيَّة. مالك؟"

ينتبه الكلّ حتّى "عَزيز" الصغير. الكل ينظر ناحية إشارة يد "نَجِيَّة"، وهي تبتسم رغم دمعتان تدحرجتا على خدّيها. تشير إلى ضفة القرية التي كادوا أنّ يوازوها..

- "البنات."

مجموعة من الصبايا المراهقات على الضفّة، مُشمّرات الجلابيب والأكمام يغسلن الأواني. سيقانهنّ، وأذرعهنّ المتحركة، وأعلى صدورهنّ تبرق ألقًا. يتضاحكن، وشعرهنّ ينسدل على جانبي الأكتاف وعلى وجوههنَّ، فيبعدن الخصلات في دلالٍ صبيانيّ. أطفال في بدايات المراهقة يسبحون، ويراقبون الأذرع والسّيقان والصّدور. وعلى مقرُبة من البنات صبي يدَّعي الانشغال بأمر وهو يراقب فتاة من الفتيات. ضحكت "نَجِيَّة"، وهي تمسح دمعاتها على الخدين، وصوت غناء البنات يصلهم..

- "ياللي ع الترعة حَوِّدْ ع المالح."

- "ياللي ع الترعة حَوِّدْ ع المالح."

- "وسطي بيوجعني!"

- "من إيه؟"

- "وسطي بيوجعني من رقص امبارح."

- "ياللِّي ع الترعة حَوِّدْ ع المالح."

- "صدري بيوجعني!"

- "من إيه؟"

- "صدري بيوجعني من قرص امبارح."

- "ياللِّي على الترعة حَوِّدْ على المالح."

تخطّت المركب كوكبة البنات، وهنّ مستمراتِ في عملهنّ ولهوهنّ. "نَجِيَّة" تدير رقبتها، وترّاقب البنات وتخاطب نفسها..

- "يااااه.. لسّة البنات بترقص، وتغّني!"

29 سبتمبر 2010

حجّاج أدّول

المؤلف في سـطور

حجّاج حسن أدّول

–بدأ الكتابة الأدبية في سن الأربعين. عام 1984. في الدراما المسرحية أولاً، ثمّ القصة القصيرة، ثمّ في الروايـــة.

–جُنِّد بالقوات المسلحة سبع سنوات. من 1967 حتّى 1974. اشترك في حرب الاستنزاف، وحرب أكتوبر 1973.

–حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام 1990. فرع القصة القصيرة عن مجموعة (ليالي المسك العتيقة).

–جائزة الأدب المصري من مؤسّسة "ساويرس" للتنمية الاجتماعية (فرع الرواية) عام 2005.

–عضو جماعة المبادرين النّشطة في القضية النوبية.

المؤلّفات الأدبية المنشورة

مجموعات قصصيّة:

1 - ليالي المسك العتيقة

مجموعة قصّصية 1989. دار الحضارة للنشر. (جائزة الدولة التشجيعية عام 1990). مترجمة للإنجليزية، ونشرتها تبع الجامعة الأمريكية بالقاهرة 2005.

2 - بكّات الـدم

مجموعة قصّصية 1991. سلسلة أصوات أدبية. العدد 22.

3 - غزلية القمـر

قصّص قصيرة 1996 دار الحضارة للنشر.

4 - Take Awa

مجموعة قصّصية. 1999 اتّحاد الكُتّاب المصري مع دار "زويل" للنشر.

5 - الشاي المـــر

مجموعة قصّصية عن الحرب المصرية الإسرائيلية. 2002 دار ميريت

روايـــــات:

1 - ثنائية الكُشَـــــز

رواية 1992. طبعة ثالثة 2006 الحضارة للنشر.

2 - خالي جاءه المخاض

رواية قصيرة 1999 إصدارات صندلية. طبعة ثانية من الحضارة للنشر 2007.

3 - معتوق الخير

رواية في مجلّدين 2002 المجلس الأعلى للثقافة. مطبوعات التفرغ. طبعة ثانية من الحضارة للنشر.

4 - خُوند حمرا

رواية عن العصر المملوكي. 2006. الحضارة للنشر.

5 - مَجِسّي

رواية أسطورية. 2009 حضارة للنشر.

6 - رحلة السّندباد الأخيرة

رواية مستوحاة من حكايات ألف ليلة وليلة. 2009 حضارة للنشر.

7 –هجوم القراصنة

رواية للناشئين خلفيتها قضية "فلسطين". حضارة للنشر.

مسرحيات:

1 – ناس النّهر

مسرحية 93. الهيئة المصرية للكتاب. سلسلة المسرح العربي.

2 –النزلاية

مسرحية 1993. الهيئة المصرية للكتاب. سلسلة إشراقات العدد 141.

3 –إغراق عنخ

مسرحية تعتمد على الأسلوب الحركي، والموسيقى دون حوار. مجلة خماسين 1996 ومجلة "تافكت" وهي تصدر باللغة العربية بألمانيا.

4 –أحضان القنافذ

مسرحية كوميدية. 1999 إصدارات صندلية مع "الصديقان للنشر".

5 –تسابيح نيلية

"مسرناريو" عام 2000 نص يجمع بين كتابة الدراما المسرحية، وأسلوب السيناريو السينمائي، وعلى خشبة المسرح يعتمد على أسلوب

المسرح الحركي، والموسيقى، والحِــوار مع الخلفيات السينمائية. نُشِرت في المجلس الأعلى للثقافة عام 2003.

6 – يا بلاكونات لندن

مسرحية جادّة في إطار كوميدي عن مقتل عددٍ من المشاهير المصريين في "لندن".

7–اعتصام الأجنّة

مسرحية جادّة في إطار كوميدي.

عن القضية النوبية:

1 –النوبة تتنفسّ تحت الماء

حوارات، وآراء عن النوبة. 1994 .

2– النوبة.. اللاّمعقول في بلاد الإتّر والفول.

مقالات. دار مصر المحروسة. 2006.

3 –الصحوة النّوبية

عن القضية النوبية. 2006. النشر على حساب المؤلّف.

4 –حدّوتة نوبية

عن القضية النوبية. 2008. النشر على حساب المؤلّف.

كتب أخرى:

1 -ونسة مع الأدب النّوبي

المحروسة للنشر 2009.

أعمال أخرى:

-فكرة وسيناريو الفيلم التسجيلي (قطار النوبة)

إخراج: "عطيات الأبنودي". إنتاج: "المركز القومي للسّينما". 2002.

ثلاث
برتقالات مملوكية

"مصر" المحروسة كما تتصاعد في سرعة مع السّلطان ذي الحكم الرشيد، وتصير قوة مُهابة للقريب والبعيد، فهي تتدهور أسرع، وأسرع تحت السّلطان الظالم الفاسد، فيصير ناسها في نكد، وثراؤها في بدد، تصير " مصر" مَلْطشة لكلّ غريب حاسد. يأتي الفقر والمرض فيحلاّ، ويضربان الناس، ويسحقانهم ذلاً. وبألف سببٍ وسبب هل يفتقد شعب "مصر" بعضًا من دمدمات الغضب؟ دمدمات تُبَجْبج ضدٍ ظالميه، بَجْبَجَة غليان دهنيات في حَلَّة على نار حامية، فيتكدّس الشعب المسكين، المستكين بهلاهيله، وخلاخيله ضدّ حاكميه، ويتمرس ضد ظالميه؟ حدث قليلاً. وبالعكس حدث كثيراً بين طبقة الحاكمين الغُزْ المملوكية الناهبين السارقين، والعايشين في عزٍ، حدث الكثير والكثير من تتالي المقالب، وتوالي المؤامرات، وأغلبها حركات مُترعة بالحقارات والسّفالات. السّلاطين وحاشيتهم.. دَيْدَنهم أنَّ الكلّ ضدّ الكل، وعلى الكل ويخاف من الكلّ، ولا يأمن للكلّ. المبدأ الأساسي هو أنّ " الحُكم لِمن غَلَبْ ". مبدأ ليس له تفريعات، ولا تعدّد تفسيرات، فالذي يغلب هو من يمتلك ثنائية السيّف، والدرهم. قوّة السّيوف ظاهرة سواء وهي مُشرّعة، أو وهي في أجفانها. وقوّة الدرهم باطنة حينًا، وواضحة أحايينًا. ويُضاف لهما تحابيش، وتناتيش من دهاء الثّعالب، ولدغات الثعابين، وتحريفات عمائم بائعي الدّين.

الغلاف: بسمة صلاح



